فيض الخاطر

وهو مجموعة مقالات أدبية واجتماعية

الجزء التاسع

كتبه

المرحوم الدكتور

أحمد أمين

[الطبعة الأولى]

مارس ١٩٥٥

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا : بالقاهرة

فيض الخاطر

وهو مجموعة مقالات أدبية واجتماعية

الجزء التاسع

كتبه

المرحوم الدكتور

أحمد أمين

[الطبعة الأولى]

مارس ١٩٥٥

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا : بالقاهرة

فهرس الكتاب

مقدمة

بقلم

الدكتور طه حسين

، يرحمك الله أيها الصديق فقد كنت أحرص الأحياء على الوفاء لمن سبقوا إلى جوار الله ، كنت ترعى لهم حق المودة فيما كان بينك و بينهم من صلة . وكنت ترعى لهم حق الاعتراف بالجميل فيما أسدوا إليك من خير أو أهدوا إليك من بر . وكنت ترعى لهم حق الشكر المتصل على ما قدموا للناس من نفع وما مهدوا لهم من طريق إلى العلم المذكى للعقول والبر المطهر للقلوب والعمل الذى ييسر لهم سبل الحياة .

، كنت أخلص الأحياء صداقة للأموات تذكر قدماءهم فتؤدى إليهم حقهم موفوراً ، وتذكر المحدثين منهم فتمنحهم خير ما فى نفسك من ود صفو وكرم لا تشو به شائبة مهما يكن لونها ١.

وكنت فى هذا كله سمحاً لا تعرف للموتى إلا ما تركوا من آثار تنفع الناس ، وكنت أعف الناس عن أن تتعلق على من فارقوا الدنيا بهذه الهنات التى لا يبرأ منها من خالط الناس ودار معهم فيما يدورون فيه من صغائر الحياة وعظائمها . صورت هذا كله أدق تصوير وأصدقه ، وأبرع تصوير وأروعه فى كل ما كتبت عن القدماء والمحدثين . وكانت حياتك كلها أبرع براعة وأروع روعة فى تصوير هذا الوفاء للذين سبقوك من صديقك إلى الحياة الآخرة .

كنت تذكرهم فترحمهم وتحسن الرفق بهم والرعاية لهم والثناء عليهم ، وكنت لا تدع فرصة إلا انتهزتها لتؤدى إليهم بعض ما ترى من حقهم عليك ومن حقهم على الناس الذين شغلتهم منافعهم وصرفتهم أعباء الحياة حتى عن أيسر الوفاء .

١ يرحمك الله أيها الصديق ما أعرف أنى شهدت منك مشهداً أو جلست معك مجلساً دون أن أسمع منك ذكراً لفقيد أوثناء على عزيز استأثرت به رحمة الله . وأى صديقك لا يذكرون وفاءك الكريم لصديقيك العزيزين عليك الأثيرين عندك اللذين كانا أحب أساتذتك إليك وأبلغهم أثراً فى نفسك عاطف بركات وعلى فوزى ، وما أعرف أنى شهدت معك مشهداً أو جلست معك مجلساً إلا ذاكرتنى حديث صديقنا مصطفى عبد الرازق وما كان بينه و بيننا من شؤون وشجون منذ اتصلت أسبابنا به فى طور الشباب إلى أن قطع الموت من هذه الأسباب أهونها شأناً وهو هذه الأسباب المادية التى تكون بين الناس حين يلقى بعضهم بعضا وحين تنأى الدار ببعضهم عن بعض .

كنت تذكر فى حنان أى حنان مواطن جدنا معه حين كنا نجد ، ومواطن الدعابة والفكاهة حين كانت تدور بيننا الدعابة والفكاهة . وكنت بهذا كله حفيا وله محتفلا . كأن صديقنا لم يفارقنا إلى غير رجعة ولم ينزل منا بحيث أراد الشاعر القديم حين قال :

وجاورت قوماً لا تزاور بينهم ولا وصل إلا أن يكون نشور

وكنا نرى معاً أن أحداً من الناس لا يستأثر به الموت بمعناه الصارم الحاسم ما دام له فى الدنيا صديق يحبه ويؤثره بالمودة وصفو الإخاء . وما أكثر ما كنا نديربيننا حديث القبور الميتة تلك التى تستأثر بالأجسام . وحديث القبور الحية وهى صدور الأصدقاء التى تعيش فيها نفوس الأحياء حياة كلها صفو ونقاء وطهر وبر بعد أن يفارقوا هذه الدار

وما أكثر ما كنا نحصى هؤلاء الأشخاص الأعزاء الذين يحيون فى صدورنا ويعاشروننا معاشرة الرفيق فيحيون معنا حين نلقى الناس و يحيون معنا حين نخلو إلى أنفسنا و يمنحوننا من الأنس بهم والارتياح إليهم خيرا مما كنا نجد عندهم حين كانوا أحياء .

أنت منى الآن أيها الأخ الكريم بهذه المنزلة تعيش فى نفسى مع أتراب لنا كرام سبقنا بهم الموت ولكنه لم يستطع أن ينزعهم من أعماق الضمائر ودخائل القلوب . إنى لألقاك بعد أن فارقتنى أكثر مما كنت ألقاك قبل أن تفارقنى . ألقاك كل ما أردت أنا وما أكثر ما أريد لا كل ما سنحت بلقائك الظروف . ألقاك حين أفرغ لمسألة من مسائل العلم والأدب وأدير فى نفسى حديثنا حول هذه المسألة كما كنا نديرها من قبل . وألقاك حين تعرض لى فى الحياة الخاصة أو العامة مشكلة من مشكلات الحياة التى لا تنقضى وأعرف كيف كنا نلقى هذه المشكلات حين كانت تعرض لنا فنأخذها بالجد حيناً وبالعبث أحياناً حتى تنحل عقدتها وتنجلى غمرتها وأنشد فى نفسى كما كان كل منا ينشد لصاحبه :

ربما تكره النفوس من الأمـ ـر له فرجة كحل العقال

وألقاك وأعزز علىّ بهذا اللقاء حين أنظر فى كتاب من كتبك لأعرف رأيك فى هذا الموضوع أو ذاك من تاريخنا الثقافى القديم . فإذا قرىء علىّ الفصل من فصولك لم أسمع صوت صاحبى الذى يقرأ علىّ وإنما أسمع صوتك أنت كما كنت تقرأ علىّ بعض ما كتبت فيما مضى من الأيام . ثم ألقاك وأحبب إلىّ بهذا اللقاء حين أخلو إلى نفسى حين يتقدم الليل وبعد أن أتخفف من أثقال الحياة اليومية وأعراضها فى تلك الساعة الحلوة المرة . لا ألقاك وحدك وإنما ألقاك مع من كنا نحب من الصديق فأنفق معكم لحظات ما أعذبها وما أمضها كتلك اللحظات التى كنا نختطفها اختطافاً من الأيام ونفر بها من باطل الحياة إلى هذا المكان أو ذاك فى القاهرة أو فى الإسكندرية أو فى مدينة من مدن أوروبا .

يرحمك الله أيها الصديق هذا كتاب يخرجه للناس وفاء أبنائك لك ، وحرصهم على أن يبروك ميتاً كما كنت تبرهم حياً . ولو قد امتدت بك أسباب الحياة لأخرجته كما يخرجونه الآن .

وإنى لأجد فى نفسى هذه الراحة الحزينة حين أقدم هذا الكتاب من كتبك كما قدمت أول كتبك الجامعية « فجر الإسلام » وسيقرأ الناس هذا الكتاب ذاكرين شاكرين ومعجبين محبين. ولكنهم لن يهدوا ذكرهم وشكرهم وإعجابهم وحبهم إلى شخصك العزيز. وأين أنت منهم! وأين هم منك! إنما يهدون هذا كله إلى هذه الصورة الحبيبة إلى النفوس ، الحية فيها ما قرئ لك كتاب. وسيضيف الناس إلى الذكر والشكر وإلى الإعجاب والحب حسرة عميقة لاذعة لأنك لن تخرج لهم بعد كتاباً وان تهدى إليهم رسالة كتلك التى كنت تهديها إليهم بين حين وحين. ولكنى أعزيهم وأرجو لهم شيئاً من صبر فسيلقونك مرة أخرى وعسى أن ألقاهم معك فى ظهر الإسلام :

طوى الموت ما بينى وبين محمد ... وليس لما تطوى المنية ناشر

فلا وصل إلا عبرة تستديمها ... أحاديث نفسى مالها الدهر ذاكر

وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لى شىء عليه أحاذر

طه حسين

الإسلام والمسلمون

من البديهى أنه يجب التفريق بين الإسلام فى مبادئه وتعاليمه ، كما يدل عليه القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة ، و بين أعمال المسلمين من وقت أن اعتنقوا الإسلام إلى اليوم ، فمن أراد الحكم على الإسلام فليرجع إلى أصوله الأولى ، وينظر إلى جوهر تعاليمه ويزنها بميزان الحق والعدل ، ومن الخطأ الفاحش أن يحكم على الإسلام بالمسلمين . فقد يكون الدين صحيحاً ، ومعتنقوه خارجين عليه ، منحرفين عنه ، فيكون الخطأ خطأ أصحابه لا خطأه هو ، بل أحياناً يكون الدين فاسداً فى جوهره وتعاليمه ، ويرتقى معتنقوه ، فتصدر عنهم أعمال فاضلة ، لا تمت إلى دينهم الأصيل بسبب ، و إنما هم الذين حوّروا دينهم ، وصاغوه صياغة خيراً مما كانت عليه — والحق أن الفرق كبير بين الإسلام نفسه ، وعمل المسلمين فى مختلف العصور ، وأكاد أجزم بأن الإسلام لم يحيَ حياة عملية صحيحة طبق مبادئه إلا عصراً قصيراً جداً ، وهو عصر الرسالة وما بعدها بقليل ، وأما ما عدا هذه الفترة ، فقد عاش المسلمون عيشة منحرفة عن الدين ، و إن اختلف هذا الانحراف قلة وكثرة أو شدة وضعفا .

لننظر قليلا فى أهم عنصر من عناصر الإسلام ، وهو التوحيد الذى تبلور فى قولنا « لا إله إلا الله » فهل سار المسلمون عملياً واقتصادياً على هذا المبدأ ، و إلى أى حد ؟ — إن هذا المبدأ يدعو إلى اعتقاد أنه لا يصح تأليه غير الله ، وعبادة غير الله ، وأما من عداه من الناس فسواسية لا إله ولا مألوه ، قد يختلفون فى النسب ، وقد يختلفون فى الثروة ، وقد يختلفون فى غير ذلك ، ولكنهم كلهم إخوة فيما بينهم ، وعبيد لله وحده .

ولكن هذه العقيدة بعدم تأليه أحد من الناس ، تحتاج إلى جهد جهيد فى تطبيقها فى الحياة العملية ، إنها تحتاج إلى رياضة قوية ، تحتاج إلى أن يحتفظ الضعفاء بإيمانهم ، فلا يركعوا للأقوياء ، وتحتاج إلى أن يلجم الأقوياء غرائزهم ، فلا يحاولوا السيطرة على الضعفاء ، وهذا مطلب ليس باليسير ، وإن كان هو جوهر الإسلام .

ومن أجل هذا كان أسرع الناس إلى الإسلام أكثرهم من الضعفاء ، لا من أصحاب السيطرة ، كبلال وأمثاله ، لأنهم وجدوا فى الإسلام تحرراً من عبوديتهم لغير الله . وكان أكبر المعاندين أصحاب السيطرة والتأله من مثل صناديد قريش ، فلم يسلموا إلا أخيراً ، و بعد عناد طويل ، كأبى سفيان بن حرب فى مكة ، أو إسلاما ظاهراً بعد أن سدت الأبواب فى وجوههم ، كعبد الله بن أبىّ فى المدينة ، وأكبر سبب فى تأخرهم ، أنهم رأوا الإسلام يفقدهم تألههم وعظمتهم وربوبيتهم .

ولما فتح المسلمون فارس والروم ، كان أغرب ما استرعى أنظارهم ، عبادة الرعية لسادتهم ، لما وقر فى نفوسهم بسبب الإسلام من أنه لا معبود إلا الله . والقرآن مملوء بلعن الذين اتخذوا سادتهم أرباباً ، أو خلعوا القدسية والربوبية على رؤسائهم الدينيين . وكانت دعوة الإسلام دائماً دعوة إلى عبادة الله وحده وعدم الاعتراف بربوبية أحد غيره « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

ولذلك حارب الإسلام الاعتزاز بالنسب ، والاعتزاز بالجاه ، والاعتزاز بالمال ، لأن كل ذلك من ضروب التأله ، والإسلام عدو كل تأله .

ولكن لم يستطع كثير من المسلمين أن يحتفظوا بهذا المبدأ الجليل القويم ، وظهر التراجع من أول عهد معاوية أو قبله أحياناً ، فعاد الاعتزاز بالحسب والنسب ، وأصبح مُلك معاوية — كما عبر كثير من المسلمين — ملكا عضوداً فيه اعتسافٌ

وفيه تأله ، وخاصة من أهل بيته ، وعادت الفروق بين الطبقات قريباً مما كانت فى الجاهلية ، وتتابع الأمر على هذه الحال ، وكلما تقدم الزمن نمت غريزة التأله ، كما كان فى العصر العباسى وبعده ؛ وبلغ ذلك التأله أوجه فى مثل جنكيز خان وتيمورلنك وأشباههما . إن نظرة الإسلام إلى الألوهية ، والدعوة إلى إله واحد يتساوى أمامه الناس جميعاً تقضى على كل فكرة من شأنها وجود طبقة يكون لها الشفاعة أو الوساطة بين الله وخلقه ، ولكن ما لبث المسلمون أن عادوا إلى سيرتهم الجاهلية الأولى ، فاتخذوا أصنافا من الناس شفعاء يستشفعون بهم عند الله ويتقربون بهم إلى الله ، متأثرين بالديانات القديمة ، أما الإسلام نفسه فيدعو إلى أنه لا حجاب بين أى عبد مهما ضعف وبين الله . وقد عاب على النصارى واليهود اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم ، أرباباً من دون الله .

ولعل السبب فى ذلك ، أن هذه العقيدة الصحيحة ، عقيدة الإيمان بالله وحده ، والخضوع له وحده ، وعبادته وحده ، تحتاج إلى رياضة شديدة فى تصفية النفس من الشوائب ، والنفوس القوية عادة تعشق التأله والاستعلاء ، والنفوس الضعيفة سرعان ما تستسلم ، وهذا مشاهد فى كل أمة ، وفى كل جماعة ، وفى كل عصر ، من عهد أن قال فرعون : « أنا ربكم الأعلى » ومن قبله ومن بعده .

وهؤلاء الأقوياء يتخذون لتألههم أشكالا وألواناً من المظاهر . فمنهم من يتأله بجنوده وبنوده ، وكثرة ماله ونحو ذلك . ومنهم كبار المستبدين فى أممهم مثل نابوليون ، ومثل هتلر وستالين ، ومنهم كبار أصحاب رؤوس الاموال فى كل أمة ، ونحو ذلك ، كلهم يتألهون ، وكل الناس حولهم تؤلههم ، وإن لم يسمّ الأولون أنفسهم آلهة ، وإن لم يسم الآخرون أعمالهم عبادة ، ولكن العبرة بالحقيقة لا بالأسماء . والاسلام يكره هذا التأله بجميع أشكاله وألوانه ، والمسلمون — مع الأسف — فى كل عصورهم ما عدا الفترة الاولى لم يخل سلوكهم من تأله من جانب القوة ، وعبادة وخضوع من جانب الضعف .

هـذه ناحية من نواحى التأله والعبودية ، يصح أن نسميها ناحية سافرة ، وهناك ناحية أخرى من التأله والعبودية يصح أن نسميها مُحَجَّبَة ؛ ذلك أن هناك قوماً لم يكن لهم من قوة السلطان ، وكثرة المال والجنود والعصبية ما يمكنهم من الاستعلاء فى الظاهر ، فبحثوا عن وسائل للاستعلاء من طريق خفى ، ولهؤلاء أمثلة كثيرة كالسحرة والمشعوذين والدجالين من رجال الدين الذين يدعون الاتصال بالغيب والاستمداد من السماء ، وأن بينهم و بين الله نسباً ، أو بينهم و بين الجن صلة ، وأنهم يستطيعون بذلك أن يقربوا إلى الله من يشاءون ، و يحرموا من الجنة من يشاءون ، أو أنهم يستطيعون أن يسيطروا على قوانين الطبيعة فى هذا الكون بسحرهم وتعاويذهم وتعزيمهم وما إلى ذلك ، كل هؤلاء وأمثالهم لما فقدوا السلطة الظاهرة والقوة الدنيوية ، لجئوا بمكرهم وحيلهم إلى ادعاء سلطة خفية يستمدون منها سلطانهم ، و يبسطونها على السذج والبله ، وكان من سوء الحظ وضعف العقل أن قبلت دعوتهم ، وتألهوا هم الآخرون ، وعبدهم أتباعهم ، فكان فى الدنيا مملكتان : مملكة السلطنة المادية ، ومملكة السلطنة الغيبية ، والناس موزعون فى العبادة بين هؤلاء وهؤلاء ، وكل هذا حرب على الإسلام فى جوهر تعاليمه وهو الذى ينادى دائماً ، و يجعل شعاره دائماً ، أن لا إله إلا الله ، وأن كل تأله باطل ، وأن كل عبادة لغير الله باطلة ، ولكن كم من المسلمين فى العصور المختلفة استطاعوا أن يحتفظوا بهذه الوحدانية خالصة لم يشبها شىء من عبادة وتأله .

ومن الأسف أنه فى كثير من عصور تاريخ المسلمين ، تعاونت القوتان ، الظاهرة والباطنة ، والمادية والغيبية ، على إفساد حال المسلمين ، فتحالف الملوك الظلمة والسلاطين الغاشمة مع الدجالين من رجال الدين ، والدجالين من المتصوفين ، وأعملوا قوتهم فى إفساد عقيدة الوحدانية ، وفى تعديد الآلهة وعبادتها ، واتخذوا لذلك وسائل لا تحصى ، فالسلاطين الغاشمة تحيط مظاهرها بكل أنواع الجبروت والطغيان ، ورجال الدين تضع لهم من الأحاديث مثل «السلطان ظل الله فى أرضه»

والخطباء والوعاظ يصرفون الناس عن المطالبة بحقوقهم بإفهامهم أن الفقر من الله والغنى من الله ، وليس للجد ولا للعمل أى دخل فى الغنى والفقر ، وأن ظلم الظالمين إنما هو انتقام من الله لسوء سيرة المسلمين ، ونحو ذلك من تعاليم تفسد الروح ، وتذل النفس ، وتمكن المتألهين من التأله ، وتوجه الأذلة إلى عبادة المتأله ، ولم يكن هذا من جوهر الإسلام فى قليل ، ولا كثير .

ولو نحن نظرنا نظرة شاملة ، لرأينا أن أكثر شرور العالم فى الشرق والغرب ، وفساد حال الأمم يرجع إلى هذا التأله من جانب ، والعبادة والضعف من جانب آخر . فالعلاقات بين الأمم والحروب المتتابعة إنما يبعثها فى الغالب حب الاستعلاء أو بعبارة أخرى التأله ومحاولة الدولة القوية أن تسيطر على العالم لتكون إلهته ، وليكون غيرها عباداً أذلة ، وكان كل هذا يزول لو اعتنق الجميع أن لا إله إلا الله .

و بعد فهذا أصل من أصول الإسلام ، رأينا كيف انحرف المسلمون عنه ، فساء حالهم ، وانحط شأنهم . ولعلنا نتبع ذلك ببيان بعض الأصول الإسلامية الأخرى ، ونبين كيف عطلت وأهملت ، والله الموفق ؟

موقف المسلمين

إزاء المدنية الحديثة

تسربت المدنية الحديثة إلى المسلمين فى جميع الأقطار على حسب استعدادها ، سواء فى ذلك ماديتها ومعنويتها ، من تلغرافات و إذاعات ودساتير ونحو ذلك . وكان ذلك فى أول الأمر لا عن وعى وتفكير ، لأن المدنية الحديثة غزت المسلمين وهم يغطون فى نومهم ، ولما يفيقوا من سباتهم العميق . فلما فتحوا عيونهم على طلقات المدافع رأوا المدنية قد غزتهم ودخلت فى ديارهم وحكوماتهم وكل شىء عندهم . و بدأ المفكرون يفكرون فيما يجب أن يكون موقفهم بإزائها . هل يسمحون أن تدخل بحذافيرها ، أو يمنعونها بتاتاً ، أو ماذا يعملون ؟ لقد انقسم المصلحون فى تلك المشكلة أقساما ثلاثة .

فمثلا رأى مصطفى كمال أن ينقل إلى أهله فى البلاد العثمانية كل المدنية ، مادية ومعنوية ، من تنظيم البيوت ، وخلق برلمان يسير على دستور ، وتقنين مدنى ، وتقنين للعقوبات وللزواج والطلاق والمواريث ، ونظم اجتماعية واقتصادية ، حتى لبس القبعة والكتابة بالحروف اللاتينية .

***

ورأى غاندى عكس ذلك ، فقاوم المدنية الحديثة بجميع ما فيها ، ودعا قومه الهنود إلى الغزل باليد حتى لا يتصلوا بمصانع لانكشير فى انجلترا ، وحتى لا تتسرب إليهم الخمور والملاهى التى تسود المدنية الحديثة . وظل متمسكا بدينه يدعو إليه ، ولكن تيار المدنية الحديثة جرفه ، فتقبل أهله المدنية الحديثة فى كثير من شؤونهم ،

وهو نفسه لم يسلم من ذلك ، فقد كان يتكلم اللغة الإنجليزية ، ويضع على عينيه منظاراً من اختراع المدنية الحديثة ، وهكذا .

* * *

ويرى مصلحون آخرون أنه تجب عملية الاختيار ، اختيار الصالح من المدنية الحديثة واجتناب الضار ، واختيار الصالح من المدنية القديمة ، فليس كل الجديد نافعاً ، ولا كل القديم ضاراً ، ففي القديم ما يفوق الجديد بمراحل ، فماذا علينا لو اخترنا من القديم التسامح والتأمل الروحى والسماحة ، واخترنا من الجديد بناء الحياة على العلم وحرية الفكر ونحو ذلك ؟ إننا نصل إذا سرنا على هذا إلى مدنية خير من المدنية القديمة والحديثة ، فيها خير القديم والحديث ، وليس فيها شرهما .

* * *

نعم ، إن كثيرين حاولوا هذا الاختيار فلم ينجحوا ، كما فعل المسلمون فى بعض شؤونهم ، فى الزراعة والتعليم والقضاء ، فطوراً يعلمون فى مدارسهم على النمط الأوروبى ، وطوراً على نمط القرون الوسطى ، وطوراً يزرعون بأحدث الأدوات وطوراً بالساقية والشادوف والإتكال على القدر . وعندهم محاكم شرعية ومحاكم وطنية . وبعضهم يلبس الملابس الأوروبية ، وبعضهم يلبس الملابس البلدية . وبعضهم يربى الأطفال على أحدث الأنظمة ، وبعضهم يربيهم على الخرافات والأوهام وهكذا . فكان من ذلك كله مجموعة متنافرة تؤدى إلى نتائج متعاكسة . فإن أريد الإصلاح الحقيقى وجب أن يكون ذلك فى يد مصلحين ماهرين ، يعرفون أى العناصر ينسجم ، وأيها يتنافر .

* * *

وهناك أمور أخرى يجب أن تراعى ، وهى أن تكون عين المصلح على ما يأخذ من المدنية القديمة والحديثة ، وعينه الأخرى على ظروف بلاده ، وبيئتها

الطبيعية والاجتماعية ، فقد يكون شيء يناسب أمة ولا يناسب الأخرى ، وشيء يناسب الغرب ولا يناسب الشرق ، فيكون الفشل ، كالذى شاهدت أن صديقاً سافر إلى انجلترا ليدرس كيفية عمل الملابس الجديدة من الصوف القديم ، فرأى أنهم فى انجلترا يجمعون الملابس الصوفية القديمة ويدخلونها فى آلات ويضيفون إليها بعض المواد الكيمياوية فتخرج ناصعة بيضاء ، ثم يلونونها كما يشاءون ، ويبيعونها جديدة رخيصة . ودرس صاحبنا كل ذلك ، ولما عاد إلى مصر تزود بالآلات ، وأتى بصناع مهرة ، وعملوا كما يعمل الأوربيون . ولكنه فشل لأنه نسى شيئين هامين : الأول أن ملابس الإنجليز الصوفية كثيرة لبرودة جوهم ، وهى قليلة فى مصر لحرارة جوهم ، والسبب الثانى أن الإنجليز يخلعون ملابسهم الصوفية وفيها بعض الرمق ، وأهل مصر لا يخلعون ملابسهم إلا إذا تهلهلت . فكان الفشل لاختلاف عادة الأقاليم . ولو أنه درس المسألة من جميع نواحيها ما أقدم على ما أقدم عليه . وهكذا شأن المصلحين ، قد تغيب عنهم الأشياء الدقيقة فى اختلاف الزمان والمكان ، فيقعون فى مثل هذا الخطأ . ولو أحسن الاختيار ، وعرفت العناصر الصالحة تمام المعرفة ، ودرست علاقاتها بعضها ببعض ، فلم يسمح بانضمام عنصر إلا ما كان ملتئما مع العناصر الأخرى ، وروعى النظام الدقيق فى تطبيق الإصلاح على الأمم ، لم أر وجهاً للفشل .

أسباب انحطاط الثقافة

عند المسلمين فى القرون الوسطى

يرجع انحطاط المسلمين فى القرون الوسطى إلى عدة أسباب :

السبب الأول انهيار المعتزلة ، وغلبة المحدثين عليهم ، فقد كان المعتزلة يحملون راية العقل ، فهم يفسرون آيات القرآن بما يتفق والعقل ، بل يفسرون آية « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » بأن معنى الرسول هو العقل ، ولا يقبلون من الحديث إلا ما اتفق والعقل . فليس يكفى فى صحة الحديث صدق الرواة ، بل يجب أن نتحقق من أن المتن أيضاً مقبول عند العقل . فإذا سمعوا حديث البخارى « من أكل سبع بلحات عجوة ، لم يمسسه سم » ، ورأوا أن من أكل سبعين بلحة لا يصيبه السم ، استنتجوا من ذلك أن الحديث كاذب ، لأنه ضد العقل ، وضد الواقع ، وإذا سمعوا حديثاً يقول : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » عرضوه على الواقع ، فإذا رأوا أن حكم فكتوريا فى انجلترا هو العهد الذهبى لها ، لم يقبلوا هذا الحديث ، لأنه يخالف الواقع . ولكنهم مع الأسف مزجوا العلم بالسياسة ، وأدخلوا المذهب فى الدولة ، وأسرفوا فى حمل الخلفاء على معاقبة مخالفيهم ، فكرههم الرأى العام وأسقطهم ، فلما رأى المعتصم ذلك تقرب إلى الرأى العام بطردهم وتقريب المحدثين ، فكان هذا نقمة على الثقافة الإسلامية ، لأن منهج المحدثين تحكيم الرواية والاعتماد عليها لا تحكيم العقل .

وطبيعة منهج المحدثين تنافى الابتكار . وأحسن الناس فى نظرهم أكثرهم رواية ، وأكثرهم تحرياً للسند ، لا أكثرهم استقلالا . لذلك نرى من ينبغ بعد

ذلك هم الذين ينتسبون إلى المعتزلة أيضاً ، كالزمخشرى ، وابن جنى ، وأبى على الفارسى ، وقليل من غيرهم كابن خلدون .

ومن أسباب انحطاط الثقافة عند المسلمين أيضاً : سقوط بغداد عند غزو التتار لها ، فكانت هذه حادثة روعت المسلمين ، وأفزعتهم ، وخلعت قلوبهم ، لكثرة ما سفك من دماء ، وكذلك أثرت على ثقافتهم لقتلهم كثيراً من العلماء و إتلافهم كثيراً من الكتب القيمة . يضاف إلى ذلك أنه ترتب عليها إقفال باب الاجتهاد فى الفقه وغيره ، ذلك أن العلماء لما رأوا انحطاط العلم يئسوا من أنهم يبتكرون مثل ما ابتكر من قبلهم من الفقهاء ، وتمنوا أن يصلوا فقط إلى درجتهم من الاجتهاد المقيد ، فأغلقوا باب الاجتهاد ، وقصروا كل جهدهم على التقليد . فإن توسعوا قليلا ، فالاجتهاد اجتهاد مذهب ، لا اجتهاد مطلق . وهكذا كان الشأن فى اللغة والتاريخ وغيرها من العلوم .

فلما تجمعت هذه الأسباب وغيرها ، وكان للمسلمين بحكم الطبيعة نشاط عقلى ، لابد أن يتجه اتجاها ما ، لم يتجهوا إلى الابتكار ، ولكن اتجهوا إلى تأليف الموسوعات ، كصبح الأعشى ، ونهاية الأرب ، والمسالك والممالك . لا تكاد تجد فيها جديداً ، ولكنها جمع لما تفرق فى الكتب فى الموضوع الواحد . وهو على كل حال نشاط ، ولكنه ليس من الصنف الأول .

فإن نحن تساءلنا : كيف ننهض بعد هذا الخمول ؟ قلنا . إننا إذا عرفنا الداء ، سهلت معرفة الدواء ، بإزالة الداء . فلابد من غلبة طائفة من المسلمين يقولون بسلطان العقل كما يقول المعتزلة ، وتكون لهم الكلمة العليا والسيطرة . وتكون بجانبهم طائفة مجتهدة اجتهاداً مطلقاً يقدرون على أن ينظروا فى حال المسلمين اليوم ، ويعرفوا ما يناسبهم وما لا يناسبهم . لقد وجد مجتهدون فعلا بين المسلمين ، ولكن مع الأسف ، بدل أن يقلدوا أسلافهم قلدوا الغربيين ، ووضعوا فى نفوسهم

سؤالا دائم التردد على أفـكارهم ، وهو : ماذا فعل الغربيون فى هـذه المسألة ؟ وللاجتهاد الحـكيم أن يتساءل : ماذا يجب أن يحكم به العقل و يشرع فى هـذه المسألة ؟ إن لـكل زمن رجالا ، لهم علم واسع ، بالشرق والغرب ، وما يناسب الشرقيين وما لا يناسبهم ، فيستطيعون أن يحكموا : أين الصالح العام للمسلمين وللأمة التى يتبعونها ، وإلا كانوا كالغراب الذى نسى مشيته وقلد مشية غيره ، فلا هو أحسن هذا ولا هو أحسن ذاك .

التقليد والابتكار

أما التقليد فالجرى على سنن السابقين من غير تحوير ولا تبديل . وخير تعبير عنه قوله تعالى : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم لمقتدون » . وأما الابتكار فهو إبداع الشيء لا على مثال سبق . هذا هو المعنى المفهوم من التقليد والابتكار . والذى نلاحظه أن المسلمين فى أول أمرهم كانوا مبتكرين . ولولا هذا الابتكار ما استطاعوا أن يفتحوا هذه الفتوح الكبيرة وينظموها ، ويديروا شؤونها ، مع العلم بأن كثيراً منهم ومن عظمائهم كانوا نتاج الجزيرة العربية البدوية ، فكانوا يقابلون مدينتى الفرس والروم ، ويواجهونهما بأحسن ما يكون من المهارة واللباقة والذكاء . هذا عمر بن الخطاب مثلا يعرض فى حكومته لأدق المسائل السياسية والاقتصادية والإدارية التى تواجهه عند فتح مصر والشام وفارس والعراق ، فيصرفها كلها تصريفا صحيحا دقيقا ، مع أنه نشأ نشأة بدوية صرفة . إنما وسع عقله الإسلام ، وجعله صالحا لأن يسوس الناس ، حتى المتمدنين . وهؤلاء الفاتحون أمثال : خالد بن الوليد ، والمثنى بن حارثة ، وأبى عبيدة ، وقتيبة بن مسلم ، وموسى بن نصير ، كلهم واجهوا مشاكل كبيرة فى كيفية القتال ، وفى أدوات الحروب ، وفى تنظيم البلاد المختلفة بعد فتحها ، فلو لم يكن لهم قوة ابتكار تسهل لهم حل المشاكل التى يواجهونها ما نجحوا . وقد واجهوا مشاكل كثيرة بحكم ضيق أنظمة البداوة وبساطتها وسعة أنظمة الحضارة وتعقدها .

وفى العلم كانوا يبتكرون . ومن أجل هذا اخترع الأئمة المشرعون القياس والاستحسان والمصالح المرسلة إلى غير ذلك . فواجهوا كل الجزئيات الحادثة بأحكام إسلامية تليق لها . وكان طابع المعتزلة الابتكار ، ففلسفوا الحجج الدينية واعتمدوا على الشك والتجارب . فنرى الجاحظ مثلا لا يؤمن بكل ما قاله أرسطو

فى الحيوان والنبات ، بل يجرب ذلك فى بيته الخاص ، وحديقته الخاصة ، فإذا قيل له : إن الثعابين تهرب من رائحة الشيح جرب ذلك بنفسه . فوجد أن بعض الأقوال فى هـذا غير صحيحة ، و إذا قيل له عادة من عادات النبات أو الحيوان لم يعتمد على أقوال أرسطو فى ذلك ، بل لم يؤمن بها حتى يجربها . وقد يتعارض عنده قولان : قول لأرسطو وقول لعربى جاهلى بدوى ، فيفضل قول ذلك العربى ، لأن التجربة أثبتت صدقه دون قول أرسطو . وكان النظام يمتحن الحديث المروى ، و يعرضه على العقل ، فما وافق منه العقل قبله ، و إلا فلا . وكان المعتزلة على العموم لا يؤمنون كما يؤمن العامة برؤية الجن ، وما حيك حولها من خرافات ، بل يستندون إلى قوله تعالى : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » فينكرون رؤيتهم ، و يضحكون من العامة لخوفهم منهم ، إلى نحو ذلك .

وعلى العموم فطابع العصور الإسلامية الأولى طابع ابتكار ونشاط عقلى ، ومما يدل على ذلك اختراعهم للعلوم المختلفة لا على مثال سبق ، فاخترعوا النحو والصرف والعروض ، وعمل المعاجم ، والنقد الأدبى ، والبلاغة بأقسامها الخ ، ولـكن مما يؤسف له أن طابع العصور الوسطى والمتأخرة طابع تقليد لا ابتكار . ومن مظاهر ذلك أن العلوم كلها وقفت عند نتاج هؤلاء المبتكرين الأولين . ولم تتقدم إلى الأمام خطوة ، وكان التأليف عبارة عن جمع متفرق ، أو تفريق مجتمع .

وليس أدل على ذلك من كتب الموسوعات ، كصبح الأعشى ، ونهاية الأرب ، والمسالك والممالك ، ونحوها ، فـكلها جمع لمـا تفرق فى الـكتب . وحسبنا دليلا على ذلك أن العلوم التى بين أيدينا ليست إلا صدى لمـا ابتكره الأولون ، فالنحو جار على ما كتبه سيبويه ، إلا ما اعتراه من التبسيط . والبلاغة جارية على ما كتبه عبد القاهر ، إلا قليلا من الزيادة ، أو الجمع . والعروض هى عروض الخليل بن أحمد . وعلى هذا القياس .

و إذا فتشنا فى التاريخ فقلما نجد مبتكرا ، مثل ابن خلدون فى تأسيسه علم

الاجتماع ، وأبحاثه الجديدة المبتكرة ، ومثل ابن مضاء الأندلسى ، الذى أراد أن ينشىء نحوا جديداً . على غير فكرة سيبويه فى بنائه على العامل الظاهر أو المقدر . وقليل جداً أمثال هؤلاء . أما الباقون فكلهم مقلدون لا ابتكار عندهم . وحتى النشأة الحديثة من الشرقيين ، فهى أيضاً مقلدة ، غاية ما فى الأمر أنها لم تشأ أن تقلد أسلافنا من المتقدمين ، بل قلدت الأوربيين فى أفكارهم وبحوثهم . ولكن مع الأسف الكل تقليد ، وإن اختلف المقلد . والمنطق الذى يجرى بين المثقفين اليوم فى الأمم الشرقية مرتكز على السؤال الآتى : إذا عرض موضوع من الموضوعات عليهم تساءلوا : « ماذا فعلت الأمم الأوربية فيه ؟ » .

وأمامنا مجال الابتكار كبير ، فعندنا وجوه الاصلاح المختلفة فى كل النواحى تحتاج إلى ابتكار ، وعقل فعال . وليس يغنى فيها التقليد للأوربيين . فموقفنا غير موقفهم ، وظروفنا غير ظروفهم . كما لا يغنى فيها التقليد للأقدمين ، لأن الزمن تغير ، والبيئة تغيرت .

والباحث يعجب من وقوع الشرقيين فى هذه المصيبة الكبرى ، والتجائهم إلى التقليد فى كل شىء ، مع أن كتابهم الكريم ينعى على المقلدين الذين قالوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم لمقتدون » ، ويشجع على أعمال العقل ويمدح العقلاء المفكرين الذين يستعملون عقولهم فى أحكامهم على الأشياء . والقرآن والأحاديث مملوءة بهذا النحو . فما الذى أصابهم ؟ الذى يظهر أن تتابع الظلم عليهم ، وما أصابهم من غزوات التتار ، وما أتعبهم من الحروب الصليبية ، ونحو ذلك ، كله فت فى عضدهم ، وكسر من نفوسهم . فالابتكار يحتاج إلى سرور بالحياة ، وتفتح لها . وأما من لم يسر بالحياة ، ولا يستمتع بها ، وينتظر الموت إن عاجلا وإن آجلا ، فلا تتفتح نفسه لابتكار ولا تفكير فيه . يضاف إلى ذلك أن غلبة منهج الحديث مع الأسف على منهج الاعتزال يحمل على اتباع الرواية أكثر مما يحمل على الدراية . ومن أجل هذا نشأت عبادة عبارات الكتب ،

لأن الذى لا يخطو خطوة إلا بحديث مروى يسلمه ذلك إلى الاتباع لا الابتداع . وشاع بينهم ذم البدعة والابتداع ، والقديم على قدمه ، ونحو ذلك من الأقوال التى تكسر النفس وتصدها عن الإبداع والابتكار .

وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن ينفضوا عنهم غبار الماضى ، فيخلعوا التقليد ، ويقدسوا الابتكار ، ويعملوا عقلهم فى كل شىء ، ماديا كان أو معنويا ، ويأنفوا أن يقلدوا أسلافهم ، أو يقلدوا الأمم الحية الأخرى . فكل تقليد معيب . وحتى التقليد للأوربيين لا يخلو من خطأ ، لأن معيشتهم غير معيشتنا ، وقد يكون الشىء عندهم نافعا فإذا نقل إلينا كان ضاراً ، والعكس . وحبذا لو نادى الزعماء طويلا بالحث على الابتكار ، والدعوة إليه ، والتنبيه على أضرار التقليد ، ووضعوا فى برامجهم التعليمية تعويد الناشئين أن يتساءلوا دائما عندما يروى لهم خبر أو سير على طريقة خاصة : « لم هذا ؟ وما برهانه ؟ وما الفائدة منه ؟ ولعل هذا هو المعقول أو عكسه » . إنهم إن عودوهم ذلك وهم ناشئون شبوا وعقلهم ناضج ؛ فأحبوا الابتكار ، وسعوا إليه ، وعملوا به . كما يجب على الزعماء أن ينقوا الأقوال القديمة والشعر القديم والأدب القديم من كل ما يحث على الاتباع والتقليد ، وينفر من الابتكار والتجديد ، فيحذفوها من تراثهم ، ولا يستبقوا من التراث إلا ما كان صالحا لبرنامجهم الجديد ، والله يوفقهم .

مادية الغـــرب

وروحانية الشرق

إعتاد الـكاتبون أن يصفوا الشرق بالروحانية والغرب بالمادية ، حتى قال فيدلبند فى كتابه تاريخ الفلسفة : إنه قد التقى فى الإسكندرية أيام أينعت فلسفتها مادية الغرب بروحانية الشرق ، وجرى على أثره كثيرون . وقد طعن فى هذا المعنى بعض الـكتاب فى العهد الحديث إذا قالوا : إن الغرب يفوق الشرق أيضاً فى المعنويات ، كما يفوق فى الماديات ، فتجد أن عواطفه أرق ، وأن عنايته بالمستشفيات والملاجىء وتنظيم الإحسان أرقى .

فإن أريد بالروحانيات الخرافات والأوهام كتحضير الجن والجن والسحر والعزائم ، فذلك صحيح فى الشرق ، وهو أكثر منه فى الغرب ، أما أن أريد بالروحانية رقى العواطف وأعمال البر والإحسان ، على أساس معقول ، فذلك فى الغرب خير منـه فى الشرق . وبناء على ذلك يكون الغرب أرقى فى الماديات والروحانيات جميعاً ، ولـكن يظهر أن للمسألة وجهاً آخر غير الذى قصد إليه الأديب الحديث : وهو أن الناحية الروحانية غير الناحية العقلية وغير الناحية العاطفية . ويتجلى ذلك فى الشرق فى أمور :

الأول : أن الشرق منبع الديانات الـكبرى فاليهودية والنصرانية والإسلام ، وهى الثلاثة الأديان الـكبرى فى العالم ، بل ومذهب بوذا وكنفوشيوس ، كلها نبعت فى الشرق ، وانتقلت منه إلى الغرب . وقد كانت ولا تزال فى الشرق أعظم منها فى الغرب ، ولا شك أن هذه الأديان كلها تبعث فى النفس الروحانية ، على نحو غير الناحية العقلية والعاطفية .

الثانى : أنه من أثر انتشار الأديان والتعمق فيها ، قيست أمور الحياة بمقياس غير مادى ، فالعمل فى الغرب يقاس بنفعه أو ضرره فقط . أما فى الشرق فإنه يقاس بمقياس حليته وحرمته ، أى أنه يرضى الله عنه أو لا يرضى .

وقد بلغ من الغرب عند مقياسه بالنفع والضرر أن نشأ مذهب كبير يرى قياس الأمور خيرها وشرها بمقياس اللذة والألم ، فإذا رجحت كفة اللذائذ لأكبر عدد ممكن ، فالعمل فضيلة ، و إلا فرذيلة . ومن أجل هذا رتبت الفضائل فى الشرق ترتيباً غيره فى الغرب . فالمروءة والسماحة والنبل والطاعة من أكبر الخصال الحميدة فى الشرق ، بينما حفظ الوقت والاقتصاد والصدق فى المعاملة من أكبر الفضائل فى الغرب .

الثالث : أن الناس فى الشرق — عادة من أثر الأديان أيضاً — يمزجون فى أعمالهم وغاياتهم من أعمالهم الحياة الأخرى بجانب الحياة الدنيا ، فهم إذا قدروا عملا راعوا ذلك كل المراعاة ، فحسبوا حساب ما ينالهم من الجزاء الأخروى بجانب الجزاء الدنيوى . وأضافوا إلى أعمارهم الآخرة على الدنيا . ولا شك أن هذا نوع من الروحانية . أما فى الغرب فيكادون يقصرون حسابهم على الدنيا وحدها .

الرابع : أن الشرقيين يبنون حياتهم على أن هناك عالما آخر هو المسمى بعالم الغيب ، فيه الجنة والنار ، وفيه الملائكة والجن ، وفيه المعجزات الخ ، وكلها أمور روحانية لا مادية ، إذا استفتى فيها العلم المادى يقف أمامها حائراً .

نعم . . . إننا لا ننكر أن بين الغربيين من يبنى حسابه على جنة أو نار ، وعلى دنيا وآخرة ، ولكنهم ليسوا كالشرقيين فى ذلك . وحتى هذا القدر كان نتيجة للاعتقادات الدينية التى انتقلت من الشرق للغرب .

الخامس : إن من مظاهر الحياة الروحانية فى الشرق الاعتقاد بالقضاء والقدر والحظ ، وكرامات الأولياء ، ونحو ذلك مما ليس له نظير فى الغرب . هذا ما أظن

أن القائلين بروحانية الشرق ومادية الغرب يقصدونه . يضاف إلى ذلك ما يظهر فى أعمال الغربيين عادة من إمعان فى المادية . فالعمل يعمل بعد حساب ما ينتجه من الفوائد ، وما ينفق عليه قبل الإنتاج ، فإن رجحت كفه الفوائد بعد النفقات أقدموا على العمل ، وإلا لا . يظهر ذلك فى أعمال الشركات ودور الصناعات والنقابات وغير ذلك . وبعبارة أخرى : إن حسابهم غايته الأخيرة هى مقدار الربح المادى ، ولا نظر فى ذلك إلى خير الإنسانية أو ضررها . فالدور الكبيرة لإنتاج الآلات الحربية من مدافع وطيارات وغواصات ونحو ذلك ، تقوم على أساس مقدار ما تنتجه من الربح ، ولو أهلكت الملايين من الناس . والنظر الروحانى فى هذه الأعمال يختلف كل الاختلاف عن النظر المادى ، فهو لا يبيح مصانع آلات القتال ، لأنها تبيد الإنسانية ، وإن أربحت مالا وفيراً .

وكثيراً ما نعى المصلحون على أوروبا إفراطها فى المادية ، وعبروا عن ذلك بقولهم : إن الغرب قد اختل توازنه ، فنما عقله ، ونمت صناعته ، ونما علمه ، ونمت عنده كل مرافق الحياة ، ولكنه لم ينم قلبه . وهذا التعبير يساوى ما نقوله من نقص الغرب فى الحياة الروحانية .

نعم . . إن الروحانية فى الشرق بولغ فيها كما بولغ فى مادية الغرب ، فاعتراها كثير من الخرافات والأوهام من تدجيل وتخريف واعتقاد شديد فى الأرواح ، وغير ذلك من مظاهر الأوهام . ويظهر ذلك أكثر ما يظهر فى الناحية التى تشيع فيها الروحانية فى التصوف . فكم منى التصوف بالدجالين ، لأن التصوف مبنى على الذوق ، لا على العلم والعقل ، كالفلسفة . وإذا بنى على الذوق أمكن فيه الإدعاءات الكاذبة والأقوال الفاسدة .

ومن النتائج السيئة لهذه الروحانية المفرطة الكسل والقعود عن العمل ، والضعف وعدم الأخذ بأسباب القوة مما جعل حياتهم فى عزلة ، يعيش أكثرهم

عالة على الناس . والحق أن هناك روحانية صادقة تدعو إلى العمل لا إلى الكسل ، وتؤمن بالقدر ، بقدر .

فإن نحن نقدنا المادية فى جفافها ، وقصرها حسابها على الظاهر دون الباطن ، وعلى الربح دون خير الإنسانية ، فإننا ننقد الروحانية فى أنها سمحت للأفكار الضالة أن تتسمى باسمها ، وتعيش بجانبها . وإذا نحن تمنينا شيئاً فى هذا الموضوع ، فإننا نتمنى أن تطعم روحانية للشرق بالمادية العاقلة التى تدعو إلى القوة واستخدام العلم فى مرافق الحياة ، كما نتمنى أن تطعم مادية الغرب بشىء من الروحانية الصادقة ، لا دجل فيها ولا خرافات ولا أوهام .

إنه إذا حصل ما نتمنى ، أضفنا إلى ررحانية الشرق يداً عاملة ، وقوة حاسمة ، وأضفنا إلى مادية الغرب قلبا نابضاً ، وشعوراً فياضاً . ولكن أنى لنا ذلك ، والمطلب عسير ، والطريق شاق ، وكان حكيما من الإسلام أن يطلب فى كل صلاة الدعوة بالهداية إلى صراط مستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

تنظيم الإحسان

استعملت كلمة الإحسان فى معان كثيرة ، فاستعملت بمعنى الإتقان مثل قوله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : إذا قتلتم فأحسنوا القتلة » .

وتستعمل بمعنى الفضل والزيادة عن أداء الواجب ، فأداء الواجب عدل والزيادة عنه إحسان . وعلى هذا المعنى قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .

وتستعمل بمعنى التصدق على الفقير والمسكين .

والإحسان قديم وواجب ما دام فى المجتمع غنى وفقير ومحتاج وغير محتاج . وربما كان الباعث عليه أول الأمر سد رب الأسرة حاجة أفرادها من أطفال وعاجزين عن الكسب ، والإشفاق على ذوى القربى وصلتهم . ثم اتسعت حتى شملت المجتمع بأسره ، ثم اتسعت حتى شملت الإنسانية كلها ، وحتى شملت الحيوان والنبات . وقد تبنى الإحسان الدين ، وجعله إحدى وسائله وربطه بالجزاء الأخروى والثواب بعد الموت .

وفى العصور الحديثة ربط بالمجتمع واتخذ أشكالا مختلفة مثل رفع الضرائب عن الفقراء ومصادرة الأغنياء فيما زاد عن حاجتهم وإعطائه للفقراء وفتح المدارس لأولاد الفقراء وفتح الملاجىء للعجزة والمستشفيات للمرضى وغير ذلك .

وقد كان ينظر إليه على أنه إعطاء مال من فرد لفرد أو جماعة يداً بيد . وكان عيب هذه الطريقة أن المال قد يعطى لغير مستحقه ، ولمن يدعى الفقر وليس فقيراً ، ولمن يتظاهر بالمرض وليس مريضاً . ثم فى العصور الحديثة نظم الإحسان حتى حرمت بعض الأمم الإحسان الفردى ، وأعطى الإحسان للجمعيات الخيرية والهيئات

التى تعنى بذلك ، فهى التى تعنى بدرس الأفراد وحالاتهم المختلفة ، وتتلقى الإحسان من المحسنين ، وتتصرف كما ترى .

وأعرف أن بعض الممالك الأوروبية قسم البلاد إلى أجزاء ، وخصوصاً المدن الواسعة ، وتبرع أفراد ، وخصوصاً من السيدات ، للقيام بهذ العمل ، أعنى التبرع بدراسة أحوال الفقير . فكل جماعة تخصصت لحى من الأحياء ، وتدخل السيدة منهن بيت الفقير فى هـذا الشارع فتدرس حالته وأسباب فقره وتقترح العلاج اللازم ، فقد يكون السبب تعطل رب الأسرة ، وقد يكون السبب إدمانه على نوع من المخدرات ، وقد يكون السبب التبذير وعدم الحكمة فى الإنفاق ، إلى غير ذلك من أسباب . و بعد الدرس تقترح نوع العلاج المناسب ، من إمداد الأسرة بمال أو معالجة المدمن على نوع من المخدرات ، أو النصيحة بالاقتصاد فى الإنفاق ، أو نحو ذلك . ثم تراقب الحالة وما ترتب على العلاج من نتائج ، ونظروا أيضاً فى حالة أولاد الفقراء ، حتى لا يؤول أمرهم من الفقر إلى ما آل إليه أمر آبائهم ، فعلموهم حسب استعدادهم ، ووجهوا اهتمامهم إلى نوع العلم الذى ينفعهم فى حياتهم ، فوضعوا نصب أعينهم أن العلم للحياة لا للترف العقلى .

على هذا النحو تكونت الجمعيات المختلفة لتنظيم الإحسان . وتبين أن هذا خير من الإحسان الفردى يداً بيد .

وتعددت أنواع الإحسان فى الأمم طبقاً لما يظهر من حاجات ، فبعض الأمم جعلت مقداراً معيناً من اللبن مثلا من حق كل محتاج وخصوصاً الفقراء وأطفالهم تدفع ثمنه الحكومة مما تحصله من الضرائب على الأغنياء .

و بعض الأمم جعلت علاج كل مريض من حقه على الحكومة ، والحكومة تعالج الفقير كالغنى مما تحصله من الضرائب ، ومن ذلك تعليم أولاد الفقراء مجاناً . وعلى العموم نظر إلى الإحسان نظرة اجتماعية خلاصتها تحمل الأغنياء المسائل الضرورية للفقراء .

والإسلام نظر إلى هذه المسألة نظرة جديدة بأشكال مختلفة ، فأولا فرض الصوم حتى يشعر الغنى بحاجة الفقير . وثانياً فرض الزكاة على كل من يملك نصابا حال عليه الحول ، وجعلها بمقدار ٥ ,٢ ٪ من رأس المال . وثالثاً دعا إلى عدم الاكتفاء بهذا الفرض بل الإكثار منه والزيادة عليه بحسب الاستطاعة ، فوجدت على أثر ذلك الأوقاف المختلفة الخيرية ، عدا الملاجىء والمدارس والمستشفيات وغير ذلك ، حتى أن بعض الوقفيات جعلت جزءاً منها يصرف فى إطعام الحيوانات ، وكلما سرت فى شوارع المدن مثلا ترى الأسبلة المختلفة لرى الحيوانات ، حتى قال بعضهم إن الزكاة والإحسان لو نفذا بإحكام ما وجد فقير محتاج ولا حيوان محتاج .

وقد عقدت الحياة المدنية الحديثة ، وجعلت أنواع الحاجات تختلف وتكثر ، ولا بد أن يقابلها الإحسان بأشكاله المختلفة المناسبة . وليس كل الإحسان أكلا وشربا ، فقد يكون الإحسان بالتعليم ، وقد يكون بنشر الكتب وترقية العقل ، وقد يكون بمنع التعطل ، وقد يكون بالتوجيه إلى نوع العمل ، وأقدر الناس على ذلك هى الجمعيات التى تدرس البيوت المختلفة فى الأحياء ، وتضع العلاج لكل حالة ، وليس يقدر الأفراد على ذلك .

وفى ضوء هذا إذا نظرنا إلى ما يصرف من أموال الإحسان فى العالم الإسلامى وجدناه كثيراً جداً ، ولكن ينقصه التنظيم ، فهناك أموال تصرف فى بعثرة على الفقراء أمام الأضرحة . وهناك الإحسانات الكثيرة على المقابر ، وهكذا وكلها محتاجة إلى التنظيم . فكل زمن تظهر فية أشياء كثيرة تحتاج إلى إحسان ، وهناك أوقاف كثيرة على مشاريع خيرية بعضها أتخمت بالوقوف عليها و بعضها فى حاجة إلى المعونة ، فيجب أن ينظر إليها كوحدة ، يؤخذ من الجهات الخيرية للجهات الفقيرة ، بل إن لولى الأمر أن يوحد أموال الأوقاف و يصرف منها على جهات لم ينص عليها متى ظهرت فائدتها ، فلكل زمن حكمه ولكل زمن حوائجه .

تغير النظر إلى الإحسان من جهتين : الأولى أنه كان ينظر إليه على أنه تفضل

من الغنى على الفقير يفعل إن شاء و يترك إن شاء ، فجاءت العصور الحديثة وجعلته واجباً محتوماً لا يفعله الغنى تفضلا بل يفعله أداء واجب . وكان جميلا تعبير القرآن عن ذلك بقوله : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

والثانية أنه كان ينظر إلى الإحسان على أنه علاقة بين فرد وفرد ، فجاءت العصور الحديثة فرأت أنه واجب اجتماعى . فوجود الفقراء فى مجتمع مظهر مرض له . والإحسان علاج اجتماعى . ولا يصح المجتمع إلا إذا عولج مرض الفقر فيه . وكما أن الفقر مرض اجتماعى فالإحسان كذلك علاج اجتماعى .

وقد يلحق بهاتين الجهتين مسألة ثالثة ، وهى أن الإحسان لا يصح أن يقتصر على المال ، فقد يكون الإحسان بتوجيه الفقير حتى يكسب ، و بتعليم الجاهل حتى يقدر ، و بمعالجة المريض حتى يصح ، بل قد يكون سلبياً لا إيجابياً ، بمنع المخدرات عن الفقير، ومحاربة الأمراض قبل تفشيها . بل رأى المفكرون فى العصور الحديثة أن الإحسان قد يكون جريمة إذا كان إلى شخص كبير أو صغير يحمله الإحسان إليه على أن يتخذ السؤال حرفة ، أو يأخذ الصدقة فيتكيف بها . ومن أجل هذا كله أصبح الإحسان لا ينظر إليه بالسهولة التى كان ينظر إليه بها ، فيجب أن يوضع فى محله بعناية و بدقة حتى لا يسبب مرضاً أعظم .

لا يكفى أن يتلذذ المحسن من إحسانه بل لا بد من أن يقابل مرضاً اجتماعياً يعالجه .

والأدب العربى مملوء بالشعر الذى يمدح العطاء الفردى ، ولكن لا أذكر أنى رأيت شاعراً ينظر إلى الإحسان على أنه واجب اجتماعى ، فيجب أن يتحور النظر بتحور الزمن ، والله الموفق .

الثقافة الأدبية والثقافة العلمية

نعنى بالثقافة الأدبية المعنى الواسع الذى استعمل فيه كلمة كلية الآداب ، إذ تشمل الدراسة الأدبية من شعر ونثر والجغرافيا والتاريخ والفلسفة وآداب اللغات . كما نعنى بالثقافة العلمية المعنى الذى استعملت فيه كلمة كلية العلوم من طبيعة وكيمياء ورياضة وجيولوجيا ونحوها .

والحق أن لكل ثقافة من هاتين الثقافتين ميزات وأضرارا . فمن ميزات الثقافة الأدبية توسيع الذهن وتربية العواطف وفهم الحياة الاجتماعية على وجهها . ومن أضرارها عمومها وعدم دقتها وقبول من تثقف بها للجدل وقدرته عليه واستطاعته إقامة البرهان المنطقى على الشيء ونقيضه الخ .

ومزية الثقافة العلمية التحديد والدقة إذ كلها تقريبا مثل ١ + ١ = ٢ أو مضاعفات ذلك . هذا إلى أن عقلية أصحاب الثقافة العلمية عقلية لا تقبل الجدل ، فالمسألة أما صحيحة أو خاطئة ، وليس هنالك رأى وسط . ومن عيوبها خلوها من العواطف واقتصار صاحبها على دائرة معينة لا يسبح فى غيرها إلا إذا تثقف ثقافة أدبية ، ولذلك نرى رياضيين أو مهندسين بارعين وهم ماهرون فى فنهم ولكنهم إذا خرجوا عنه قيد شعرة كانوا أشبه بالعوام .

والثقافتان معاً لازمتان للأمة إذ لا يمكن أن تخلو أمة حية من ثقافة أدبية تغذى العواطف ، وثقافة علمية تغذى العقل . ولذلك حرصت كل الأمم تقريبا على أن يكون لها كلية آداب وكلية علوم . كلية آداب لتحيى الأدب والشعر وتدرس التاريخ اتعاظا بالماضى ، والجغرافيا للثقافة العامة ، وكلية علوم تضبط الذهن وتقوى العقل .

ولكننا مع الأسف نرى أن العالم الإسلامى من أوله عنى بالآداب أكثر

من عنايته بالعلوم . ومصداق ذلك أننا لو دخلنا مكتبة عربية وجدنا ما يساوى واحدا فى المائة علما والباقى أدبا . ولو حصرنا ما فى كتب التراجم مثل ابن خلكان وجدنا أن أكثره أدباء بالمعنى الواسع وأقله علماء . وبينما نجد مئات الأدباء من شعراء وكتاب نجد بينهم قليلا من أمثال ابن الهيثم وأبى الوفاء الجوزجانى .

والسبب فى هذا على ما يظهر أن الأدباء بطبيعة أدبهم وبطبيعة طول لسانهم كانوا أقرب إلى الملوك والأمراء يمدحونهم ويتزلفون إليهم ، بينما لا يستطيع العلماء أن يفعلوا شيئاً من ذلك ، إذ هم قاصرو اللسان لا يتكلمون إلا بقدر . والأدباء عادة أقدر على السمر اللطيف والحديث الممتع والنكت الطريفة على حين أن العلماء عادة متزمتون ثقيلو اللسان غير قادرين على النكات .

وكان مظهر غلبة الأدب على العلم إلى عهد قريب أن طلبة الآداب البكالوريا فى المدارس المصرية يفوقون بكثير طلبة العلوم عدداً ومجال الوظائف أمامهم أوسع . فإذا نحن عددنا الدراسة القانونية من الآداب — على توسع كثير فى ذلك — وجدنا أن معظم أعضاء البرلمان من المثقفين القانونيين وكذلك الأمر فى معظم الوزارات ، حتى لقد يكون من المضحك أن نرى وزير الأشغال أو وزير صحة أديبا ، بينما لا نجد مثلا وزير معارف أو وزير عدل عالما .

* * *

وإذا نحن نظرنا إلى المدنية الحديثة وجدناها مؤسسة على العلم أكثر من الأدب . فالصناعات والمخترعات الحديثة والطب وما يحتاج إليه من كيمياء وتشريح وغير ذلك كلها مبنية على العلم . نعم إن المدنية الحديثة لم تهمل الأدب ولكنها مع ذلك قومت العلوم تقويما كبيراً . فما أحوج الشرق وهو يحذو حذو المدنية الغربية ويبنى أساسه على أساسها أن يكثر من عنايته بالعلم ويقبل عليه إقبالا أكثر مما هو عليه الآن . فلدى الشرقيين على العموم موارد خامة غنية يجب أن تبحث وأن

تستثمر وتبنى حياتهم الاقتصادية عليها . ثم لا يصح أن يظلوا عالة على غيرهم ، بل لا بد أن ينهضوا نهضة الغرب فيبارونه ولا يقفوا مقلدين له .

ثم إنهم لثقافتهم الأدبية كثيرو الكلام ، كثيرو الجدل ، ولا يتناسب محصول فعلهم مع محصول كلامهم ، ومجالسهم مملوءة بالجدل والمناقشة ومشروعاتهم مملوءة بالبحث من غير نتيجة . وأظن : لو أنه زادت ثقافتهم العلمية أمنوا كل هذه الأخطاء .

بل نرى أن اتجاه الغربيين إلى العلوم وتوسعهم فيها جعلت أدبهم ملونا باون خاص ، وهو كونه ذا موضوع ، على حين أن الأدب الشرقى عبارة عن ألفاظ لا موضوع لها . فنرى مثلا فى المكتبة الغربية كتابا أدبيا فى الفلك ككتاب السكون الغامض للأستاذ « جونز » وكتابا أدبيا فى العلوم مثل كتاب « العلم من كرسى مريح » إلى كثير من مثل هذه .

ولو ثقف الأديب بعض الثقافة العلمية الواسعة لامتلأ الأدب بالتشبيهات بالمعانى الحديثة ، فكم فى الكهرباء والمغناطيسية من ذخيرة أدبية . ولو تثقف العالم بعض الثقافة الأدبية العامة لحسن تعبيره ووضح مقصده .

ونحمد الله أن نجد طلبة البكالوريا العلمية قد ازداد عددهم عما كان وطغى على البكالوريا الأدبية . ولكننا نحتاج إلى زمن حتى نجنى ثمار ذلك ، فلا يزال خريجو الكليات العلمية أقل مما تتطلبه المدارس ، وهم تتخطفهم الشركات بأعلى الأجور .

وإذا كثر العلماء بحق رأينا ذلك يتبعه لا محالة نهضة قوية فى الصناعات والاختراعات ، بل أظن أن ذلك يتبعه أيضاً رقى فى الأخلاق . فالمتأدب أقدر من العالم على تسامحه فى الأخلاق لأنه أقدر على التأويل . ومصيبة الناس عادة فى المتأولين كما قال البوصيرى فى إحدى قصائده :

وما أخشى على أموال مصر ... سوى من معشر يتأولونا

ونحن لو درسنا الشرق لرأينا فيه من الكفايات ما يكفى للعلم والأدب جميعاً ، فالجو الذى أخرج ابن الهيثم والجوزجانى و إسماعيل باشا الفلكى وشفيق بك يكن الرياضى يستطيع أن يخرج غيرهم من العلماء لولا أنهم يوجهون إلى الأدب فيخرجون متوسطين فى الأدب ، ولو وجهوا إلى العلم لكانوا نابغين . ومن الأدلة على ذلك أن الشرقيين الذين يرسلون إلى أوربا يجلسون مع الطلبة الأجانب فيجارونهم أو يسبقونهم وربما كان أهم عامل فى ضعفهم لاقلة عقلهم ، ولكن مركب النقص عندهم ، فعندهم حالة نفسية يشعرون معها أنهم أقل من أمثالهم من الغربيين ، وأنهم لا يحسنون إلا تقليدهم . ولو زال مركب النقص هذا لكانوا مثلهم فى الابتكار والاختراع .

* * *

إن مشكلة بلاد الشرق على العموم أنها إلى الآن لم تطبق الطرق المتبعة فى تقويم ملكات الناشئين ، فتوجه بعضهم إلى أدب ، و بعضهم إلى علم ، و بعضهم إلى صناعة أدبية ، ولو فعلت لزاد عدد النابغين ، وأخذ كل مكانه الصالح له . أما أن يوجهوا أو يتركوا وشأنهم ، تلعب بعقولهم الوظائف الخالية ، أو الطموح إلى درجة جامعية ، فضرر كبير ، نظيره كما إذا أعطيت أديبا كتاب فقه ، وفقيها كتاب أدب ، وشاعراً كتاب رياضة . ولو وزع كتاب الرياضة على الرياضى ، وكتاب الشعر على الشاعر ، وكتاب الفقه على الفقيه ، لكان ذلك أكثر فائدة ، وأطيب إنتاجا .

وكم فى كل أمة من كنوز مدفونة ، فى الفلاحين والعمال وعامة الشعب ، لا ينقصها إلا اكتشافها ، والله الحكيم لم يخل أمة من ملكات مختلفة ، تكفى لسد حاجاتها ، كما أنه لم يخل طائفة ممن يعدون نوابغ فى كل ناحية . ألا ترى حقل القمح أو الذرة أكثره وسط ، ولكنه على ذلك لم يعدم فروعا تعلو غيرها ، وتسمو فوقها . ولا يكون اكتشاف ذلك إلا بتوفيق من الله .

أنا . . ونحن

« أنا » ، كما هو واضح ، تدل على الفردية ، و « نحن » تدل على الاشتراك . وقد اشتقوا من « أنا » الأنانية بمعنى حب الذات والاستئثار بمصالحها الشخصية . ولا أدرى لماذا لم ينسبوا إلى « نحن » ، فيقولوا : « النحنية » للدلالة على الشخص وغيره ، أو للدلالة على شعور الشخص نحو مجتمعه .

و بعد هذه المقدمة القصيرة نقول : إنه مما يلاحظ أن الشعوب المتأخرة يغلب عليها الشعور بـ « أنا » ، والشعوب الحية المتقدمة يغلب عليها الشعور بـ « نحن » . وأعنى بالشعور « بنحن » شعور الفرد بالمجموع البشرى الذى ينتسب إليه ، سواء كان جميعه أو ناديا أو أسرة أو قبيلة أو أمة . وكل إنسان عنده الشعوران معاً : الشعور « بأنا » والشعور « بنحن » . ولـكن تختلف الأفراد فى ذلك اختلافا كبيراً ، فترى بعض الناس يشعرون شعوراً قوياً « بأنا » ، و يوجهون كل أعمالهم وتفكيرهم نحو مصالحهم الشخصية ، بل لا يعملون عملا ما إلا إذا لمحوا فيه منفعة لهم شخصية . ومن الناس من يقوى عنده الشعور « بنحن » ، فهو دائماً يعمل الخير للناس ، و يسعى فى إيصال الخير إليهم ، ودفع الشر عنهم ، و يجد لذته فى ذلك . ومن الناس من هو بين بين . وكذلك الشأن فى الأمم . أمة يغلب عليها الأنانية ، وأخرى يغلب عليها الشعور بالغيرية ، كالذين وصفهم الله سبحانه بقوله : « و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . والذى يلاحظ أنه فى الشرق تغلب الأنانيـة على أفراده وفى الغرب تغلب الغيرية على أفراده . ولذلك عدة مظاهر .

١ — شعور الفرد فى الشرق بناديه أو بحزبه أو بالجماعة التى ينتسب إليها أو بأمته شعور ضعيف ، على عكس ذلك فى الغرب ، فشعور الفرد هناك نحوها

كلها شعور قوى . ولذلك تنجح فى الشرق أعمال الأفراد أكثر مما تنجح أعمال الجماعات ، كالشركات والنوادى والجمعيات . وكم سمعنا بجمعيات وشركات تأسست فى الشرق ، ثم أفلست . وحتى الجمعيات التى تنجح إنما تنجح لفرد قوى يرأسها ، ويوجهها ، ويحمل أكثر أعبائها ، فى حين أن باقى الأعضاء يتكلون عليه ، فهو فى الواقع عمل فرد فى شكل جمعية ، لأن نجاح الجمعية كجمعية معناه أن أفراد الجمعية كلهم يعملون ، كآلة الساعة : عقرب و بندول ورقاص وغيرها ، كل يعمل عمله ، فيكون من جراء ذلك ساعة مضبوطة . وهى درجة ما أظن أن الشرق وصل إليها . وهى أشياء لا بد منها فى حياة المجتمع الراقى .

٢ — ومن مظاهر ذلك أيضاً أننا فى الشرق نحترم الملكية الخاصة ، ولا نحترم الملكية العامة ، مثال ذلك : أننا فى الشارع لا نشعر بأنه ملك للناس كلهم ، وكأنه ملك لنا وحدنا . فنرمى فيه بالأوراق و بقشور الفاكهة و بالقاذورات ، ولو كنا نشعر بأنه ملك عام للناس كلهم ما أجزنا لأنفسنا ذلك . بل ونستجيز لأنفسنا أن نقطف وردة من حديقة عامة ، مع أن الوردة ليست ملكنا ، ولكنها ملك للناس كلهم ، يتمتعون بمنظرها ورائحتها . وتعجبنى حكاية لطيفة أن الشيخ محمد عبده كان يركب سفينة مع صديق له فسار الصديق فى السفينة حينا وعاد فوجد الشيخ محمد عبده يبكى ، فقال له : مم تبكى ؟ قال : رأيت مربية إفرنجية على السفينة تربى طفلا صغيراً ، فجرى الطفل نحو وردة فى أصيص من الأصص وقطفها ، فأنبته على عمله تأنيبا شديداً ، وكان مما قالته له : أن الوردة ليست ملكك حتى تقتطفها ، ولكنها ملك لركاب السفينة جميعاً ، بل ولركابها غداً . فأنا أبكى لأن هذه المعانى الراقية لم يفهمها حتى علماؤنا .

ومن هذا القبيل ما نراه فى حفلات السينما والتمثيل وحفلات الموسيقى ، فكل فرد منا يشعر « بأنا » على حين يشعر الغربى « بنحن » . ونتيجة ذلك أن الشرقى يستبيح لنفسه فى هذه الحفلات أن يتكلم مع صديقه بصوت عال

يشوش على من بجواره ، خصوصا إذا كان من الطبقة الأرستقراطية ، فيشعر بأنه فوق القانون وفوق الجميع ، من غير أن يشعر أن عليه واجبا أن يحترم حقوق الآخرين . فإذا أنت نبهته إلى ذلك برفق تجهم ، وقال إنه حر يفعل ما يشاء ، نعم إنه حر ، ولكن حريته مقيدة بمصالح الآخرين ، ككل حرية . ونحن نرى أن الغربى إذا أراد أن يحدث صديقه فى سينما أو تمثيل أو فى ترام حدثه همسا ، بحيث لا يشعر بذلك من بجواره . وذلك لقوة شعوره « بنحن » .

٣ — وحتى فى الأعمال الخيرية ، كالاحسان على الفقير ، يشعر الشرقيون « بأنا » لا « بنحن » . فالشرقى فى الغالب لا يحسن إلا إذا فاجأه الفقير وألح عليه بالسؤال ، وهو إذا أعطاه أعطاه يدا بيد ، وكل هذا من غلبة الشعور « بأنا » . أما الغربى فيشعر « بنحن » ، فهو يشعر بالفقراء لا بالفقير ، وبالمرضى لا بالمريض . فهو يتبرع للجمعيات الخيرية التى تصرف أموالها على الفقراء والمرضى ، إذ أن شعوره « بنحن » يشعر بأن فى أمته طبقة من الفقراء والمرضى يجب عليه أن يشاركهم فى شعورهم ، ويتبرع بجزء من ماله لهم .

وهذا الشعور غير الشعور بالفردية وأرقى منه ، كالذى قاله علماء النفس فى الأطفال : إن الطفل يبدأ فيفهم الأبيض ولا يفهم البياض ، لأن الأبيض جزئى ، والبياض كلى . وفهم الجزئى يتقدم فهم الكلى .

* * *

من أجل ذلك كله وجب على القادة فى الشرق أن يضعوا أمام أعينهم التربية الاجتماعية ، فى الأسر ، وفى المدارس ، وفى المحال العامة ، فلا يسمحوا للأفراد أن يسيروا حسب ميولهم الفردية ، بل يشعروهم بأنهم جزء من مجتمعهم الذى هو المدرسة أولا ، والأسرة ثانياً ، والمجتمع العام ثالثاً ، ولا يسمح لفرد أن يسير وفق هواه ، فإذا اعتاد العمل والتفكير فى المجموع وهو طفل سهل عليه

أن يراعى ذلك وهو كبير . بل نستطيع أن نعودهم ذلك فى ألعابهم ، فإذا لعب الـكرة مثلا قوينا فى نفسه أنه مسئول عن فرقته اللاعبة معه ، وأنه إذا غلب فغلبته لفرقته ، و إذا قصر أو لعب لعبة رديئة أثر ذلك أثراً سيئاً فى فرقته ، فذلك يشعره « بنحن » أكثر من شعوره « بأنا » . وعلى هـذا ما جرى عليه العمل الآن مبدئيا فى بعض المدارس من تقسيم الطلبة إلى فرق : فرق تعنى بالفن ، وأخرى بالتاريخ ، وثالثة باللغات ، وهكذا ، وكل فرقة لهـا شارة معينة ، وكل طالب من فرقة يفتخر بأن فرقته نجحت ، و يخجل أن فرقته فشلت . وفى هـذا كله درس قوى من الشعور « بنحن » .

ومما ساعد الغربيين على هذا الشعور « بنحن » التربية العسكرية ، فالجندى فى الفرقة يشعر بأنه جزء من الفرقة كلها ، فى نظامها وألعابها وحربها ، وأنه مسئول عن كل شيء يصيب الفرقة .

وفى الحديث الشريف أن جماعة ركبوا سفينة فأخذ أحد الركاب يكسر لوحا من ألواحها . قال الحديث : فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا ، و إلا هلك وهلـكوا . وفى هذا شعور كبير بالتضامن ؛ و بعبارة أخرى : شعور « بنحن » . وفى القرآن الـكريم : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ، أى أن الظالم والجاهل والسيء العمل لا تعود نتيجة عملهم على أنفسهم فقط ، بل تتعدى إلى جميعهم ومن يشاركونهم فى حياتهم الاجتماعية .

وأنت إذا أردت أن تحسب قوة أسرة أو فرقة عسكرية ، أو حتى قوة أمة ، فلا تحسب ذلك بعددها وثروتها ، و إنما تحسب ذلك بالحبال التى تربطها ، فإن كانت الحبال متينة فاعلم أنه مجتمع قوى متين . و إنما أتيت الأمم من قبل ضعف الروابط بين أفرادها ، وانحلال عرواتها .

فإذا أرادت أمة أن تنهض فلتجعل من أول واجباتها البحث فى عوامل انحلالها ، ولتعن بالروابط بين أفرادها ، ولتعالج هذا الأمر ، فى أطفالها فى مدارسهم

وألعابهم ، وفى جنودها بالنظم المحكمة التى تزيد من روابطهم وتجعل كل جندى يشعر « بنحن » أكثر مما يشعر « بأنا » ، ولتنشر التربية العسكرية بين كل شبانها ، ولتجعل من أهم أغراضها تقوية الشعور « بنحن » إلى أبعد حد ، ووقف الشعور « بأنا » إلى الحد الذى يتطلب المحافظة على الذات . ولا شك أن هذا مطلب شاق عسير ، ولكنه فى الإمكان .

والتربية الإسلامية الأولى نجحت فى ذلك نجاحا كبيراً ، فكم من أمثلة كثيرة ضحى فيها الأفراد بمصالحهم الشخصية للمصلحة العامة ، فهذا عمر يرضى أن يعيش عيشة فى منتهى البساطة ليسعد الناس ، وهذا عثمان يتبرع بالمال الكثير لانشاء جيش ، وأمثالها كثير مما لا يعد ولا يحصى . ولكن من الأسف خلف من بعدهم خلف لم يكن أمام أعينهم إلا « أنا » ، وقال قائلهم : « ومن بعدى الطوفان » ، فيستبيح لنفسه أن يظلم ما استطاع أن يظلم ، وأن يجنى لنفسه المال ويتمتع بالشهوات ما أمكنه ذلك ، وأن يعيش عيشة فى منتهى الترف ولو تضور الناس من حوله جوعا ، فكان من ذلك تدهور الشرق على النحو الذى رأيناه ، وهو لا يصلح إلا بازالة كل عوامل الفساد ، وتأسيسه على أسس جديدة أولها وضع « نحن » موضع « أنا » .

سنن الله فى الأمم

— ١ —

يسير العالم على نظم دقيقة فى كل شىء ، سواء فى ذلك النبات والحيوان والإنسان . وكما أن للأفراد سنناً ثابتة ، من صبا وشباب وكهولة وشيخوخة ومن صحة ومرض وقوة وضعف ، كذلك شأن الأمم ، لها قوانين لحياتها وفنائها وصحتها ومرضها . وقد نبه القرآن الكريم على كثير من هذه القوانين ، نتعرض لبعضها اليوم .

من تلك القوانين :

١ — حفظها بالصالحين من أبنائها ، ومعنى ذلك أنه لا بد لحياة الأمم من طائفة فيها يكون عملها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . و بعبارة أخرى : الدعوة إلى الإصلاح ، واستنكار الفساد . وهذه الطائفة تأخذ أشكالا مختلفة ، فى العصور الإسلامية الأولى كان ذلك وظيفة من يسمون أهل الحل والعقد ، وفى العصور الحديثة كان ذلك وظيفة البرلمانات ورجال الصحافة ورجال الإذاعة ونحو ذلك . على كل حال لا بد من قوم يتولون هذه الوظيفة بجد واجتهاد وأمانة و إخلاص ، قد بلغوا من حسن النية مبلغاً كبيراً ، ووصلوا فى الثقافة واستنارة الأذهان وطهارة الشعور ما يستطيعون به أن يوجهوا قومهم إلى ما ينفعهم ، و يحذروهم مما يضرهم ، سواء كانوا زعماء أو أعضاء مجالس نيابية أو صحفيين أو نحو ذلك ، فإن هم قصروا عن ذلك تخبطت الأمة وسارت فى ظلام ، وكان عاقبتها الفناء . يقول الله فى ذلك : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، ويقول : « فلولا كان من القرون من قبلكم أو لو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض » . وقد جاءت هذه الآية عقب حكاية أقوام أهلكهم الله لظلمهم وفسادهم فيقول : أنه لو كان فيهم جماعة أو جماعات

تنهاهم عن الفساد وتحثهم على الفضائل لما هلكوا . أى أن الصالحين المصلحين هم الذين يحفظون الأمة من التردى والهلاك ، شأنهم فى ذلك شأن الأطباء للأفراد . فالأفراد إذا مرضوا استدعينا لهم الأطباء ، فشخصوا أمراضهم ، ووصفوا لهم علاجهم ، فإن ساروا عليه نجوا ، وألا هلكوا . والمريض إذا لم يستطب طبيباً أو استطبه ولم يسمع بقوله كان مصيره الهلاك . وهذه الطائفة هى التى سماها الله فى القرآن بالصالحين فقال : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ، وقال فى آية أخرى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » ، غاية الأمر أن الناس غيروا معنى الصالحين ، ففهموا منهم الذين يكثرون الصلاة والصيام ويكثرون من تلاوة القرآن ، ولو اكتفوا بذلك وقضوا فيها حياتهم . على حين أن المراد بالصالحين الذين يستخلفهم الله فى الأرض هم الصالحون لإدارتها ، القادرون على تدبير شؤونها ، الذين يستطيعون تنظيم أحوالها . أما الذين يقتصرون على الصلاة والصيام وتلاوة القرآن من غير أن يكون لهم حسن تصرف فى الإدارة ، وعجزوا عن القيام بشئون الناس وتدبير أحوال الأرض ، فليسوا هم الذين يقصدهم الله بالصالحين . فلكل شىء وجه يطلق عليه أن الرجل صالح له أو غير صالح ، فالصالح فى السياسة غير الصالح فى تدبير الأموال غير الصالح فقط للصلاة والزكاة ، ولكل موضعه ، ومن أجل هذا الخطأ ركن قوم إلى دفع العدو بقراءة الأوراد والبخارى وتلاوة القرآن ، مع أن الذى يصلح لاتقاء العدو هو محاربته بمثل سلاحه ، لا بمجرد الجلوس فى المساجد وقراءة الدعوات والابتهالات من غير أن يعدوا لهم ما استطاعوا من قوة . والخلاصة من كل هذا أن من سنن الله فى الأمم أنه ما لم يكن فى الأمة قوم يفهمون أمتهم ، ويعلمون علماً تاماً بيئتهم ، وما تقتضيه من أعمال ، فينبهونها إلى واجبها ، ويحذرونها من مفاسدها ، لم يكن لها بقاء . هكذا يقول الله تعالى . وهؤلاء هم الذين يسميهم الله الصالحين .

و بقدر جد هؤلاء الصالحين ونشاطهم وأعمالهم تـكون حياة الأمم ، و بقدر قلتهم يكون ضعف حياتها ، و بقدر عدمهم يكون فناؤها .

٢ — من سنن الله أيضاً فى الأمم أن الأمة إذا طغى أمراؤها ، وانغمسوا فى الترف والنعيم ، ولم يأبهوا لمصالح شعبهم ، ولم يأخذ العقلاء فيها على أيديهم ، كان مصيرها الفناء . يقول الله تعالى : « ولا تركَنُوا إلى الَّذين ظلموا فتمسَّـكم النار » ، ويقول : « و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » ، أى أن أولى الأمر فى الأمة لو جروا وراء شهواتهم ، ولم ينظروا إلا إلى ترفهم ونعيمهم ، بادت دولتهم ، لأنهم إن فعلوا ذلك أنفقوا الأموال فى ملاذهم ، ولم يقيموا وزنا لقوة الشعب الحربية ولا لقيمته العلمية والأدبية . فكيف تبقى الأمة مع ذلك . أما إن صلح أمراؤها ، وساروا بالعدل مع شعوبهم ومع أنفسهم ، وأعطوا لـكل ذى حق حقه ، وأعطو لأنفسهم حقوقها ، والتزموا بواجباتها ، أبقاها الله ولم يفنها . وهذا هو الشأن فى كل عصر ، ظلم الحكام يرديها ويهلـكها ، وعدل الحـكام يعليها ويصلحها ، يقول الله تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » أى أن الله لا يهلـكها إذا صلح أهلها ، وتجنبوا الفساد والظلم . والمراد بكونهم مصلحين أنهم مصلحون فى أعمالهم الاجتماعية والعمرانية ، فلا يبخسون الحقوق ، ولا يرتـكبون الإثم والعدوان والطغيان ، إن شئت فانظر فى ظل هذين المبدأين الـكبيرين إلى الأمم التى حولك ، واستعرض قويها وضعيفها ، تر أن الأمة إذا سارت على هذين المبدأين قويت وبقيت ، و إذا أهملتهما فشلت وضعفت ، و بقدر قوتهما وضعفهما تضعف الأمم وتقوى . إن خير الأمم الحالية من قوى برلمانها ، واستطاع أن يشرف على حكومتها ، ووجهها الوجهة الصالحة ، وحذرها من التردى فى المهالك ، ولم ينـكص عن قول الحق والجهر به والدعاء إليه ، لا يخاف من قوى لقوته ، ولا من فاسد لفساده ،

ولا من غنى لغناه ، وإذا خالف رأيه رأى الحكومة قال ذلك فى صراحة ، وسمع فى ذلك صوت ضميره ودينه ، لا صوت شهواته ومغنمه .

كذلك من ميزان حياة الأمم الآن مقدار نزاهة حكامها وأمرائها ، وعدم وقوعهم فى الطغيان والإسراف فى الترف والنعيم . إننا نرى أن الحكومات الصالحة فى الأمم المختلفة تسيطر حتى على الملوك والأمراء ، فتمنعهم من أن يطغوا ، وتمنعهم من أن يبذروا أموال الشعوب فى ملاذهم وشهواتهم وشرهم . فإن هى فعلت ذلك سمح الله لها بالرقى والبقاء . ونحن نرى إلى الآن أنها إن لم تفعل حاق بها وبهم الهلاك . ونرى فى القرآن إشارة كريمة فى قوله تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » ، أى أنه لا يصح لأولى الحل والعقد والممتازين من الأمة من علماء دين ورجال سياسة وأعضاء برلمان أن يركنوا إلى الملوك والأمراء الطغاة . ومعنى الركون إليهم تشجيعهم على ما هم فيه من فساد ، أو تركهم يعبثون كما يشاءون ، بل يجب الضرب على أيديهم ، وإقناعهم بالعدول بالحسنى إن أمكن ، وبغير الحسنى إن لم يمكن . فإن فعلوا نجا الأمراء والملوك ونجوا ، وإلا هلك هؤلاء وهؤلاء .

هذان قانونان من القوانين التى سنها الله لحياة الأمم وفنائها . وهناك قوانين أخرى نتحدث عنها فى فرصة أخرى إن شاء الله .

سنن الله فى الكون

— ٢ —

كتبنا فى المقال السابق عن بعض سنن الله فى الأمم . واليوم نذكر طرفاً آخر من هذه السنن .

من ذلك أنه إذا فسد الرؤساء وسكت أهل الرأى عن النصيحة ، استشرى الفساد ، وعم الأمة كلها . وأما إن اجتمع أهل الرأى وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها بقيت وصلحت . ومن أجل هذا تجتهد الأمم المستعمرة أن تولى رجلا يكون طوع أيديهم ، فيستعمرون الأمةعن طريقه . وقد أوجب الله على نفسه عقاب الأمم المذنبة ، ولا يرتفع العقاب إلا بالتوبة . لذلك لما قدم عمر بن الخطاب العباس للاستسقاء لقرابته من النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة » .

ومن القوانين العامة فى الأمم أن الظلم والبغى والفساد سبب فى انحطاط الأمم وضعفها وهلاكها . بل ورد فى القرآن أن ذلك سبب لقلة المطر وللقحط ولفساد الزراع وهلاك الحرث والنسل . ومن هذه القوانين أن الأمم تهلك لسيطرة أصحاب الأموال ورغبتهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون . وقد ضرب الله مثلا أمة شعيب إذ كانوا يستبيحون تنمية الثروة بكل الطرق الممكنة كالتطفيف فى الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم ، فكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك كله ، ويوصيهم باجتناب أكل أموال الناس بالباطل وقناعتهم بالحلال . وهم يقولون : إنهم أحرار فى أموالهم يفعلون بها ما يشاءون : « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » ، فعاقبهم الله بضياع أموالهم . ولا

تزال المشكلة المالية وحرية التصرف من أعقد المشاكل الاجتماعية اليوم . يرى أرباب الأموال أنهم أحرار فى مالهم يفعلون فيه ما يشاءون ، ويرى المصلحون والأخلاقيون أن المال لا بد أن يخضع للأخلاق ، فلا يستغل الفقير استغلالا يضر به . وقد جعل الله من أسباب صلاح الأمم قيامها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعله أمراً لازما لصلاح الأمة ، فإذا قاموا به نجوا ، وإلا هلكوا . وقد ذم الله اليهود بقوله « لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

ومن سنته تعالى ابتلاؤه للأمم بالنعم والنقم ، فالله يختبر المؤمنين الصالحين الأخيار والمجرمين الأشرار بكثير من مصائب الدنيا . فالمؤمن البصير يراها تربية وتهذيباً وتمحيصاً له تزيده إيمانا وبصيرة يقول الله تعالى « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » فيرى المؤمن فى هذه الدنيا مظاهر كثيرة لتنعم المجرم وكثرة ثروته حتى يستفزه ذلك المنظر ، ويرى المؤمنين الصادقين فى بلاء ومحنة . فإن صبر لهذه المناظر اجتاز هذه المرحلة بنجاح .

كذلك من سنن الله فى الأمم أنه إذا تفرقت الأمم شيعاً وأحزاباً ، يضرب بعضهم بعضاً . ويحارب بعضهم بعضاً ، حق عليها الفناء . وإذا توحدوا وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وتعاونوا وحمل كل عبئه ، وساعد الباقين على تحمل أعبائهم نجحوا وكونوا أمة صالحة . وهذا ظاهر فى تاريخ الأمم قديمها وحديثها ، غربيها وشرقيها . وعبر الله عن نتيجة الذين يتحدون ويتعاونون بقوله : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » وابيضاض الوجوه من ارتياحهم لحسن النتيجة ، واسودادها لما يرون من سوء النتيجة . ثم إن الله جعل لحياة الأمم مقومات ، كتربية النشء تربية صالحة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة نظام العائلة ، ونحو

ذلك ، فإذا تمت مقومات الأمة صلحت و إذا لم توجد أو لم يوجد بعضها لم تتكون أمة صالحة . وكذلك للأمة قوانين لارتقائها ، لا ترتقى بدونها ، كبنائها الحياة على العدل وتدعيمها بالقوانين الاقتصادية التى تكفل رفاهيتها وثروتها . فمن عمل بتلك القوانين نجح وارتقى ، و إلا ضعف وفنى . كذلك نرى أن الأمة إذا أخذت بمبدأ الشورى ومبادلة الرأى وخصوصاً فى جلائل الأعمال ارتقت ، و إذا استبد حكامها بالرأى وفرضوا آراءهم من غير مناقشة ضعفت وانهارت لأن المستبد مهما عقل فليس بمأمون الزلل .

تلك بعض قوانين الله فى الأمم ، أبانها القرآن الكريم والسنة الصحيحة . فمن اتبعها وعمل بها أمن الفناء وضمن الرقى والبقاء ، ومن تهاون فيها كان عرضة للضعف والفناء . وهذه القوانين دائمة لا تتغير ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . كانت فيما مضى ، ولا تزال باقية إلى اليوم ، وستظل باقية فى المستقبل .

لقد غير علماء الاجتماع صيغتها وأسماءها ، ولكن الحقيقة واحدة مهما تغيرت الأسماء . والأمم تحافظ على بقائها بمقدار اتباعها لها ، وتنحط بنسبة ضياعها لها . وهى قوانين ثابتة ثبوت القوانين العادية ، كالتمدد بالحرارة والانكماش بالبرودة .

لا يهم هذه القوانين إلا السير عليها لتؤدى نتيجتها سواء علم أصحابها أنهم يسيرون عليها أو لا ، شأن الشخص يتعاطى سماً فتكون له نتيجته المحتومة ولو لم يعلم أنه سم ، ويتعاطى الدواء الناجع ، فيشفى ولو لم يعلم أنه دواء . وهكذا شأن القوانين الطبيعية .

لقد سار على مقتضاها المسلمون الأولون ففازوا بنتيجتها . اتحدوا ولم يتفرقوا ، وعدلوا ولم يظلموا ، واتبعوا القواعد الاقتصادية فى الشئون المالية فنجحوا نجاحاً باهراً ، وفتحوا ما لم يكن فى الحسبان ، وهرع الناس إليهم من ظلم الفرس والرومان ، وكانوا فى كثير من المواقف يعينونهم على عدوهم و يعرفونهم بمواضع الضعف عند حكامهم . كما فعل الإسبانيون فى أسبانيا والأقباط بمصر . وليس يصلح المسلمون

إلا بما صلح به أولهم . انظر إلى الأمم المختلفة ترها كلها واقفة على سلم ذى درجات ، بعضها أرفع من بعض . وسبب هذه الرفعة تمسكها بهذه القوانين الطبيعية التى أوجبت رقيها . وسبب وقوف بعضها على درجات أدنى من السلم تهاونها فى بعض هذه القوانين . وسواء فى ذلك الأمم الشرقية أو الغربية ، فاتباع هذه القوانين يؤول إلى الرقى بقطع النظر عن مسلم وكافر ، شأن ذلك شأن القوانين المادية تماما ، فالأسرة تسعد بالصدق والعدل كائنة ما كانت وعلى أى دين كانت . وهى تنحط بالكذب والظلم كائنة ما كانت وعلى أى دين كانت . فالقوانين الطبيعية لا تفرق بين دين ودين ، ولا جنس وجنس ، إنما يهمها اتباع القانون أو عصيانه وكفى .

منهج الفلسفة القديمة
والفلسفة الحديثة

١ ظلت الفلسفة منذ عصر اليونان ، إلى عصر الرومان ، إلى العصر الإسلامى ، متأثرة كل التأثر بتعاليم أفلاطون وأرسطو ، وخاصة أرسطو . واعتقد الناس أن ما جاء به أرسطو هو الحق ، وما بحث فيه ، فهو مجال البحث ، وما تركه ، فهو مجال الترك . وبذلك أجلسوه على عرش يشبه عرش الألوهية ، حتى أنه لو قام البرهان المحسوس على فساد زعمه ، شكوا فى عقولهم ، دون عقل أرسطو . نقد حكوا أن أرسطو قال : إن الشىء الثقيل والخفيف إذا ألقيا من مكان عال نزلا فى زمان واحد ، والتجربة تدل على أن الشىء الثقيل ينزل قبل الشىء الخفيف ، ومع ذلك صدق الناس ما قال أرسطو وكذبوا عقولهم . فإن قلنا إن أرسطو شل عقول الناس قرونا طويلة ، لم نكن بعيدين عن الصواب !. وقد بحث أرسطو فى كل الأشياء : من نبات ، وحيوان ، وأرض ، وسماء وإلاهيات ، ونفوس كلية ، ونفوس بشرية ، وأخلاق ، واجتماع ، وغير ذلك ، ولكن المكانة الأولى كانت لما بعد الطبيعة ، لأنها متصلة بالأديان ، والأديان لها تأثير كبير فى النفوس . فكان الفلاسفة يمرون مر الكرام على النبات والحيوان والطبيعة ، ثم يضعون أكبر اهتمامهم فيما بعد الطبيعة . فعل ذلك الكندى والفارابى ، وابن سينا وابن رشد ، والقديس توما النصرانى وغيرهم . وبحث أرسطو فيما بعد الطبيعة هذه فى أشياء كثيرة ، من أهمها : هل المادة قديمة أو حادثة . وذهب إلى أنها قديمة ، كما بحث فى : كيف صدر العالم عن الله ، وكيف تطور ، كما بحث فى النفس الإنسانية ، وهل تخلد بعد الموت ، وإن كانت تخلد فهل الذى يخلد هو النفس الكلية ، أو النفوس الفردية ؟ وذهب إلى أن الذى يخلد هو النفس الكلية . وإذا كان كذلك ، فما

معنى الثواب والعقاب ، وأن كل إنسان يجازى بعمله ، إلى أمثال ذلك من المباحث التى تعرض لها الدين أيضاً . فمن أهم أسس الدين خلق الله للعالم ، وأنه هو وحده الأزلى الأبدى ، وأن النفس الفردية تبعث بعد الموت ، وتجازى على عملها . وقد ذهب فى هذا فلاسفة المسلمين إلى ثلاثة أقسام : قسم كابن سينا وابن رشد و إخوان الصفاء حاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة والدين ، كما فعل ابن رشد فى تأليفه كتاب « فصل المقال ، فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال » فقالوا إن الدين صحيح ، والفلسفة صحيحة ، فيجب أن نوفق بينهما . وقسم كالغزالى ندد بالفلسفة وأنكرها ، وقال إن تعاليم الدين هى الصحيحة ، وتعاليم الفلسفة خطأ فى خطأ ، وألف فى ذلك كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وقسم قالوا إن التوفيق بين الدين والفلسفة خطأ ، و إن الدين صحيح ، والفلسفة صحيحة ، ولكن لكل منهما منطقة نفوذ ، لا يصح أن يعتدى أحدهما على الآخر . فالعاقل يتبع الدين فى مجال الدين ، والفلسفة فى مجال الفلسفة . فما أتى به الدين فى البعث والنشر واليوم الآخر ، وخلق العالم يؤخذ قضية مسلمة متى اعتنق الإنسان الدين ، وما أتت به الفلسفة من طبيعيات وكياويات ومنطق ، ونحو ذلك يفهم و يبحث و ينسق . ومن أمثلة هذا القسم أبو سليمان المنطقى ، فقد عاب على إخوان الصفاء منهجهم ، وقال : إنهم حاولوا التوفيق عبثاً . وأيا ما كان ، فقد ظلت تعاليم أرسطو مقدسة ، عند فلاسفة المسلمين ، وانتقلت منهم فى القرون الوسطى إلى علماء اللاهوت فى أوربا ، وعلى الأخص ابن رشد ، ووفقوا بين الدين والفلسفة كما قال ابن رشد . ومن أثر هذه الفلسفة أنها تجعل صاحبها أميل إلى تصديقها أكثر من الدين ، والاعتقاد بأن الدين للجماهير والخاصة ، والفلسفة للخاصة . وأخيراً و بعد قرون طويلة حدثت النهضة فى أوربا ، وجاءت فلاسفة لم يخضعوا لأرسطو ، و إنما خضعوا للحقيقة ، وكان على رأسهم الفيلسوف بيكون . قال : إن عقل الإنسان تتحكم فيه أوهام ، ومن ضمن

الأوهام تقديس أرسطو وأمثاله ، وأرسطو حقاً عقل كبير ، ولكنه يخطىء أيضاً ويصيب .

قالوا : ونحن لا نريد أن نؤمن إلا بما تدل عليه المشاهدة والتجربة ، ووضعوا مكان أرسطو المعامل التجريبية ، يجربون فيها نظريات الطبيعة والكيمياء وحتى نظريات علم النفس . فما لم تدل على صحته هذه التجارب لا نصدق به . فقد كان أرسطو يسرف فى استعمال القياس فى المنطق ، فمثلا يرى أن الماء إذا غلى مراراً يتبخر ، وأن اللبن كالماء إذا غلى كذلك مراراً يتبخر ، فوضع نظرية تبخر الماء واللبن ، ولكن بيكون قال : إن هذا لا يكفى فى التجربة ، بل لا بد من تجارب إيجابية ، وتجارب سلبية ، حتى تثبت النظرية ، فمثلا إذا سخن الماء مراراً فتبخر ، فهذه تجربة إيجابية . ويجب أن يضاف إليها تجربة أخرى عكسية ، وهى تبريد الماء فيتجمد ، ثم رأوا أن البحث فى الأشياء الإلهية التى بحث فيه أرسطو وأتباعه ، كخلق العالم ، والبعث والنشور ، ونحو ذلك ، أمور لا يمكن العلم إثباتها ولا نفيها . وإنما هى أمور يمكن تصديقها عن طريق الدين . فمتى اعتقد الإنسان بإله ونبى وأتى النبى بهذه التعاليم ، أمكن التصديق بها تصديقاً مسلماً به . ومن أجل ذلك سميت الكائنات الطبيعة عالم الشهادة ، والموجودات الأخرى الغيبية عالم الغيب . والعلم فى عالم الغيب يدور حول نفسه ولا يتقدم ، لأن المشاهدة والتجربة لا تعملان فيه شيئاً . ولذلك قسم اسبنسر الموجودات إلى ثلاثة أقسام ، معلوم كالطبيعيات ، وغير معلوم كذات الله تعالى وصفاته ، وما لا يمكن معرفته بوسائلنا الخاصة ، كالموت والحياة واليوم الآخر وأمثال ذلك . ولما أيقنوا أن البحث فيما بعد الطبيعة غير ذى فائدة اتجهوا أكثر ما اتجهوا إلى الطبيعيات ، وبنوا عليها نظرياتهم واكتشافاتهم . فتقدموا تقدما كبيراً فى بحث المادة وخصائصها ، وبنوا عليها المخترعات الحديثة مما بهر الأنظار ، وأصبحت الفلسفة تبنى على المشاهدة والتجربة ، وأكملوا منطق أرسطو الصورى بمنطق المادة ، كالبحث فى الفروض والنظريات ، والحقائق ، ولم

يكتفوا بأشكال القياس مثلا ، بقطع النظر عن المقدمات هل هى صحيحة أو ليست صحيحة ، وقالوا إن عقل الإنسان عقل قاصر ، لا يستطيع البحث إلا فى العيش ووسائل العيش ، أما ما عدا ذلك من البحث فى أصل الحياة ، والحياة بعد الموت ، واليوم الآخر ، فهذه أمور لم يمنح العقل البشرى القدرة على إثباتها والبرهنة عليها ، فهى تأخذ عن طريق الدين ، و يصدق بها على أنها قضايا مسلمة . و بعضهم تغالى ، وأنكر ما ليس مادة تخضع للمشاهدة والتجربة . ولذلك قالوا : إن الدين يبتدئ حيث ينتهى العلم . ومعنى ذلك أن العلم لا يستطيع السير إلا فى المادة بسيطها ومركبها ، فإذا هو تجاوزها ، فلا يستطيع السير ، و يمكن الإنسان أن يكون عالماً ومتديناً فى وقت معاً ، فيذهب إلى المسجد ليصلى ، و يخرج منه ليشتغل فى المعمل ، يرى و يجرب ، وهذا شىء ، وهذا شىء . وهذه منطقة نفوذ ، وهذه منطقة نفوذ . وليس يسلم العلم دائماً إلى الإلحاد . بل كثير من العلماء رأوا فى المادة ما يعجزهم عن فهمها فهماً حقيقياً ، إلا إذا فهموا أن وراءها إلهاً مدبراً ، وقد كان ابن رشد يقول : إن اشتغاله بتشريح أعضاء الجسم الإنسانى أكسبه إيماناً فوق إيمانه ، وغيره زاده إيماناً اشتغاله برصد الكواكب وحركتها ، وغيرهما زاده إيماناً رؤية العالم وما فيه من نظام وتناسق ، فحيث لا تكون للطفل أسنان يكون هناك لبن ، وحيث توجد له أسنان توجد لحوم و بقول . وعلماء الذرة اليوم يقفون على أشياء فى الكون تستوجب العجب ، ومن وراء العجب الإيمان .

على كل حال نريد أن نقول : إن البحث فى الفلسفة القديمة كان دائراً حول نفسه ، لم يقدم الناس شيئاً ، ومنهج البحث فى الفلسفة الحديثة من عدم تقديس ما قاله العلماء ، و بناؤه على المشاهدة والتجربة ، قدم العالم تقدما كبيراً . وأسوق هذا لأنصح المسلمين أن يبنوا بحوثهم ويتجهوا فى اتجاهاتهم إلى ما ينبنى عليه فى الحياة عمل ، دون ما يقتصر على سفسطة أو جدل . وفى ذلك يعجبنى الإمام مالك ، فقد كان لا يفرض فروضاً ، و إذا عرضت عليه مسألة سأل : أينبنى عليها عمل أم لا ، فإن كان ينبنى عليها عمل أفتى ، و إلا لا .

الإيمان ينبوع السعادة

يروى عن عمر بن الخطاب أنه دعا الله أن يرزقه إيماناً كإيمان العجائز ، ولم يقل كإيمان العلماء . . لأن إيمان العجائز إيمان عميق ، هادىء مطمئن ، لا يرقى إليه الظن ، ولا يحوم حوله الشك . دينهم شعور عميق بإله بلغ النهاية فى الكمال ، والغاية فى الطيبة . وعن هذا تصدر أعمالهم ، وبلقائه تتعلق آمالهم . أما العلماء فقد اعتادوا الشك واعتمدوا على الحجج العقلية ، فكان إيماناً مقلقلا ، يحول بينهم وبين تمام اعتقادهم ، صعوبة إدراكهم لحقيقته بعقولهم .

ثم إن خير الدين ما أتى عن طريق القلب ، والعجائز إيمانهم عن طريق قلوبهم ، والعلماء إيمانهم عن طريق عقولهم . والعقل عادة مصدر للشك والتردد ، والقلق والحيرة . والقلب لا يعرف شكا ولا تردداً .

وإيمان العجائز إيمان بسيط سهل ، فهم يدركون أن الإيمان بالله معناه أن الله خالق كل شىء ، ومدبر كل شىء ، يعطف على من يحبه بالخير ، وينتقم ممن لا يؤمن به ، إن عاجلا وإن آجلا . وهذه العقيدة على بساطتها كافية فى سير الشخص سيراً حسناً حميدا ، يفعل الخير ويجتنب الشر .

إن الإيمان بالدين مبنى على أساسين : رغبة ورهبة . فالإنسان يعمل الخير رغبة فى ثوابه ، وأملا فى جنته ، وهو يخاف عقوبته ، ويخاف ناره ، وبين الرغبة والرهبة تصلح الأعمال وتتم السعادة .

ما الحياة بلا إيمان بالله ؟ . . إن الإنسان خلق فى هذه الحياة وسط تيار جارف ، وجو عاصف . تنتابه الأحداث العظام ، وتحل به الكوارث . فما لم يعتقد فى إله يتخذه ملجأ له ، وركناً يعتمد عليه ، ومعزياً له فى المصائب ، ومساعدا له فى المتاعب ، ومأمناً له ضد الأخطار ، ومواسياً له عند الحزن كان كبناء

لا يستند إلى أساس ، و بيت ليس له دعامة . ومن أجل ذلك نرى أشقى الناس في الحياة أكثرهم إلحادا : إنهم قد يملكون المال الكثير ، و يحصلون على الرزق الوفير ، ولكن لا يلبثون إذا حلت بهم مصيبة أن يأخذهم الجزع ، لأن من طبيعة النفس الخوف من العدم ، أما المؤمن فيحمد الله فى السراء والضراء ، ومهما فعل ومهما حل به ، فهو يعتمد على ركن ركين ، وملجأ حصين . إن فاته الخير فى الدنيا أمل فى الآخرة ، وأن لم تسعفه ظروف اليوم ، أمل فى الله غدا .

* * *

وتجار بنا فى الحياة تدلنا على أن الإيمان بالله مورد من أعذب موارد السعادة ومناهلها . . فالدين يكسب النفس قوة وسلوى وعزاء ، وذلك ظاهر فى الدين القلبى . أما الدين العقلى فمبنى على الجدل وحجج المنطق ، وهما يفقدان الشخص حماسته : ومن أراد الهدى فى أعماله ، والتدين الحق فى عقيدته ، فليعتمد على ضميره أكثر مما يعتمد على عقله . وليس الدين بالمساجد والمعابد والأديرة ، إنما الدين بحياة القلب . وكم فى الدنيا من مدن غصت بالمعابد والمساجد والمظاهر الدينية ، وهى أبعد ما تكون عن الدين . وفى التاريخ أناس شقوا بالدين من تعصب وقتال على المذاهب وحروب صليبية ومحاكم تفتيش ، لأنهم انحرفوا عن الدين الصحيح ، ولم يسمعوا لصوت ضميرهم . . فضلوا فى طريقهم . والدين الصحيح سهل سمح لا يضمر عداء ، ولا خصومة ، كما قال محيي الدين بن عربى :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
و بيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب دينى و إيمانى

لقد منح الناس شعورا بإله يؤمنون به و يعتمدون عليه ، فإذا تحول ذلك إلى بحث فى من هو وأين هو ، وما صفاته ، حار الإنسان واضطرب . وتعجبنى فى ذلك حكاية قرأتها عن فيلسوف يونانى سئل مرة : « من هو الله ؟ وأين هو الله ؟»

فطلب أن يمهل يوما أو يومين ، يفكر فى الإجابة . . فلما لقيه السائل وطلب منه الجواب قال له : « لقد رأيت ظاهرة غريبة وهى أنى كلما فكرت فى الجواب ازددت حيرة » . ذلك لأنه سلك سبيل التفكير العقلى ، وكان أسهل عليه أن يسمع لصوت قلبه .

وكان القرآن حكيما فى مخاطبته للشعور فى مثل قوله : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ودعوته إلى النظر فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، واختلاف الألسنة والألوان ، أكثر من اعتماده على مقدمات منطقية ، وأقيسة جدلية ، لأن آيات القرآن هذه تخاطب الشعور والقلب ، والأقيسة المنطقية تخاطب العقل . وكل إنسان صالح لأن يوجه الحديث إلى قلبه ، وليس كل إنسان صالحاً لأن يوجه الحديث إلى عقله .

نعم ، إن العلم قد يخدم الدين ، ولكن لا يبعثه . . فتقدم الناس فى العلم اليوم خفف آلام البشرية من اعتقاد فى السحر والرقى ووجود أرواح شريرة تتسلط على البشر وتعذبهم حسبما تشاء . فكل هذه اعتقادات أزالها أو مزقها نور العلم ، فخدم الدين بذلك خدمة جليلة . فإذا اجتمع فى الناس قلب ينبض بحب الله ، وعقل يزيل الخرافات والأوهام عنه ، كان ذلك منتهى السعادة ومنتهى الرقى .

* * *

لولا الدين ما كانت سعادة ، ولا كانت للحياة قيمة . . بل نحن نرى أن آباءنا كانوا أسعد منا بإيمانهم ، وشباننا أشقى منهم بشكهم ، أو على الأقل بعدم اكتراثهم . وإن شئت فقارن بين أسرتين : أسرة أسست حياتها على الدين والتزمت به ، وأسرة أضاعت الدين ولم تلتفت إليه ، وأجبنى : أى الأسرتين أسعد ؟ إنى أعتقد أن أكبر سبب لشقاء الأسر وجود أبناء وبنات فيها لا يرعون الله فى تصرفهم ، وإنما يرعون هواهم وملذاتهم . فهم يركبون رءوسهم ، ويروون

رغباتهم ، من غير وازع دينى يزعهم ، أو نظرة فى العواقب تردعهم . فإذا فشا الدين فى أسرة ، فشت فيها السعادة . . وخاصة إذا كان ديناً راقياً تجرد عن الخرافات والأوهام وتدعم بالعلم ، وحكم أفرادها دينهم فى سلوكهم .

إن أهم ركن فى السعادة راحة البال . . والدين أكبر دعامة لراحة البال ، إذ يظهر أنه من طبيعة النفس الإنسانية أن تشعر بوجود إله تعتمد عليه . فإذا لم يكن ذلك ، قلقت واضطربت ، لأنها خالفت طبيعتها ، ولذلك نجد أكثر الملحدين يعيشون عيشة مضطربة . و إذا جد الجد وحضرهم الموت ، كانوا كفرعون ، لما أدركه الغرق ، قال : « آمنت أن لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . »

وهذه هى السعادة فى الحقيقة . . فليست السعادة فى كثرة المال ، ولا فى عظم الجاه ، إنما هى فى أنفسنا وفى داخل قلوبنا . وشىء آخر ، وهو أن من مزية الدين الإيمان باليوم الآخر ، فهو بذلك يضم حياة أبدية إلى حياته القصيرة الدنيوية . وذلك من غير شك يدعوه إلى أن يفكر فيما يعمل ، لاعتقاده فى الجزاء العادل ، إن لم ينله فى الدنيا ناله فى الآخرة ، ويكفه عن عمل الشر لأن وراءه إلها يجازيه على عمله مهما أسر ، ومن طبيعة الإنسان حب الحياة . ولذلك يرتعد فرقا إذا قيل له إن حياته فى الدنيا هى الحياة ، لأن معنى ذلك أنها حياة قصيرة ، تنتهى بعدم مفزع وسعادته الحقة فى أن يعتقد أن وراء هذه الحياة حياة أبدية ، يتسلط عليها إله عادل . . من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

هــذه هى الطبيعة الإنسانية التى خلقنا عليها ، وأى تنح عنها يفسدها . وقد علمتنا الحياة أن الخروج على الطبيعة الإنسانية ولو قيــد شعرة ، مدعاة للحيرة والاضطراب .

و بعد ، فإن الدين يجعلنى أنا والإله على متاعب الحياة ، والإلحاد يجعلنى أنا وحدى ضد الله ، وضد متاعب الحياة . وشتان ما بين الوضعين .

الحرية الدينية والاجتماعية

بين جمال الدين الأفغانى وقاسم أمين

أما حرية جمال الدين ، فكانت حرية عقل ، وحرية سياسية ولغوية .

كان يرى أن أولى الأمور بالتحرير ، تحرير العقل من الخرافات والأوهام ، بل كان يرى أننا ما لم نحرر العقل ، فالمجالس النيابية عمل ضائع ، ومجهود فاشل .

فقيمة المجالس النيابية برجالها . ويقول : « هبوا أن مجلساً نيابياً أنشىء من قوم جامدين فستجدون أن حزب الشمال لا أثر له ، وسيفر الأعضاء كلهم إلى حزب اليمين « المناصر للحكومة » . وسيكونون كلهم آلة صماء . وسيرى كل عضو أن مناقشة الحاكم الحساب قلة أدب وسوء تدبير وتهور لا محل له ، لذلك يجب تحرير العقول والنفوس قبل إنشاء المجالس ، ولذلك كانت أكثر دروسه وأحاديثه فى المجالس دعوة إلى تحرير العقول .

وأما حريته الدينية فتظهر فى أنه لم يفهم من الحرام ما فهمه الناس فقط ، من ترك الصلاة ، وأكل الربا ومال اليتيم ، ولحم الخنزير ، بل رأى الحرام أكبر من ذلك ، وأن هناك أيضاً أشياء تحرم لأنها تضر الوطن ، فعدم الجهاد لتحرير البلاد ، والاستكانة للأجنبى المحتل ، والشح بالمال عما ينفع الوطن ، والرضاء بحكم الحاكم الظالم ، وعدم الثورة عليه ، كل ذلك أيضاً حرام ديناً ، كحرمة أكل الربا ومال اليتيم . ولذلك هب فى الناس يدعوهم إلى الثورة على الظلم ، وخطب فيهم يقول : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتحتملون وطأة الغزاة الظالمين . تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون ، بل راضون . وتستنزف قوام حياتكم الذى يجمع من عرق جبينكم

بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم صامتون . فهل أنتم صخرة ملقاة فى الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت ؟ » .

بل من أجل ذلك انتسب إلى حزب الماسونية لأنه يدعو إلى الحرية والإخاء والمساواة ، فلما دخل فيه رآه يحرم الكلام فى السياسة ، فقال لهم : « أول ما شوقنى للعمل معكم عنوان كبير خطير ، حرية و إخاء ومساواة . و إعلان أن غرض الماسونية منفعة الإنسان وسعى لدك صروح الظلم وتشييد معالم العقل ، ولكن راعنى أنها تقول إنها لا تتدخل فى السياسة ، و إذا كانت — و بين أعضائها كل بناء حر — لا تستعمل آلاتها فى هدم القديم و بناء الجديد على أساس من الحرية الصحيحة ، فلا كانت الماسونية ، ولا حملت يد الأحرار مطرقة ، ولا قاموا ببناء » .

ومن أجل ذلك استقال من هذه الجمعية ، وأسس جمعية ماسونية جديدة على مبادئه . ومن أجمل ما صنع أن خصص جماعة لكل مرفق من مرافق الحياة العامة ، فقوم يشرفون على الحقانية ، وقوم على المالية ، وقوم على الأشغال العمومية ، وقوم على الجهادية ، الخ .

وكان كل قوم مخصصين لمرفق من المرافق عليهم أن يدرسوه ، و يعرفوا نقائصه ، و يطالبوا بإصلاحه حسبما يتبين لهم من دراستهم .

ورأى أنه لا بد أن يدعم كل ذلك برأى عام متنور ، وأنه إذا تم ذلك من تكون دارسين للمسائل ، ورأى عام يسندهم أمكن المجلس النيابى حينئذ أن يتكون ، وأن يكون له صوت مسموع . وكان محتوياً على أعضاء اليمين وأعضاء اليسار ، وأمكن أن يفهم أن له حقاً فى الرأى وحقاً فى الحكم وحقاً فى التنفيذ . ومن غير ذلك ، يكون مجلس النواب لا قيمة له . . ضعيف اليقظة ، قليل الشجاعة .

* * *

وكان يرى — رحمه الله — أن الدين لا قيمة له إلا إذا علم أتباعه ثلاثة

خصال : « الحياء ، والأمانة ، والصدق » وأن هذه الأسس هى علة العمران ، وعليها تتوقف سعادة الإنسان .

وكان يرى أن واجبه أن يشيع بين المصريين الأمل فى النجاح ، وأن يزيل ما حل بهم من اليأس ، وأن يكونوا على استعداد دائم لصد من هاجمهم ، وطرد من احتلهم أو استعمرهم ، فلا حياة مع الذل ، ولا سعادة مع اليأس .

وكان يرى أن موقف المسلمين من حيث اللغة يجب أن يكون حراً أيضاً ، فكان يرى أنه إذا جاز للبدوى العربى أن يخلق كلمات ، وأن يحور كلمات ، فلماذا لا يجوز له هو ذلك ، وهو متعلم أكثر من البدو ، ومتحضر لا كالبدو . . ولذلك قال : « ما المانع من أن أقول بقروت ، كما قال العربى جبروت » . ومن كلماته البديعة قوله : « اللغة العربية وسعها البدو فى البرارى والقفار ، وضيقها الحضر فى المدن والأمصار » وقال له رجل — وجمال الدين ينطق بكلمة لم ترد على لسان العرب : « إن هذه الكلمة لم تسمع » فهز كتفه استهزاءً به .

* * *

وأما قاسم أمين فكانت حريته من نوع آخر : حرية اجتماعية لا سياسية ولا دينية . وذلك بفضل نوع تعليمه ، فقد تعلم فى مصر تعليما عصرياً ، وتعلم فى أوربا تعليما مدنياً ، والذى يعيش فى أوربا ولو زمناً قصيراً يدرك ما للمرأة فيها من أهمية . ويكاد يدرك أن لا فرق بين الشرق والغرب إلا المرأة . فالمرأة هى التى تربى أبناءها وبناتها وهى بهجة حياتهم ، وعماد شؤونهم كلها .

وليس هناك ما يمنع المرأة المصرية من أن تكون كالمرأة الأوربية . فهى جميلة ذكية مرحة خفيفة الروح ، ليس يصدها عن تبوء مكانتها إلا الجهل والحجاب ، وكلاهما يمكن التغلب عليه . فلأدع إلى السفور ، ولأدع إلى تعلم المرأة . فإذا نجحت فى الدعوة خطوت بمصر وبالعالم العربى خطوة كبيرة ، ليست قاصرة

على النساء ، بل هى للرجال أيضاً . فالرجل ابن المرأة . فدعا دعوته المشهورة فى كتابه المشهور « المرأة الجديدة » . وكم لاقى من عناء ، وكم سُب وكم أُهين ، وكم رد عليه الجامدون ردوداً شديدة . ولكنه تحمل كل ذلك فى ثبات ، حتى نجحت دعوته . وبدأ نجاحها فى حياته ، واستمر نجاحها بعد مماته . وسيتطور السفور من حسن إلى أحسن .

جزى الله جمال الدين الأفغانى وقاسم أمين عن النداء بالحرية بأنواعها أحسن الجزاء .

عيسى وعيسى

اشتدت الحروب بين الصليبيين والمسلمين : كل يريد الاستيلاء على بيت المقدس وما حوله ، وكلٌّ يدفعه الدين إلى ذلك . . . والحروب إذا انبعثت عن الدين كانت قوية قاسية ، لذلك أتى فيها الفريقان بالأعاجيب ، وهذه الحروب عادة تلد الأبطال ، ولذلك رأينا هذه الحروب تخرج أبطالا من الفريقين عرف بعضهم وغمر بعضهم . هاهو مثلا ملك الألمان يخرج من بلاده إلى بيت المقدس ومعه مائتا ألف مقاتل ومقاتلة ، وكعادة الألمان جهز هـذا الجيش بآلات الحرب التى لم يكن يعرفها المسلمون . . . هذه دبابات قوية لدك الأسوار والحصون ، لم تكن تسير بالبخار أو الكهرباء إذ لم يكن ذلك معروفا ، ولكن تسير بالجنود فى خارجها وداخلها . وهذه الأبراج العالية الضخمة المصفحة بالحديد تنصب عليها المجانيق لدك الحصون . وما إلى ذلك مما لم يكن للمسلمين به عهد .

فما أن يرى المسلمون هذه الآلات العتيدة حتى يفكروا فى إتلافها ، فيعد صلاح الدين بأن يكافىء من يقدر على إحراقها مكافأة حسنة . . فيتقدم شاب شامى من أهل دمشق ، فيدعى أنه اكتشف بعض العقاقير القادرة على إتلافها . فيصرف عن ذلك بحجة أن الإخصائيين لم يستطيعوا ذلك ، وهو ليس منهم . ولكنه يصر ويصر ، فيسمع لقوله ، فيحضر القدور بالعقاقير ويرمى قدرا على البرج الأول فإذا هو عمود من نار أتى عليه وعلى من فيه ، ثم يرمى بالقدر الثانى فيكون له هذا الأثر فى البرج الثانى . والثالث فى الثالث وهكذا . . . فكان اختراع البرج عظيما ، واختراع ما يتلفه عظيما . . .

كان من أثر هذه الحرب ظهور أبطال عظاء كهذا ، منهم العيسيان : فأما عيسى الأول فهو الفقيه عيسى الهكارى أكبر أمراء صلاح الدين . وكان من

أكبر من عمل فى إجلاسه على عرشه . ولذلك كانت له دالة كبيرة عليه ، يأمره وينهاه ، ويقضى حوائج الناس عنده فلا يرد له طلبا . وكان لكبر عقله بمنزلة المستشار المؤتمن لصلاح الدين ، يستشيره فى السلم والحرب والسراء والضراء . وقد جمع بين الفقه والكفاح فى الحرب .

قتل أخوه فى الحرب ، فذهب الناس يعزونه ، فنهرهم ولم يقبل عزاءهم . . وأبى إلا أن يهنئوه لموتته هذه الموتة السعيدة . ثم قتل هو أيضا فى حصار عكا ، بعد أن أبلى بلاء حسنا . وله آراء فى الفقه قيمة ، وآراء فى السياسة قيمة . و يترجم له فى طبقات الفقهاء وطبقات المجاهدين . فهو قرين أسامة ابن منقذ ، ومعاصره : عيسى فقيه فارس ، وأسامة أديب فارس .

* * *

أما عيسى الآخر ، فكان عواما ، واشتهر من أجل ذلك بـ « عيسى العوام »

لقد حوصرت عكا من الصليبيين حصارا شديدا حتى أكل أهلها الدواب ، وتدفأوا بحرق الموتى ، وعز الماء وعز اللباس . وصعب عليهم أن يستنجدوا بالمسلمين . وكل يوم تزيد أساطيل العدو وتحكم الحصار .

انتدب عيسى العوام نفسه لإخراج أهل عكا من هذا المأزق ، فرسم لنفسه خطة ماهرة . فأولا : ألف عمارة بحرية هو وأمثاله من العوامين ، وأمر البحارين أن يحلقوا لحاهم ويتشبهوا بالإفرنج فى ملابسهم ونوع ألويتهم ، حتى أن الفرنج لما شاهدوها لم يشكوا فى أن هذه العمارة صليبية . ثم استطاع أن ينفذ بأسطوله من بين العمارات الصليبية ، حتى أوصل ما فيه من مؤمن وذخائر إلى أهل عكا ، فأنقذهم من بأس شديد كانوا فيه . ثم استدار هو وأصحابه على المراكب الافرنجية يحرقونها بالنفط ، فنجحوا نجاحا باهرا .

وثانيا : كان غواصا ماهرا ، فهو يتخذ حزاما من الجلد لا ينفذ منه الماء و يحفظ فيه الكتب من صلاح الدين بالخطط الحربية التى يجب أن يسلكها العكاويون ،

والرسائل الهامة ، والدنانير الـكثيرة من الذهب . ويغوص بها تحت أساطيل العدو حتى يصل إلى ساحل عكا فيخرج . وكان إذا خرج أطلق حمامة زاجلة ، إذا رآها الناس علموا أنه قد حضر ، فيخرجون إليه لتلقى رسائلهم وذهبهم . وظل على ذلك مدة طويلة يؤدى أجل خدمة .

وأخيراً ترقب الناس عيسى فلم يحضر ، ونظروا إلى السماء ليروا الحمامة فلم يروها ، فلعبت بأنفسهم الظنون : هل قبض عليه وهو عائم ؟ أو طمع فيما معه من المال فهرب ؟ أو أدركه الأعداء فقتلوه ؟ وكانوا كل يوم يخرجون إلى الساحل ينتظرونه على غير جدوى . وفى اليوم السابع من غيابه خرجوا إلى البحر ينتظرونه كعادتهم ، فرأوا جثته يقذف بها البحر وعلى وسطه الرسائل والدنانير .

لقد كان أمينا فى حياته . . أمينا فى مماته !

والشهرة كالرزق لا حد لهما ولا قانون . توزع على الناس الشهرة كما توزع الأرزاق :

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصيّر العالم النحرير زنديقا

فكم غير عيسى وعيسى منح شهرة واسعة ورزقا واسعا . وعيسى وعيسى والفتى الدمشقى الذى أحرق الأبراج بمادته المخترعة مغمورون محرومون . وهكذا الدنيا : أذن ولا حلق ، وحلق ولا أذن ، ولله فى خلقه شؤون .

جزيرة بلا سياسيين !

كان الشيخ محمد عبده يقول : « لعن الله السياسة وساسَ و يسوس وسائس ومسوس ، وكل ما اشتق من السياسة ، فإنها ما دخلت شيئاً إلا أفسدته » ..

كل شيء فى العالم يتغير حتى الأهرام ، عريت بعد أن كانت مكسوة ، وحتى « أبو الهول » كسرت الأيام أنفه وعلته الرمال ، إلا السياسة الاستعمارية فإنها لم تتغير بوجه من الوجوه ، وعقلية الساسة فى القرن الثامن عشر هى عقليتهم فى القرن العشرين ، يظنون أن التهديد والوعيد يرهب الأمم و يقضى عليها و ينفذ رغبة المستعمرين . . و بعد ضرب الإسكندرية بسبعين عاما ظلوا يفهمون أن ضرب الإسماعيلية أيضاً ينتج نفس النتيجة مع اختلاف المقدمات اختلافاً كبيراً . فقد كان الرعب يستولى على النفوس ، ولم يكن وعى قومى يفهم ألاعيب السياسة ولا شيء من ذلك ، ولكن عقلية الإنجليز فهمت أن ما جرب أمس ونجح يجرب اليوم وينجح ، أما الفوارق الكبيرة وخصوصاً الفوارق النفسية فقد أغمضوا أعينهم عنها .

كم أود أن أعيش فى جزيرة مطمئنة هادئة ليس فيها ساسة ، ولكن مع الأسف لايمكن أن يعيش الإنسان من غير حكومة ومن غير ساسة يسوسون الناس ، فكل مجتمع لابد فيه من مجرمين وأشرار وطامعين ونهابين . فما لم تأخذ الحكومة على يدهم عاثوا فى الأرض فسادا ، فلا يمكن لجزيرة أن تعيش من غير حكومة ، وكل كتاب اليوتوبيا أو بعبارة أخرى المدن الفاضلة ، وأفلاطون نفسه فى جمهوريته لم يخلوا بلادهم التى عدوها مثلا أعلى من ساسة ومن حكومة .

غاية الأمر أنهم أملوا أن تكون الحكومة فيها حكومة عادلة ، حكومة ترعى الأمة ولا تستبد بها ، وتأخذ بيدها ولا تمحقها ، حكومة متسعة العقل مرنة

تتطور مع الأحداث وتعلم أن ما صلح أمس لا يصلح اليوم لا كساسة الإنجليز والفرنسيين لا يتحولون عما فى أذهانهم مهما تغيرت الظروف .

ومن أجل ذلك تمنى أفلاطون وأرسطو أن يحكم الأمم فلاسفتها ، فهم أطيب نفساً وأبعد نظراً ، ووجدت الآن حركة ترمى إلى طلب حكومة الفلاسفة ، ولكن مع الأسف قد جربت حكومة الفلاسفة فلم تنجح كثيراً لأن الفيلسوف فى العادة واسع النظر ، شكاك بحكم فلسفته ، وقد دلتنا الخبرة على أن بعيد النظر ضعيف الإرادة ، وأن الشكاك عديم الحزم ، فلو حكمت الأمم بالفلاسفة دلهم بعد نظرهم على الرحمة بالمجرمين ، واعتقدوا أن إجرامهم نتيجة لبيئتهم ، وقادهم شكهم إلى التردد فى الحكم وعدم التصميم على العقوبة ، فكانت الفوضى التى لا نرى مثلها فى الساسة غير الفلاسفة . إنما نريد حكاماً لم تخربهم الفلسفة ولا أقعدتهم الصلابة ، تنزهوا عن سعة عقل الفلاسفة فقويت إرادتهم و بعدوا عن الشك فصحت عزيمتهم ، وتنزهوا عن ضيق عقل ساسة اليوم فرأوا نتائج الغد على غير ما يرى ساسة اليوم ، ولم يشكوا فعظم تصميمهم وكافأوا المجرم على إجرامه والمحسن على إحسانه . نريد ساسة يعلمون أن لكل زمان حكما ولكل تطور علاجا . وقد قرأت أخيراً كتابا يدعو إلى علاج الأمور التى تحدث علاجا مؤسساً على العلم والدرس لا على البديهة ولا على التقاليد القديمة .

ويحكى هذا الكتاب أن إضراباً حصل فى أمريكا بين صانعى الأحذية مع أن كل المظاهر تدل على أن لا وجه للإضراب ، فأجور العمال معتدلة وساعات العمل قليلة ، والعمال فى رخاء ، وعندهم من أوقات الفراغ ما يكفى لمتعتهم ورفاهيتهم ، فانتدب جماعة من العلماء القائلين بهذه النظرية للبحث فى السبب العميق لهذا الإضراب فانتهوا إلى أن يبحثوا صناعة الأحذية من أساسها ليعرفوا ما الذى سبب الإضراب . فرأوا أن صانع الأحذية فى القديم كان يمر على الناس فى بيوتهم فيضيفونه أياماً ليست بالقليلة و يكرمونه إكراماً زائداً ثم يطلبون منه ما يشاءون من الأحذية فكان فخوراً بذلك ، ثم تطور الأمر ففتح صاحب هذه الصناعة دكاناً ، وكان

يصنع أحذية الناس بيده و بعماله ، ثم كان يفخر أيضاً بالحذاء الذى يصنعه . و بعد مرور أدوار طويلة حكاها المؤلف اخترعت الآلات التى تصنع الأحذية ، فلم يبق للعامل شىء من فخره فساءت نفسيته وتألم من انحطاطه ، فكان هذا هو السبب الحقيقى للإضراب .

* * *

نتمنى أن يتعلم الساسة من هذا الدرس ، فإذا نفرت أمة من الاستعمار فلا يمكن أن يفرض عليها بالإكراه . وهذا ما يقوله البحث العلمى ، فالطفل إذا شب لم تعد تصلح له ثياب الطفولة ، والأمة إذا وعت لم تعد تطيق الأساليب العتيقة التى كانت تتحملها من قبل ، وخير للأمة المستعمرة أن تجرى مع التيار من أن تقف ضده وأن تمرن طائعة من أن تتحول كارهة .

تريد فرنسا أن تستعين على استعمارها بلاد المغرب بالإنجليز المستعمرين لمصر ، لأن الاستعمار فى الأمم كلها نظام واحد ، كالعقد إذا انفرطت منه حبة تداعت سائر الحبوب . ومهما كان هذا التعاون فلن يفيد شيئاً فى الموقف الحاضر مهما سلحت الأمم المستعمرة بالطيارات والدبابات والمدافع الثقيلة والخفيفة ، لأن هذه الآلات كلها إن أخمدت الأجسام فلن تخمد النفوس .

يقلد الإنجليز مثلا فى الاستعمار أمة الرومان فى استعمارها القديم ، ولكن يواجه ذلك أيضاً أن الأمم المغلوبة على أمرها تسلك نفس السبيل الذى سلكته الأمم التى نالت استقلالها ، فهى تضحى كما ضحت ، وتبذل الأموال كما بذلت ، وتستهين بكل ما تبذل فى سبيل حريتها .

« لا .. لا أريد جزيرة بلاساسة ، بل لا أريد جزيرة حكامها عقلاء مدربون ، فإن هذه عيشة رخيصة لا يرضاها إلا الخاملون ، إنما أريد أمة يحكمها الساسة المستبدون فأحاربهم ويحاربوننى وأقاتلهم ويقاتلوننى ، وأنتصر عليهم وينتصرون على ، وأبذل ما فى وسعى من التضحية فإن مت مت موتة كريمة ، وإن ظفرت عشت عيشة كريمة . »

الشيطان رجل الساعة

بني العالم على أساس أن الخير فيه ممزوج بالشر مزجا تاما ، فلا تكاد تجد خيراً محضاً ولا شراً محضاً . . فالنار التي تنضج تحرق ، والماء الذى يروى يغرق ، والسكين التي تقطع تذبح ، وهكذا . وكل شيء فى العالم فيه خير وشر ، حتى الجمادات . . فالزهر الناضر والربيع المنعش والشمس المدفئة والنجوم الزاهرة كلها خير ، ولكن بجانبها الصواعق والزلازل والبراكين ونحو ذلك . فإذا انتقلنا إلى النبات ، وجدنا الدواء النافع والسم الناقع . وفى الحيوانات الحمل الوديع والأسد الضارى . فإذا وصلنا إلى الإنسان كان ذلك أوضح ، فالشرير والمجرم والشهوانى بجانبه الراهب والولى والقديس ، ولكن الرجل الصالح فى العالم كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، حتى لا يستطيع الرجل الطيب مهما بلغت طيبته أن يعيش هادئا مطمئنا . ألا ترى إلى غاندى كيف زهد فى أعراض الدنيا ، وقنع من الحياة بكوب من الماء وكوب من اللبن ، وعمل لمصلحة بلاده حتى أوصلها إلى الاستقلال وعمل عملا صالحاً فى الدعوة إلى العطف على المنبوذين والمسلمين . . ماذا كان جزاؤه ؟ كان جزاؤه القتل من يد شيطان رجيم ، ولم ينفعه فى الحياة كل ما قدم من خير .

ولما سمع برنارد شو بقتله قال : « إنى كنت أقول دائماً أن الرجل الطيب عرضة للشر فى هذا العالم . وهذ دليل جديد » .

وانظر من جهة أخرى كيف أن الإنسان لم تكفه آلات الشر التى اخترعها فى الحروب لسفك الدماء وتخريب المدن من غواصات ودبابات ، حتى اخترع أخيراً القنبلة الذرية التى لا تأتى على شيء إلا جعلته كالرميم ، ولا يدرى إلا الله ماذا سيكون من اختراعات لم تخطر بعد على بال . وبجانب ذلك كله رأسمالية تمتص

الفقراء ، وأقوال معسولة لا شيء وراءها إلا الشر ، وسياسة تحتوى أنواعا عديدة من الفساد . حتى العلم حوله الإنسان من خير إلى شر ، فسخرته الحكومات لاختراع آلات الهلاك ، وسخر الساسة التاريخ لخدمة الأغراض حتى قلبوا الحقائق وجعلوها محشوة بالأباطيل . . فإلى أى جهة ننظر نرى الشيطان باسطا جناحيه ، يغزو الخير دائما وينتصر عليه دائماً ، والناس عادة يقولون لابد من أن الحق ينتصر ، ولكن أين ذلك ، ونحن نرى دائماً الحق للقوة ، وقلما نرى خيراً فى القوة ؟ إن كان ذلك حقا فصبر طويل جميل حتى يخمد صوت الشيطان وتضعف سلطته ، وهيهات أن يكون ذلك .

* * *

إن فى استطاعة الإنسان أن يحول كل خير إلى شر ، فهو يحول السكين إلى قتل ، والقلم إلى سب وهجو ، والنار إلى تدمير ، والدين إلى تدجيل . وأى شىء فى الوجود لم يفسده الإنسان ؟ وآية ذلك أنك لا تستطيع إن سألتك أن تدلنى فى العالم على خير محض . بل كان من شرور العالم أنه فى كثير من الأحوال لا ينال الإنسان الخير إلا بالشر ، كالذى قال معاوية : « إنا لا نستطيع الوصول إلى الحق إلا بالخوض فى كثير من الباطل » .

ألا ترانا فى هذه الأيام لا نستطيع الحصول على حريتنا إلا بضحايا كثيرة : من سفك دماء وتخريب وضياع أنفس وأموال ، واستمرار فى ذلك عهداً طويلا وأمداً بعيداً ؟ وحتى الظالم الذى يظلم ، والمستبد الذى لا يرحم ، والمستعمر الظالم لا يتأتى له الوصول إلى غرضه إلا بقتل وتخريب وتعذيب ، فهو أيضاً عرضة للقتل كالذى يدافع عن حريته . ونتيجة ذلك أن المطالب بحريته — وهى خير — لابد له من شر ، والكابت للحرية — والكبت شر — لابد أن يكبتها بالشر ، فالشر لابد منه فى الحالين .

والإنسان دائماً تتعارك فى نفسه دواعى الخير ودواعى الشر سواء كان خيّراً

أو شريراً . . غاية الأمر أن الرجل الخيّر من أجاب دواعى الخير أكثر مما يجيب دواعى الشر ، والرجل الشرير من أجاب دواعى الشر أكثر مما يجيب دواعى الخير ، فليس الإنسان ملَكا كريماً ولا شيطانا رجيما ، بل أحياناً يتصف بصفات الملائكة وأحياناً يتصف بصفات الشياطين ، ودواعى الشر هذه هى نوع مما اصطلح الناس على تسميتها بالشياطين ، وهى أكثر أنواع الشياطين تلعب على الإنسان فى كل حين وتضل العابد وتذل الراهب .

وعمل الأنبياء والمصلين دائماً أن يقوّوا فى الإنسان دوافع الخير ويضعفوا فيه دوافع الشر .

* * *

وكما فى الجن شياطين ففى الإنس شياطين ، وعلى رأس هؤلاء الشياطين رجال السياسة فى الأمم المستعمرة ... فقد لبستهم شياطين الجن ، فكانوا إنساً فى الظاهر شياطين فى الباطن ، وبذلك كانوا أسوأ من شياطين الجن ، لا بأس عندهم أن يسخروا أفراد أمتهم للعسف والقتل ويزهقوا أرواحهم فى التنكيل بالأمم الأخرى ، وهم متربعون على كراسيهم غارقون فى ترفهم ومتعهم . . فحفنة قليلة من قادة الساسة تلعب بملايين البشر وتضحك على عقولهم بالنياشين والرتب والألقاب ، وأحياناً بما يسمونه الوطنية ، وقد قدروا بذلك على التنكيل بالناس أكثر مما قدر شياطين الجن ، والناس بعدُ لم يفهموا أن قادتهم السياسيين يضلونهم ويسمّمونهم بالأفكار ، ولو عقلوا لالتفتوا إليهم قبل أن يتجهوا إلى الأمم المستعمرة ، فينكلوا بهم ويطيحوا برؤوسهم ويستريحوا منهم . ونحن إلى الآن سننتظر أن يحل محلهم ساسة تتقمصهم الملائكة فيدعون إلى الإنسانية لا إلى الوطنية ، ويستخدمون الذرة فى العمران لا فى التخريب ، ولكن مع الأسف قد يطول انتظارنا طويلا وطويلا جداً .

* * *

وليس عصرنا هذا ببدع ، فالعالم دائما تتنازعه هاتان القوتان وتغلب فيه قوة الشر . وقد كتب بديع الزمان الهمذانى رسالة لطيفة أبان فيها أن الناس من عهد آدم كانوا أشراراً حتى نسبوا إليه أنه قال :

تغـيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

و بعد ذلك قال الشاعر :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم و بقيت فى خلف كجلد الأجرب

ويوم فتح مكة ، قالت امرأة لأخرى : « اسكتى يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة » . ولا زال يتتبع حوادث الشر فى العالم جيلا بعد جيل بأسلوب جميل . ولو عاش فى عصرنا لتمثل بشرور الحرب العالمية الأولى والثانية ، ولتمثل بقتل الناس لرجل كبير داع إلى الخير واقف فى وجه الشر محرر للبلاد من الأعداء . . ولعجب أن يقتل مثل هـذا وينعم داعى الشر محب الفساد ناشر الضلالة فى العباد ، ثم ختم رسالته البديعة بقوله : « والله ما فسد الناس ، ولـكن اطرد القياس » .

* * *

كم أتمنى أن يبعث إلى الأرض سليمان من جديد فيحبس الشياطين فى القماقم ، و يسخرهم فى الأعمال الشاقة ، ويطلق الملائـكة من عقالها فتسرح فى الأرض وتمرح ، وتميت دوافع الشر وتحيي دوافع الخير ، وتهدم الاستعمار من أساسه ، وتقضى على الرأسمالية ومفاسدها وتدعو دعوات جديدة ليست بهـذه ولا بتلك .

إن الناس المتفائلين قد أملوا ذلك ورجوا أن يأتى يوم يغلب فيه الخيرُ الشر ، ولـكن هل يتحقق أملهم ، ويسود ظنهم إن قريباً و إن بعيداً ، أو سيكون الأمر كما قال بديع الزمان ، فيستمر فساد الناس و يطرد القياس ؟ علم ذلك عند الله . . !

الجاحظ البطل

اعتاد الكتاب أن يعدوا نابغة السياسة بطلا ، والقائد الحربى العظيم بطلا — كما فعل « كارليل » » فى كتابه « الأبطال » — ولم يعدوا النابغة فى الثقافة والتفكير بطلا ، فها نحن نكمل نقصهم فنعد ناشر الثقافة العظيم بطلا . وقد كان الجاحظ فى رأينا بطلا حقاً لا يقل شأناً عن القواد ، فلئن كان خالد بن الوليد فاتح ممالك وغازى أمم . . فقد كان الجاحظ غازى جهل وفاتح عقول . ا

لقد استطاع الجاحظ بقوة عقله أن ينقل الأدب العربى نقلة كبيرة من ناحيتين :

الأولى : أنه جعل للأدب موضوعا محدوداً ، فقد كان الأدب قبله عبارة عن جمل مرصوصة وضع بعضها بجانب بعض ، كالذى نراه فى كتاب أبى بكر إلى المهاجرين ، وكتاب عمر بن الخطاب فى القضاء إلى شريح ، وحتى كتابة ابن المقفع كانت عبارة عن جمل رصينة لم يربط أكثرها بفاء أو واو ، فأخذ الجاحظ يجعل كتابته ذات موضوع غير الجمل الحكيمة ، وأخذ يربط جمله بحروف العطف المختلفة ، ويسترسل فى الكلام استرسالا عجيباً ، ويولد المعانى ويستقصيها حتى يأتى على آخر معنى فيها .

والثانية : أنه استطاع أن يجعل من كل شى موضوعاً لأدبه . . فالحشائش ، والأشجار ، والحيوانات ، والمعلمون ، واللصوص ، والجوارى ، والنجار يستدعيه فى البيت ، والديك يصيح ، والطفل يناغى النور . . . كل هذه وأمثالها كتب فيها وجعلها موضوع أدبه ، فزاد العقل ثقافة من ثقافته ، ووسعه ، وفتح بابا أمام الأدباء يقلدونه فيه ، ولذلك قالوا : إن كتبه تغذى العقل أولا .

واستطاع ذلك لأنه بدأ فثقف نفسه ثقافة واسعة إلى آخر حد . . وما سمعنا

قبله أحداً يستأجر دكاكين الكتب و يسهر عليها حتى يلتهمها ، فى اللغة ، والشعر ، والنثر ، والفلسفة ، والدين ، وكل شىء إلا الرياضيات .

وكان الأديب قبل زمنه — كالمفضل الضبى — يقتصر على الشعر يرويه ، أو كالأصمعى ، يقتصر على اللغة يحفظها ويرويها ، وعلى القصص اللطيفة يمتع بها سمّاره .

أما هو . . فقد أخذ من كل شىء بطرف ، فكان دائرة معارف فى رجل ، تشمل دائرة معارفه الرجال ، والأدب والبلاغة ، وعلوم الدين ، والتاريخ ، والطبيعة ، والكيمياء ، والفلسفة، والدين ، والاجتماع، والحيوان، والنبات، والفن، والفكاهة . حصل ذلك كله أولا لنفسه ونشره ثانياً فى الأقطار المختلفة ، وظل ينشره قرابة قرن كامل . ولا تنقص معلوماته أن تكون « دائرة معارف » إلا ترتيبها على حروف الأبجدية .

***

ولم يكتف بالكتب ، بل كان يذهب إلى « المربد » بجانبه يأخذ اللغة والأدب بالمشافهة عن أهله ، و يذهب سَحَرا إلى علماء الحديث يأخذ عنهم ، وفاق غيره فى شىء عزيز ، وهو تثقفه عن طريق الشك والتجربة ، فكان له منهما ما فخر بهما « بيكون » وأمثاله . فكان إذا رأى شيئاً فى النبات أو الحيوان أو غيرهما حكاه أرسطو أو غيره فى كتبهم ، لم يصدقهم تقليدا ولكنه جرب ، و بعد التجربة صدقهم أو كذبهم . فإذا قالوا إن الثعبان يفر من رائحة السداب ، أتى بالثعبان والسداب ، وجرب . . هل يألف الثعبان أو يفر منه ؟ فلما رآه لا يفر كذّب قائل هذا القول .

والحق أن كل شىء وقع تحت حسه أو تحت تفكيره كان موضع تجربته . وقد رزق دقة ملاحظة فى طبائع الأشياء وفى نفوس الناس وفى طبيعة المجتمعات ، فاستخرج من ذلك أدبا . على حين أننا نجد علماء عصره — كابن قتيبة —

لم يمنحوا هذه الملكة فلم يجربوا تجربته ولم يستفيدوا استفادته . يسمع الديك يصيح فلا يلبث عقله أن يصيح كذلك ويتساءل : هل يصيح الديك بالتجارب أو بطبيعته ؟ . . وبناء على ذلك ، هل إذا وجد منفردا يصيح ؟ ويبحث . هل هنالك علاقة بين كثرة الدجاج وكثرة أفراخها ، فإذا قلت قلت ؟

ويتساءل عن النبات الذى نسميه نحن بالمنثور .. لماذا ينضم ورقه بالليل وينتشر بالنهار ؟ ويضع فى برنية كبيرة من زجاج عشرين عقربا وعشرين فأرا ، ويراقب نتيجة لسع العقارب للفيران .

ويعلل مناغاة الطفل للنور بأنه يهيج همته ويترك فى نفسه أثرا كريما ، ويفتق لهاته ويشد لسانه . ويعجب من أن بعض الناس إذا رأى حيوانا قبيحا — كالكلب أو الذئب — يشرب الماء لا يشربه هو ، وإن كان عطشان ، لقبح مشربه . وأما إذا رأى حماما يشرب دعاه ذلك إلى الشرب ولو كان ريان لجمال منظره .

وليست معرفته بالحياة الاجتماعية بأقل من معرفته بالحياة النفسية والعقلية . . فقد وصف وصفا بديعا نوادى القمار وعمل الخاطبات فى البيوت ، وحياة الفتيان ، وطمع التجار ، وطائفة المعلمين ، وجوقة المغنين وما إلى ذلك .

وساعده على ذلك اتصاله بالناس على اختلاف طبقاتهم . . من الخليفة إلى الباعة المتجولين . فقد استكتبه الخليفة فى ديوان الرسائل فخالط الكتاب . وكان نديم ابن الزيات الوزير المشهور فعرف مجتمعات الوزراء ، ويشهد العداء الحار بين ابن الزيات وابن أبى دؤاد ، فيعرف عداوة الارستقراطيين ، وينادم الفتح ابن خاقان الوزير العظيم ، وينادى فى بيته النجارين والحواة ويسامرهم ويعرف أخبارهم . وكان هو نفسه يبيع الخبز والسمك فى طبلية على رأسه ، فكان له من ذلك كله معرفة بالطبقات على اختلاف أنواعها . .

ويزيد إلى ذلك خبرة برحلاته . . فيرحل من بغداد إلى دمشق ، ومن دمشق إلى حمص . ويدرس بعقله الفاحص كل بلد رحل إليه حتى ليعرف الفرق بين براغيث حمص وبراغيث العراق ! ويتساءل : لماذا لم يجد فى حمص عقارب ؟ ويقولون إن بحمص طلسما يمنع العقارب فلا يرضيه هذا التعليل ، وإنما عنده أن العلة الصحية أن جو حمص لا تناسبه العقارب ، أو أن بها حيوانات تأكلها فهى تهرب منها . . هذا هو المعقول .

* * *

ومن أجل ثقافته الواسعة وعقله الواسع كان يقارن فى الموضوع الواحد بين البدوى الجاهلى فى شعره وبين أرسطو الفيلسوف العظيم . ولا يقر بعظمة لأحد تشل عقله ، فقد يفضل قول البدوى الجاهلى على أرسطو الفيلسوف اليونانى . ولئن كان بعض الناس يختزن ما شاء الله أن يختزن ، ثم لا ينتفع بما اختزن ، فالجاحظ عرف كيف يختزن وعرف كيف يعرض ما اختزن كالتاجر الأفرنجى الماهر اليوم : يعرف كيف يشترى السلع وكيف يعرضها فى وجهة دكانه ويشوق إليها زبائنه . فهو نابغة فى الجمع ، نابغة فى الإنفاق .

ثم هو فى عرضه لا يتكلف الغريب ولا يأتى بعميات ، إنما هو واضح سهل بسيط خفيف الروح ممتع ، استقى معلوماته من العرب والفرس واليونان ، ثم مزجها كلها مزجا عجيباً ، ثم هضمها ثم أخرجها فى شكل جذاب . وأكثر فى ذلك حتى عدله ياقوت نحواً من مائة وسبعة وعشرين كتابا فى الموضوعات المختلفة : فى التاريخ ككتابه فى الامامة ، وفى الكلام كالرد على المخالفين كالنصارى واليهود ، وفى الأخلاق كالحاسد والمحسود ، وفى البلاغة كالبيان والتبيين ، وفى الاقتصاد كتحصيل الأموال ، وفى النفس ككتابه فى نظرية المعرفة ، وفى الصناعة كغش الصناعات ،

وفى الجغرافيا ككتابه البلدان ، وحتى فى الطب ، فلا يعجبه الأطباء ، فيؤلف كتابا فى نقض الطب .

* * *

ألا ترى معى أنه بذلك يعد بطلا من أكبر الأبطال ؟ أليس ظلماً أن يعد من يميت النفوس ويزهق الأرواح ويخرب البلاد بطلا ، وأن نقدر بطولته كلما أمعن فى القتل والسلب والنهب والتخريب ، ثم لا نعد بطلا من أحيي النفوس الميتة بدل أن يميت النفوس الحيـة ، ويغذى العقول بدل إتلافها ؟ ما أظلم الناس للناس ! !

يضحك ناس ... ويبكى آخرون

خلق الله هذا العالم ومزج فيه الخير والشر مزجاً غريباً ، حتى لا تكاد تجد خيراً محضا ، ولا شرا محضا ، على أن الخير والشر أمور اعتبارية ، أى أنها خير باعتبار من استفاد منها ، وشر باعتبار من تأذى بها ، فلو أن جرف جبل سحيق انهار فلم يتضرر به أحد ، ولم ينتفع به أحد ، لا حالا ولا مستقبلا ، ما كان خيراً ولا شرا . إنما هو خير أو شر اعتبارى . ولذلك قد يكون الشىء خيراً لبعض الناس ، شراً لآخرين ، وقديماً قالوا : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وفى الناس خير وشر . . فمحسن كريم ، ومجرم كبير . بل فى الطبيعة نفسها خير وشر ، فسماء تبكى وتدمع ، وشمس تشرق وتسطع ، وشتاء مجدب ، وربيع مخصب .

ونفوس الناس ترى الشر فتنقبض ، وترى الخير فتنبسط ، هذه طبيعتها ، وهذا ديدنها . غاية الأمر أن بعض النفوس يبالغ فى رؤية الخير فيكثر فرحه . ويقل ترحه ، ونسمى مثل هذا متفائلا . وآخرون على العكس من ذلك يبالغون فى رؤية ما يحزن والإحساس به ، ويستقلون دائماً ما يفرح . ويقتصدون فى السرور به ، ونسمى مثل هذا متشائما . وقد يحدث أن شيئا واحدا يقع أمام اثنين فيضحك منه أحدهما ، ويبكى منه الآخر تبعاً لطبيعته . وقد قرأت فى ذلك حكاية فرنسية لطيفة ، وهى أن دلوين ركبا فى بكرة على بئر ، فكان الرجل الذى يملأ يشد الحبل لينزل الدلو الفارغ إلى البئر ليمتلئ ، ويطلع الدلو الممتلئ ليصبه . قال الراوى : « فتقابل الدلوان فى منتصف الطريق : هذا ممتلئ وهذا فارغ . قال الفارغ للممتلئ : لم تبكى ؟ . . (لأنه وقد امتلأ تنزل منه قطرات أشبه بالدموع) قال : ولماذا لا أبكى ، وقد ملئت ماء صافياً ، وسيفرغنى صاحبى إذا طلعت ، ثم

يعيدنى إلى قاع البئر المظلم . وأنت لم ترقص ؟ (لأن الدلو الفارغ يتلاعب وقت النزول لعباً يشبه الرقص) قال : ولم لا أرقص ، وسأنزل فى البئر فأمتلئ ماء صافياً ثم أطلع إلى صاحبى فى الهواء الطلق ؟ » .

تلك عملية واحدة أداها أحد الدلوين ففرح ، وأدها الدلو الآخر فبكى ... وهكذا الناس ، تمر عليهم الحوادث ، فيحزن لها قوم حزناً شديدا ، ويفرح لها آخرون فرحاً شديدا .

ويروون أن فيلسوفين يونانيين — هما هيروقليطس وديموقريطس — كانا ينظران إلى سخافات الناس فيختلفان فى التأثر بها ، أحدهما يضحك لسخافتهم ، والأخر يبكى لها ، و بعبارة أخرى : أحدهما متفائل ، والآخر متشائم .

ولما ركب فى طبيعة الناس الأمل فى المستقبل وعماده التفاؤل ، والحذر وعماده التشاؤم ، اعتمد المربون والزعماء والمصلحون والأنبياء على هاتين الغريزتين فى الإنسان . أليس من دعامة الأديان الجنة والنار ؟ فالجنة تؤمل وتبعث التفاؤل ، والنار تحذر وتبعث التشاؤم .

ولو أن عامة الناس حرموا الأمل فى الجنة والخوف من النار ما استقامت أمور الدنيا . . بل لو لم تكن عقيدة الجنة والنار ، لحرم التاريخ من خير أمثلة المضحين الذين يضحون رغبة فى الجنة وهرباً من النار .

* * *

ومما نستغرب له أن أكثر الفلاسفة فى القديم والحديث متشائمون ، كشوبنهور ، وكارلايل ، ونيتشه ، وكذلك أكثر فلاسفة اليونان . وربما كان السبب فى ذلك أن الفلاسفة ممعنون فى قراءة نتائج الأشياء ، واسعو التفكير ، شديدو الإحساس ، فهم يرون أن فى العالم شرورا أكثر مما فيه من خيرات . فلذلك يحزنون و يتألمون وقد يبكون.وتسألنى : « ما رأيك فى عمر الخيام ، وهو لا يرى فى الدنيا إلا الخمر والنساء ؟ » ؛ فأقول : « لعله كان من أكبر المتشائمين ،

ولعله لم يلجئه إلى الخمر والنساء فى شعره ، إلا آلام نفسه من شرور العالم ، فلجأ إليهما لعلهما ينسيانه ما يحس من آلام . ولذلك لما أعيي بعضهم الأمر فى الدنيا الواقعية لجأوا إلى اليوتوبيا ، أو المدينة الفاضلة يؤلفون فيها ، ويرسمون فيها عالماً خيالياً خيراً من عالمهم الواقعى ، إذ لما بالغوا فى التشاؤم من العالم الواقعى هرعوا إلى عالم خيالى يجدون فيه تفاؤلهم » .

***

وقد نجحت الأديان أكثر مما نجحت الفلاسفة ، إذ عادلت بين طبيعة الإنسان فى الأمل ، وطبيعته فى الحذر ، فرغبت ورهبت ، ووعدت وأوعدت . على حين أن الفلاسفة غلبت جانب التشاؤم وأفرطت فى الحذر . . إن شئت فانظر إلى أبى العلاء المعرى . كيف تألم من كل شىء فى الدنيا ، ولم يعجبه شىء فيها ، وأخذ فى شعره يعدد مآسيها ، ويتمنى الموت والخروج منها ، فإن كانت الفلسفة متشائمة ، فالدين بطبعه عادة أقرب إلى التفاؤل . وربما كان من الأسباب الفارقة بين الفلسفة والدين أن الفلسفة تعتمد أكثر ما تعتمد على العقل ، والعقل جامد جاف ، والدين يعتمد على الشعور ، والشعور مرن ، قد يكون مرحا ، وقد يكون حزيناً . والدين متى صار شعوراً اطمأن صاحبه وهدأ ، والفلسفة إذا صارت عقلا حارت واضطربت .

ما أكثر ضحايا العقل ، وما أكبر نعمة الإيمان ! !

وبعد . . فالتشاؤم والتفاؤل فى الحياة مزاج . وأنت إذا نظرت إلى بعض الوجوه فوجدتها ضاحكة مستبشرة علمت أنها سعيدة متفائلة ، وإذا نظرت إلى وجوه عليها غبرة ترهقها قترة ، فهى الشقية المتشائمة . والتفاؤل فى الحياة من أكثر أسباب السعادة والنجاح ، والتشاؤم من أكبر أسباب الفشل والشقاء . والأمم كالأفراد ، تشقى بتشاؤمها ، وتنجح بتفاؤلها . فاللهم أجعلنا من المتفائلين المؤملين ، ولا تجعلنا من المتشائمين الطعانين الذين لا ترى عيونهم إلا العيوب ، ولا يؤمنون بأى خير أو إصلاح . .

ابن دانيال ومسرحياته

كثير من الناس يظن أن المصريين خاصة — والعالم العربى عامة — عالة على الأفرنج فى مسرحياتهم وتمثيلياتهم ، وأننا لم نعرف المسرحيات إلا بعد أن اقتبسناها منهم . وسبب هذا ، على ما يظهر ، أن رجال الأدب العربى حين عرضوا منتجاتهم ، اختصروا فيها على أبواب الأدب العربى المعروفة ، من غزل وهجاء ورثاء ، ولم يتعبوا أنفسهم فى البحث عن أبواب أخرى ، مع أن أمامهم المسرحيات العربية الصميمة . .

فقد كان عندهم خيال الظل أو ما يسمى « القره جوز » وكانت تمثل فيه الروايات الشعبية ؛ وكان لابد لخيال الظل هذا من أدباء يغذونه . وكان من أكبر من نعرف أنه غذاه ابن دانيال ، وهو من أصل موصلى . . ولكنه سكن القاهرة أيام الظاهر بيبرس ، وفتح دكانا بالقرب من باب الفتوح ، يكحل فيها الناس ، وكان يقول إننى آخذ القرش من عيون الناس . وقد ملأ القاهرة فكاهات رائعة وتمثيليات تمثل على خيال الظل . وتمتاز هذه الروايات بأنها تعطينا فكرة صحيحة عن الحالة الاجتماعية للشعب أيام الظاهر بيبرس . . ففيها عادة مهارشة الديوك ، و بعض حوادث العصر ، وشرح حوادث الغرام .

نعم ، إن خيال الظل هذا كان شعبياً لا يقبل عليه إلا أفراد الشعب . . ولكن كان من حين إلى حين ، يسمع الملوك والأغنياء عنه فيحضرونه ليمثل أمامهم . وقد روى أنه أحضر خيال الظل للسلطان سليم عند فتح مصر ومثل أمامه روايات سر بها . فأخذ فرقة منه إلى استنبول ، ليفرج عليه ابنه الذى كان يسمى فيما بعد السلطان سليمان .

ومن هنا ، انتشر خيال الظل فى استنبول وسماه الأتراك « قره جوز » ومعنى

« قره » اسود ، ومعنى « جوز » العين ، « فقره جوز » هى العين السوداء ، وممن أعجب به الخديو توفيق باشا ، فقد كان يحضره عنده ، و يشهد رواياته . ولذلك يخطئ مؤرخو المسرح إذا ظنوا أن المسرح العربى اقتبس من أوربا وحدها . بل أقدم من ذلك قرأت فيما قرأت أنه كان يوجد رجل فى العصر العباسى ، يمثل فيحضر رجلا يطلق عليه أبا بكر ، وآخر يطلق عليه عمر وهكذا ، ثم يستحضر كل رجل من هؤلاء الممثلين و يعدد له أعماله ، و يشكره على ما فعل من خير ، و يؤنبه على ما عمل من شر ، وهذا من غير شك بدء للتمثيل .

على كل حال كان ابن دانيال الحلقة الثانية أو الثالثة فى بناء التمثيل العربى ، وحبذا لو نما نموا مستمرا . . إذن لكان عندنا تمثيل ذو شخصية شرقية ، له طابع خاص غير الطابع الغربى .

و يظهر أن ابن دانيال ألف مسرحيات كثيرة بقى منها ثلاث : « خيال الظل ، وعجيب وغريب ، والمتيم » . وكان يسمى كل مسرحية بابة لا مسرحية . وقد ألفها باللغة العربية الفصحى ، نظما ونثراً ، حاكى فيها الحريرى فى مقدماته . وقد عثر عليها الأستاذ كالى وطبعها فى مصر ، وعلم أن هناك شخوصا وأدوات عند رجل بالمنزلة فسافر إليه واشتراها منه « ببنتو » ، وأخذها الأستاذ الألمانى جاكوب أو (يعقوب) وظل فى دراستها نحو عشرين عاما ، يشرح ألفاظها و يفسر ما تدل عليه من أحوال اجتماعية قاهرية ، ولما مات أوصى غيره بمداومة دراستها . .

فأما تمثيلية « خيال الظل » فتدور حول أمير يسمى الأمير وصال ، يفتخر على الناس بأعماله ، و يقول إنه يريد أن يتزوج ، و يعيش عيشة مستقيمة ، بعد ما كان فيه من فساد ، فطلب إلى الخاطبة أن تختار له امرأة يتزوجها . ووصف ما أراد ، و يتزوج ، ثم تمرض زوجته ، فيستدعى لها الطبيب ، و يعالجها ، فلا ينفع العلاج وتموت . وفى أثناء ذلك كله صور هزلية مضحكة كثيرة ، ووصف لحالات اجتماعية

مختلفة ، كوصف الخاطبة وأفانينها ، وما يجرى على لسانها من أقوال .

***

وأما « عجيب وغريب » فهى غير « عجيب غريب » التى يتداولها الناس .. ففيها صور كثيرة تمثل الحالة المصرية أصدق تمثيل ، وربما كانت خيراً من ألف كتاب فى التاريخ ، فإن كتب التاريخ تصور لنا أكثر ما تصور ، الملوك والسلاطين والحروب والوقائع ، وقل أن تصف لنا الشعب . ما هذه فتمثل الشعب ، ففيها نحو سبعة وعشرين شخصا ، منهم الشحاذ والحاوى والواعظ والمعاجينى والعشاب والمشعوذ والمنجم والسباع والفيال ومربو القطط والكلاب ، يقول فى أولها : « قد أحببت إمدادك أيها الأستاذ الظريف ، والماجن اللطيف ، بثانية ، لكيلا تظن همتى فى الأدب متوانية ، وأتيتك بغريب ، وألحقتك بعجيب » وهذه البابة (المسرحية) تتضمن أحوال الغرباء والمحتالين ، والمتكلمين بلغة الشيخ ساسان (الشحاذين) : فتى دعيت إلى مجلس الإيناس ، فأبدأ عند جلاء الستارة بمدح من حضر من الناس ، وغنى باتفاق ، فى عراق » .

ثم ينشد نشيداً يرحب فيه بالحضور ، ويخرج بعده شخصاً ويقول : « أين تلك الأيام وطيبها ، وحسن تلك الأوقات وأعاجيبها ، فرحم الله شيخنا ساسان ، فلقد كان إنسان عين كل إنسان ، قدوة الأدباء ، وأنيس الغرباء » . ويقول بعد ذلك قصيدة يصور فيها أخلاق الشحاذين ، فيقول :

أين زمانى الذى تقضى وأين جاهى وأين مالى
وأين خفى وطيلسانى وأين قيلى وأين قالى
وأين عيشى وأين طيشى وأين حسنى وحسن حالى
ونحن فى مجلس بديع جل عن الوصف والمثال
فالراح فى الراح ، والملاهى فى اللهو ، والنقل فى النقال
وبالملاهى بنا ضجيج وللرواويق والمقالى

فالدف دفدف ددف ددفدف والزمر تلتل تلل تلالى !

وهكذا يسوق صوراً مختلفة للجاليات الأجنبية ، وأصحاب المهن المختلفة ، أما « المتيم » فهى البابة (المسرحية) الثالثة ، يصف فيها الحب . . ولكنه ليس حباً عذريا كحب مجنون ليلى ، وكثير عزّة ، وجميل بثينة ، بل حباً ماديًا كحب أبى نواس ، وكذلك شعره ليس شعراً كشعر الغزليين ، بل شعراً يمثل حياة الحب والغناء والهزل فى مصر ، مثل :

أهل الغرام تجمعوا ... وتوسلوا وتضرعوا
موتوا تعيشوا فى الهوى ... وتمزقوا وتقطعوا
وخذوا حديث متيم ... عمن سواه أو دعوا !
لم يبق إلا أضلع ... من سقمه تتقطع
وادى العقيق بجفنة ... والدمع منه ينبع

ثم يقول :

« أواه أواه واحباه ، واقلباه ، المتيم مسكين ، ذبح بغير سكين ، من أرسل ناظره ، أتعب خاطره ، والعاشق كل شىء يذكره ، لمعان البرق يؤرقه ، وهبوب الريح يقلقه ، وإذا دنا الليل منه ، يهرب النوم عنه » .

وهكذا يستمر ، ثم يصور منظرا آخر ، فيه نقار الديكة ، وكيف كان يراهن عليها ، ثم تلقى خطبة فى تلك المهارشة . . ثم ينبرى المتيم مفاخراً بثوره ، فتحضر الثيران ، وتلقى خطبة فى مصارعة الثيران ، كتلك التى ألقيت فى مهارشة الديكة ، ولكن مع الأسف ، تدور الدائرة على المتيم ، فيهزم ثوره ويولى ، فيتألم المتيم ، وينشد نشيداً يتحدث فيه عن ذى القرنين وما جرى له ؛ وبعد أن يفرغ من كلامه ، ينادى : « يا ريس على ، إنى أريد أن أصنع من لحمه خوانًا

للاخوان » ، فيستدعى الجزار ، والكبابجى فتقام الوليمة ، ويؤتى بالخمر والبخور والعود والند ، و يموت المتيم متأثراً من حزنه ، فيغسل و يكفن و يدفن ، و بذلك تنتهى البابة « المسرحية » الثالثة .

* * *

و يظهر أن ابن دانيال كان يتعاطى المعجون ، كانت تعطيه له زوجته ، وقد ساعده ذلك على التنكيت والتبكيت ، وله فى ذلك قصيدة بديعة ، نذكر للقراء بعضها :

يقول فيها شاكياً للقاضى :

بك أشكو من زوجة صيرتنى ... غائباً بين سائر الحضّار
غيبتنى عنى بما أطعمتنى ... فأنا الدهر مفكر فى انتظار
غبت حتى لو أنهم صفعونى ... قلت: كفوا بالله عن صفع جارى!
فنهارى من البلادة ليل ... فى التساوى والليل مثل النهار
دار رأسى عن باب دارى فبالله ... اخبرونى سادتى أين دارى
غفر الله لى بما رحت للبحر ... من البرد أصطلى بالنار
وتجردت للسباحة فى الآل ... لظنى به الزلال الجارى
ولكم رمت قلع ضرس ضروب ... بعد ما ضر غاية الإضرار
فإذا بى قلعت بعد عنائى ... واجتهادى القوى من أوزارى

و يظهر أنه كان — مع فضله هذا وابتكاره فن المسرحيات الذى يدر على أصحابه اليوم مئات الألوف — بائساً فقيراً مسكيناً إذ يصف حالته فيقول :

أصبحت أفقر من يروح و يغتدى ... ما فى يدى من فاقة إلا يدى
فى منزل لم يحو غيرى قاعداً ... فإذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة ... ومخدة كانت لأم المهتدى
ملقى على طراحة فى حشوها ... قمل كمثل السمسم المتبدد

والفار يركض كالخيول تسابقت — من كل جرداء الأديم وأجرد
هذا ، ولى ثوب تراه مرقعاً — من كل لون مثل ريش الهدهد

ويقول :

قد عقلنا والعقل أى وثاق — وصبرنا والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلا كان مثلى — فاضلا عن قسمة الأرزاق

من هذا تراه قادراً على التصوير قدرة عجيبة فهو يصور متعاطى المنزول والمنزل البائس صورة بارعة .

ونستنتج من هذا نتيجتين كبيرتين : (الأولى) أن عندنا قديما من المسرحيات ، ما لو تعهدناه بالإنماء لكان لنا مسرح يمثل شخصيتنا ، ولا نكون فيه عالة على الغرب .

و (الثانية) عتاب مؤرخى الأدب العربى فى أنهم لم يدخلوا هذا الباب فى دراستهم مع إمتاعه ولذته .

الدنيا حر!

اشتدت عليّ وطأة الحر يوما من الأيام ، حتى لقد ظننت أن طاقة من طاقات جهنم قد فتحت على القاهرة ، فجعلتها أتونا . . وحاولت أن أعالج هذا الحر بمعالجات نفسية . فقلت : تخيل أنك فى الشتاء ، وأن الدنيا باردة جداً ، وتريد أن تتدثر ، لا أن تتخفف . فكثير من الأخيلة النفسية تؤثر فى النفس أثراً بليغاً . ألا ترى أنك تتخيل أكلة شهية فيسيل لعابك ، أو تتخيل ما يغضب فتغضب ، وما يفرح فتفرح . فتخيل الآن أنك فى جو بارد فتبرد . ولكن مع الأسف كانت حرارة الواقع أشد من برودة الخيال .

وأحضرت فى ذهنى الذين يحملون على رؤوسهم جنبات من الخضر والفاكهة ، وهم يسيرون من شارع إلى شارع ، ومن حارة إلى حارة فى الشمس اللافحة ، والهواء الساخن . وقلت لنفسى : إنك تلبس جلبابا فضفاضا ، عارى الرأس ، حافى القدمين ، بجانبك الماء المثلوج ، وأنواع المرطبات ، وعلى مقربة منك المروحة ، تروح فتصلح الجو ، فاحمد الله على هذه النعم ، وتحمّل هذا الحر الذى تخففه بما ذكرت ، ولكن لم ينجح أيضاً هذا العلاج . وحاولت أن يكون لى أطيان مزروعة قطناً أو فاكهة ، فإذا اشتد الحر فرحت . . لأنه إذا ضايقنى الحر ، اطمأننت من ناحية أخرى ، على محصول القطن ، ومحصول الفاكهة . فالحر الشديد يقتل الدود ، وينمى القطن ، وينضج الفاكهة . ولكن بحمد الله لم يكن لى شىء من ذلك ، فلم ينفع هذا علاجا .

* * *

وأخيراً حملت متاعى إلى الإسكندرية ، والجو يتوقد . وما أن وصلت إلى عربة التبريد ، حتى تشهدت ، وأحسست أننى فى لوح من الثلج وسط فرن .

وشاء الحظ أن يكون جو الإسكندرية أقل حرارة من جو القاهرة بنحو أربع عشرة درجة ، وقضيت أياما تنفست فيها الصعداء .

وكنت أظن أن من خلق فى جو مصر ، أقدر على تحمل حر مصر . . ولكنى رأيتنى لا أطيق بمقدار ما يطيقه الإفرنج ، كأنهم اختزنوا فى أبدانهم برودة من جوهم .

ومع أن الإسكندرية أعجبتنى فى اعتدال جوها ، فقد ضايقتنى برطوبتها ، وخصوصاً فى الليل . وتمنيت أن أكون غنياً جداً ، فأطير إلى الإسكندرية لأقضى فيها النهار ، ثم أطير إلى القاهرة لأقضى فيها الليل .

وربما كان مما يلطف الحر التفكير فى الحر ، فقد أنساه بالتفكير فيه . فبحثت عن تشبيه لطيف يشبه به الحر ، فقلت : إنهم يقولون : هذا الجو أحر من الرمضاء ، وأحر من دمع الصب ، وأحر من قلب العاشق ، ومن فؤاد الثاكل . . ثم لم تعجبنى هذه التشبيهات كلها ، لأنها صارت عتيقة بالية ، فأمعنت الخيال فى تشبيه جديد ، يتناسب وإشعاع القنبلة الذرية .

* * *

على كل حال استعنت على الحر بالتفكير فى الحر ، وكتابة مقال عنه . وقلت : إن خرج المقال جيداً ، فقد كسبت الجودة وثناء الناس عليه . وإن خرج بارداً فهو المطلوب . وعلى كل حال فقد كسبت . ورحم الله حافظ بك ابراهيم ، فقد دعى إلى مأدبة فى يوم حار ، فقال : « قد كان كل شىء فى المائدة بارداً إلا الماء » .

وقاتل الله المدنية الحديثة فقد رفهتنا فزادت فى ترفهنا ، هذا زر يضغط عليه ، فينار البيت أو الغرفة ، وهذه ثلاجة تمتعك بالماء البارد والشراب البارد . وهذه مروحة تلطف الجو ، وهذه دفاءة تسخنه ، وهذا تليفون يوصلك إلى من شئت ، وهذا راديو يسمعك ما شئت . . . وكل هذا الترف وإن سهل لنا العيش فقد أفقدنا

القدرة على المقاومة . وكأن الطبيعة أرادت فى إمعان تحقيق العدالة بين الأغنياء والفقراء . فملت الأولين من أتفه الأشياء ، وحصنت الآخرين من أصعب الأشياء ، فترى ثم نعيما وملكا كبيراً بجانبهما ضجر كبير ، وملل عسير . وترى ثم فقراً مدقعاً ، بجانبه الحصانة والصحة والقدرة على الاحتمال . حتى لقد يتمنى المترف الناعم الملول أن يعوضه الله فقراً وصحة وصبراً على الشدائد .

كذب الناس الذين يظنون أن السعادة والنعيم يعتمدان على الأشياء الخارجية فقط ، فكم من مال لا يفيد صاحبه ، وكم من متعة لا يلتفت إليها ذائقها . وإن السعادة لتعتمد على النفس أكثر مما تعتمد على الخارج . والنفس المطمئنة أهم أركان السعادة . . فامنحنيها أرضَ بكل شىء . !

ومن السخف أن يتجه الناس بكل قواهم إلى الأشياء الخارجية . . فمن قدر منهم اصطاف فى أوربا ، ومن لم يقدر اصطاف فى المصايف المصرية ولم يتجهوا أى اتجاه إلى نفوسهم ، يعودونها الصبر واحتمال الشدائد .

* * *

وما لى أفكر فى الحر تفكيراً فرديا ، ولا أفكر فيه تفكيراً اجتماعياً . أليس الحر هو الذى أنضج البقول ، وأنضج الثمار ، وأنضج القطن ، وهو أول محصول مصرى ، ولولاه لكسدت الحياة المصرية ، وغلبها البؤس والفقر . إنك لو فكرت فى القطن ، وجدته يغنى الأفراد ويغنى الحكومة ، وتستطيع معه أن تقيم المشاريع ، وتحسن الحالة الصحية ، وهو يؤثر فى الناس أثراً متسلسلا ، كما قال المتنبى :

والناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فيعتمد على القطن الفلاح فى حقله ، وصاحب الحقل فى قصره . ثم إذا هو جمع من قطنه مالا ، أنفقه على الصائغ والبناء والنجار . وهؤلاء ينفقون ما يكسبون منه على الباعة ورجال الأعمال ... ولولا هذا الحر ما كان هذا القطن .

ثم أليست شدة الحر والبرد هى التى ألجأت الناس إلى الكهوف والمغارات أولا ، ثم إلى الأكواخ ثانياً ، ثم إلى القصور الشامخات ثالثاً ، ثم جعلت الإنسان بعد ذلك يفكر فى أسباب الترف والنعيم ... فاخترع ما اخترع ، وابتكر ما ابتكر .

* * *

إنى أنصح مَن تململ من الحر ، وتضايق من الصيف أن يحب . فإنه إذا ذاق جوى الحب ونار الهجران ، واكتوى بالصد ، وتقلب على جنبيه من الفراق ، شعر بأن الحر مهما زاد ، فهو دون نار الحب بكثير . كما قال المتنبى :

ففى فؤاد المحب نار جوى   حر نار الجحيم أبردها

أحلام الشيوخ

لقد اعتدنا أن نسمع دائماً كلمة « أحلام الشباب » فأما « أحلام الشيوخ » فلم أسمعها حتى اقترحت علىّ مجلة الهلال أن أكتب فيها أحلام الشيوخ . ولئن كانت أحلام الشباب هى أحلام المستقبل فيحلم الشاب بمنصب وتكوين ثروة وتكوين عائلة وتكوين شهرة ونحو ذلك ، فإن الشيوخ تحلم بالماضى يذكرها ضعف الصحة بما كان لها من قوة الصحة ، وعجز العين بما كان لها من قوة النظر ، وعلى العموم يذكرها ضعف الشيخوخة بما كان لها من قوة الشباب .

وربما كان كل شاعر قد تقدمت به السن بكى شيبه وبكى على شبابه فى أبيات كثيرة ، وقد جمع الشريف المرتضى كتابا جمع فيه مستحسن الشعر فى الشيب والشباب وسماه « الشهاب فى الشيب والشباب » وأضاف إلى شعرهم ما استجاده من شعره . ومن أحسن ما اختاره قول الشاعر :

قد كنت أوفى شبابى كنه عزته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

وقول الآخر :

قد كنت أمشى ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشى

وقول المتنبى :

آلة العيش صحة وشباب فإذا وليّا عن المرء ولّى

وقد عبر هذا الشاعر عن أحسن أحلام الشيخوخة ، والشيوخ دائماً تحلم بالشباب وتذكر أيامه وأحداثه وكيف كانوا ينعمون بمباهج الحياة ، فلما انقضى الشباب ضاعت كل المباهج حتى إذا حدثت أو حدث أكثر منها لم يبتهجوا ابتهاجهم بها أيام الشباب ، فكأن الشباب ظرف لا بد منه للاستمتاع بلذة الحياة ، فقد كان الشباب خليقاً بأن يبتهج بكل شىء حتى بالتافه منه وحتى بالآلام ، إذا

وقع فى مشيته ضحك ، و إذا أصابه الحر الشديد أو البرد الشديد ضحك .

فإذا تقدّم فى السن فربما كانت وسائل السعادة أوفر ولكن النعيم بها أقل ؛ فقد يكون أكثر مالا وأكثر عيالا وأحسن ملبساً ومسكناً ولكنه مع ذلك لا يجد السرور الذى كان يجده أيام الفقر مع الشباب وأيام الوحدة قبل الزواج .

إن الشباب هو الظرف الذى تنال فيه السعادة ، فهو يسعد حتى فى أحرج الأوقات ، يسعد بالهجر كما يسعد بالوصال ، و يسعد بالعيش الجاف يأكله والملبس الخشن يلبسه ، فكأن الشباب يعوض عنه كل نقص ، ذلك لأن الشباب قوة تستر كل ضعف وحيوية تخفى كل عجز .

* * *

والحلم الثانى للشيوخ حلم الصحة ، يذكره بها سعال الليل إذا سعل ، وأعصابه إذا يبست ، وعظامه إذا تصلبت ، وأنفاسه إذا تلاحقت ومعدته إذا لم تهضم ، وسكره إذا خاع مفاصله ، وقلبه إذا أسرع نبضه ، يحلم بالصحة وكل شىء فى السكون يذكره بها . وقد كان لنا صديق — رحمه الله — يجلس دائماً مع الشيوخ الطاعنين فى السن ، فلما سألته عن ذلك قال إن هذا المجلس يذكره بالشباب وأيامه اللذيذة ، وهو إذا قارن سنه بسنهم اعتقد أنه شاب بالنسبة إليهم .

وحتى إذا كان الشباب فقيراً جدباً خشناً كانت ذكراه أحسن منه ، فكأن الذكرى تجرده من آلامه وتسبغ عليه من اللذائذ ما استطاعت ، شأننا فى ذلك شأننا فى تقديس الآباء والأمهات والعظماء إذا رحلوا من هذا العالم وربما حمل على ذلك شدة الوفاء للماضى كالذى يقول المتنبى :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا   لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

ومن نعم الله على الشيوخ أنهم لم يحرموا أيضاً من أحلام المستقبل فقد ركب فيهم حب الحياة وحب الغنى والأمل فى المستقبل ، وفى الحديث : « يشيب ابن

آدم و يشيب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل » ، فهو حتى إذا زادت ثروته طمع فى ثروة أكبر منها ، وما كان يحمله فى الشباب على إنفاقه تحمله الشيخوخة على ادخاره ، مع أنه من المؤكد أن حياته أقصر من حياته فى شبابه . وكذلك يزداد أمله ، فإن كان مريضاً أمّل فى صحته فى المستقبل ، و إن كان فقيراً اليوم أمل الغنى غداً . وهكذا بنيت الحياة على الأمل ، ولولا الأمل لنفذ الناس نصيحة شو بنهور فى أن يجتمعوا ساعة لينتحروا .

* * *

ومما يلطف حياة الزعماء أنهم لا يقصرون أملهم على أشخاصهم ، بل يأملون أن تنصلح حال أمتهم فيباورون إصلاحهم و يدعون إليه بكل قوتهم الضعيفة ، وكلما رأوا أمتهم تتقدم كان ذلك أعظم سلوة لهم وأعظم معوض لشبابهم . فقد اتخذوا من الأمة كلها أبناءهم و بناتهم يبصرونهم بما هم فيــه من ضعف وفساد ، و يرسمون لهم طريق النجاح ، وكلما ساروا فيه خطوة حرضوهم على الخطوة الأخرى وفرحوا بنجاحهم ؛ وكان فى ذلك تعويض عن لذتهم فى شبابهم ، ولذلك كانت حياة العظماء فى الشيخوخة أحسن من حياة غيرهم لأنهم ربطوا حياتهم بحياة أمتهم . والأمة فتية أبدا حية أبدا فاستعاضوا عن شبابهم بشباب أمتهم ، وعن حيويتهم بحيوية بلادهم . بل إن انغماسهم فى حركة الإصلاح ووقوفهم على نتائجها ورغبتهم فى نجاحها ، تزيد من حيويتهم ، ولنا صديق حفظه الله تجلس إليه فكأنه يلفظ النفس الأخير حتى إذا عرضت عليه أمر الأمة واستحثثته الـكلام فى العيوب وطريقة إصلاحها والأدوية وكيف تعالج بها أدواءها نشط للـكلام وللـكتابة حتى كأنه قد رجع إليه شبابه .

ومما يعزى الشيوخ أنهم قد نفضوا أيديهم من شهوات الشباب وعواقبها وآلامها واستعاضوا عنها بنضج العقل وقوة التفكير كما قال البارودى رحمه الله :

أواه لو عرف الشبا ب وآه لو قدر المشيب

ومن نعم الله أيضاً عليهم أن العقل لا يشيب شيب الجسم ، وقد يكون الشخص مهدماً فى الجسم ولكنه بارع فى سمو العقل ، وعقله مع ذلك منزه من صلف الشباب وطيشه ورعونته ، وهذا العقل يتمتع أيضاً بحسن تجاربه وذكريات ما جرى له من أحداث فكأنه يحيا من جديد فيها وينعم بذكرى لذائذها حتى وآلامها ، فهو يجرد الآلام من أشواكها ويذكرها ناعمة ناضرة .

وهو لأجل ذلك لا يحب أن يعود إلى الماضى بلذائذه وآلامه إلا إذا عاد معه عقله الحاضر لأنه ينعم بذكرى الآلام أكثر مما ينعم فى أيام اللذائذ والآلام .

الدنيا رواية

نعم . . إنهـا رواية ، ولـكن مسرحها كبير جدا ، هو وجه الأرض كله . ولسعة المسرح أمكن أن نمثل عليه عدة روايات فى وقت واحد . ففى جانب منه قد تمثل كوميديا « ملهاة » ، وفى جانب آخر قد تمثل تراجيديا « مأساة » . والذى يجعلنا نعتقد أن الدنيا رواية هو الشـبه التام بين ما يجرى فى الدنيا ، وما يجرى فى الروايات . فنحن نشهد فى الرواية التمثيلية فى ساعتين أو ثلاث ، ثم ننفعل لها انفعالا قويا أو ضعيفاً ، ضاحكا أو باكياً ، ثم ننصرف وننسى كل شىء ، وكأنه لم يكن .

والدنيا كذلك . . ملك ، أو غنى ، يتمتع مدة محدودة ، ثم يزول عنه غناه أو ملـكه ، فيعيش بائساً أو فقيرا ، أو يدركه الموت ، فيبكى عليه أهله لحظة أو لحظات ، ثم ينسى وكأنه لم يكن . أو فقير بائس يتضور جوعا و بؤساً ، ثم يدركه الموت وكأنه لم يكن بؤس ولا بائس . ورجل وجيه تذل له النفوس وتخضع له الرقاب ، ثم لا جاه ولا ذكرى ... فأى فرق بين هذا كله و بين الرواية ؟

وأكثر خطأ الناس يأتى من نسيانهم أن هذه الأشياء التى يرونها فى الدنيا رواية ، و يحسبون أنها حقائق واقعة ، وأنها أبدية لا تزول ، فيظنون أن الضحك يبقى ضحكا أبدا ، مع أنهم يشاهدون كل يوم تغيراً طارئاً . فغنى يفتقر ، وفقير يغتنى ، وكل هذا شأن الروايات لا شأن الحقائق .

والفيلسوف الذى يؤمن بأن الدنيا رواية لا ينفع كثيراً ، ولا يلتذ كثيراً ، ولا يتألم كثيراً ، لأنه يؤمن أن كل ما فى الدنيا مسائل اعتبارية ، كالذى فى الروايات تماماً . فالملك على مسرح الرواية التمثيليـة ليس ملـكا حقيقياً ، ولا العامل الحقير فى الرواية يبقى عاملا حقيراً ، بل متى انتهت الرواية تغير كل شىء .

والناس فى الحياة شأنهم شأن الممثلين ... قد ينجح الممثل ، فيمثل دوره أحسن تمثيل فيصفق له الناس ، و يشتهر و ينال الحظوة ، وقد يفشل فى التمثيل فيشمئز منه الناس و يحتقرونه و يهزأون به .

كذلك الحياة الواقعية ... من الناس من يكون عالماً ناجحاً ، أو تاجراً ناجحاً ، أو أديباً ناجحاً ، فيصفق له الناس و يحظى عندهم . وقد يكون فاشلا ، فيهزأ به الناس و يسخرون منه ، و ينصرفون عنه ، ثم ينسى الناجح والفاشل ، سواء فى الرواية أو فى الدنيا .

لو أدرك الناس هذه الحقيقة الصغيرة ما تخاصموا هذه الخصومات الشديدة ، ولما أقاموا الدنيا وأقعدوها على توافه الأمور ، ولجأوا إلى المحاكم ، وسخروا المحامين والقضاة وقوة التنفيذ ظانين أن ما ينالونه قد نالوه أبدا ، وما خسروه قد خسروه أبدا ، وما ذلك كله إلا رواية ، لكل شىء فيها حين .

ألا يستسخف الناس ممثلا غضب من ممثل آخر لشىء تافه ، يعيش ساعتين أو ثلاثا ثم يزول ؟

* * *

وهناك درس عميق نستطيع أن نتعلمه من أن الدنيا رواية ، وهو أننا فى الروايات لا نقدر الشخص بمركزه الروائى إنما نقدره بأداء ما عهد إليه به على خير وجه . فإذا كان فى الرواية ملك أو صعلوك ، فلسنا نقدر الملك تقديراً كبيراً لأنه ملك فى الرواية ، ولا نحتقر الصعلوك ، لأنه يمثل دور الصعلوك ، إنما نقدر كلا من الملك أو الصعلوك بحسب إتقانه للدور الذى يلعبه . بل إننا نقدر الصعلوك الذى أتقن دوره أكثر من الملك الذى لم يتقن دوره . هكذا ينبغى أن يكون الشأن فى الدنيا ، فكناس الشارع الذى يؤدى واجبه على أحسن وجه ينبغى أن يكون خيراً من رئيس المصلحة الذى لا يؤدى واجبه على الوجه الأكمل ، والجندى الذى

يقف فى مفترق الطرق ينظم حركة المرور ، و يراعى فى إتقان مسير الحوادث ، خير من ملك يفرط فى كل شىء .

بل إن الدنيا بدولها لا بأفرادها قد تمثل كذلك رواية . دولة مجدها إلى السماء ، ولا تغرب الشمس عن أملاكها ، ثم تأتى عليها الحوادث التى لا قبل لها بها ، فإذا هى لا شىء . ودولة ضعيفة لا حول لها ولا طول يبسم لها وجه الزمان ، فتأخذ فى القوة شيئاً فشيئاً ، حتى تصبح أعز أمة على وجه الأرض . إن شئت فانظر إلى الرومان والفرس مع العرب ، لقد كانت الدولتان الأوليان تقتسمان سيادة العالم ، وتهزآن بالعرب وحركتهم ، بل كان العرب أنفسهم يستصغرون حالتهم بجانب الفرس والروم ، ثم فتحهما العرب وأخضعوهما لحكمهم . أو إن شئت فانظر فى العصر الحاضر إلى اليابان كيف كانت ، و إلى أين صارت . وقديماً قالوا : « الدنيا دول » ، وقالوا :

« من سرّه زمن ساءته أزمان »

وهكذا الشأن فى الرواية التمثيلية ، جماعة يبلغون الأوج ، وجماعة ينزلون إلى الحضيض فى ساعات محدودة . بل لو وسّعنا نظرنا لوجدنا رواية الدنيا يمثل فيها الحيوان والنبات أيضاً ، فنبات سرعان ما يفنى ولا يستطيع أن يصبر على حوادث الزمان ، ونبات جلد صبور ، يواجه الأحداث بقوة وثبات ، ونمل ونحل يمثلان الجد والعمل المتواصل إلى بلوغ الغاية ، وطاووس يزهى بنفسه ، وكل زينته فى جمال ذيله . فاجمع كل ذلك : نباتا وحيوانا و إنسانا ، و براً و بحراً ، وروضة وقفراً ، وسمكا وأسداً ، ووردا وشوكا ، وعسلا وحنظلا ، تجد كل ذلك رواية أو روايات تمثل على مسرح الدنيا الواسع ، فتبًّا للمتزمت الجاهل !

الشافعى الأديب

يعرف الناس كلهم الشافعى الفقيه ، ولكن قلما يعرفون الشافعى الأديب . . فالشافعى أول ما تثقف تثقف بالعربية ، فقد كان قرشيًّا هاشميًّا . وربما كان هو القرشى الهاشمى الوحيد من أصحاب المذاهب ، وساعده ذلك على دراسته اللغوية والأدبية . فقد تربى فى بنى أسد ، وكان من أفصح العرب . وقد درس شعر الهذليين وأتقنه حتى أن الأصمعى درس شعر الهذليين عليه .

وكان أمامه فى ذلك عبد الله بن عباس ، فقد كان ابن عباس فصيح اللسان يعنى بعلم القرآن كما يعنى بالشعر . . حتى كان يحضر دروسه طالبو القرآن وطالبو الحديث وطالبو الفقه ورواة الشعر والعربية . وكذلك كان الشافعى يترسم خطاه ويسير على منواله لأنه قريبه ، تظهر فصاحته فى كتابه « الأم » فعبارته جزلة بليغة تصح أن تحتذى ، وله شعر كثير مروى حتى نسبوا إليه ديوان شعر مع أنه تعفف عن قول الشعر ، وظن أن الشعر يزرى بالعلماء . ونسبوا إليه :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى   لكنت اليوم أفصح من لبيد

فهو يعتز بالفقه ولكن لا يعتز بالشعر . . ولست أدرى لماذا ذلك ، فإن المهارة فى الشعر ترفع مكانة صاحبه كمكانة الفقيه ، فليس بشار بن برد ولا أبو نواس ولا أبو تمام أقل شأناً من فقهاء عصره . . فالنابغة فى فنه ليس أقل من النابغة فى فقه أو نحو ، ولكن جرى على ذلك أهل عصره فكان عندهم أن الفقيه خير من النحوى والصرفى ومن الشاعر وعلى ذلك قال الشافعى شعره هذا .

ومن شعره الذى يرويه عنه قوله :

مرض الحبيب فعدته   فمرضت من حذرى عليه

وأتى الحبيب يعودنى   فبرئت من نظرى إليه

وقوله :

أهين لهم نفسى لكى يكرمونها ... ولن تكرم النفس التى لا تهينها

وهو شعر كما ترى لا بأس به وإن لم يبلغ قدراً كبيراً . ولكن ربما منعه من التفوق فى الشعر مانعان الأول أن الاشتغال بالفقه والإمعان فيه ، كما يقول ابن خلدون ، يضعف الملكة الشعرية والملكة البلاغية ، وحكى ابن خلدون عن نفسه أنه منعه من التفوق فى البلاغة والشعر حفظ المتون ، وروى عن فقيه أنه تبحر فى الفقه فأصيب فى الشعر وقال :

لم أدر حين وقفت بالأطلال ... ما الفرق بين جديدها والبالى

فإن قوله : ما الفرق بين كذا وكذا تعبير فقهى لا شعرى ...

والثانى أنه كان يرى أن الشعر يزرى بالفقه فلم يطاوع فى شعره نفسه ، ولو أطلق لها العنان لأتى بخير مما قال .

* * *

على أنا لا نعده شاعراً ممتازاً ، فتعبيره فى « الأم » كما قلنا تعبير جزل اللفظ رصينه عميق المعنى غزيره . وكما كان إماما فى الفقه يتحلق الناس حوله فيأخذون عنه ، كان يجلس بعد الضحى ، فيأخذون عنه العربية . وقد اشتهر بحسن الصوت والإلقاء . . حتى إنه لما أراد أن يأخذ على مالك موطأه ، أراد مالك أن يحيله على بعض أصحابه فألح الشافعى أن يسمع قراءته فلما سمعها مالك رضى أن يقرأه عليه . ومن تمكنه فى الأدب أنه كان قوى الحجة ، استطاع أن يحاج الرشيد فيفك قيده من أسر كان وقع فيه مع تسعة من أصحابه ، كلهم قتل إلا هو ، فعفا عنه . ومما أفاده فى اللغة والأدب ومعرفة أخلاق الناس وعاداتهم كثرة رحلاته ، فرحل من غزة إلى مكة ومن مكة إلى المدينة ثم إلى اليمن ثم إلى مصر . وفى كل مرة يلقى علماءها وأدباءها فيأخذ عنهم . ومن قوة حجته أنه استطاع وهو فى مصر أن يزيح

مذهب مالك وأبى حنيفة فيمكن من مذهبه ، وكما أفادته هذه الرحلات فى فقهه أفادته فى أدبه ، وفى ذلك يقول :

سأضرب فى طول البلاد وعرضها   أنال مرادى أو أموت غريبا
فإن تلفت نفسى فللّه درها   وإن سلمت كان الرجوع قريبا

* * *

وقد روى الفخر الرازى أنه كان يعرف اليونانية وأنه كان مثقفاً بها ، وقد استنتج ذلك من حكاية رويت . . وهى أن الرشيد سأله هل يعرف الطب ؟ قال الشافعى : « أعرف ما قالت الروم مثل أرسطاليس ، وبقراط وجالينوس وفورفوريوف بلغاتها ، وما نقله أطباء العرب وقننته فلاسفة الهند ونمقته فقهاء الفرس » وهى تدل على ثقافة واسعة .

ولكن ابن القيم رد هذه الرواية ، وقال : « إنها كذب مفترى ، ولو كان الشافعى يعرف لغة اليونان ما فات ذلك مؤرخوه من كبار أصحابه » . فلغته فى كتاب « الأم » وما روى من شعره وكتابته لرحلته كل ذلك يدل على أنه أديب ممتاز بجانب أنه فقيه ممتاز ...

لقد عاش الشافعى مع علمه وأدبه فقيراً ومات فقيراً ، ونسب ذلك إلى القدر ، وأنه إذا منح العقل حرم الغنى وإذا منح الغنى حرم العقل . وقال فى ذلك شعراً كثيراً مثل قوله :

إن الذى رزق اليسار ولم يصب   حمداً ولا أجراً لغير موفق
الجد يدنى كل أمر شاسع   والجد يفتح كل باب مغلق
وإذا سمعت بأن مجدوداً حوى   عوداً فأثمر فى يديه فصدق
وإذا سمعت بأن محروما أتى   ماء ليشربه فغاض فحقق
لو كان بالحيل الغنى لوجدتنى   بنجوم أقطار السماء تعلقى

لـكن من رزق الحجا حرم الغنى　　ضـــدان مفترقان أى تفرق
ومن الدليل على القضاء وكونه　　بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وقوله ومن الدليل تعبير غير شعرى تأثر بالفقه ، وربط الغنى والفقر بالقدر نظرة قديمة أوحى بها عصره ، لأن هذا العصر كان العلماء فيه والأدباء لا يغتنون من علمهم وأدبهم إلا إذا صادقوا الخلفاء والأمراء وملأوهم ملقا ومديحاً بالغاً ، كالأصمعى وأبى العتاهية وأبى نواس . أما إن كانوا فقهاء أو أدباء لا يتصلون بالخلفاء والأمراء ، عاشوا عيشة فقيرة إلا إذا كان لهم مورد آخر من عمل أو وقف ... كأبى حنيفة الذى كان يعمل بزازاً .

ولـكن انتشار الديموقراطية والاعتماد على الشعب دون الملوك والأمراء غيّر هذه النظرة ، وجعل اجتماع العقل والغنى ممكناً ، بدليل ما نرى فى أوربا وغير أوربا من علماء وأدباء اغتنوا بعلمهم وأدبهم . وأصبح الناس يفهمون أن الغنى والفقر ناشئان من النظام الاجتماعى المعمول به ، فإن كان النظام عادلا أخذ كل إنسان حظه من الغنى ، وإذا كان النظام سيئاً كان المال فى يد عدد قليل قد لا يستحقه ...

كان الشافعى عزيز النفس ، عالى الهمة ، يرى أن علمه مع فقره خير من غناه مع ذله ، وأنه إنما تعلم ليخدم لا ليخدم ، ويكرم لا أن يهان ، ويقصد لا أن يقصد . . فقضى حياته على بعض دريهمات وخادمة ، ولو شاء أن يمد يده لدر المال عليه ، وانهالت عليه الثروة . . فرحمه الله .

التسلح الخلقى
قبل التسلح العسكرى

شاعت بين الناس كلمة « التسلح » يقصدون بها إنتاج الأسلحة المادية فأراد قوم خيرون أن يعارضوها بالتسلح الخلقى ، مقابل التسلح المادى . لقد زعم دعاة التسلح المادى أن التسلح للحرب يمنع خطر الحرب ، ولكن لم يصح تنبؤهم ، فما أن يتم تسلحهم حتى تنفجر الحرب و يرمى فى نارها بالسلاح . وذلك لأن إعلان الحرب فى يد حفنة قليلة من زعماء مغرمين بها ، إما لداع وطنى فيرون أن الوطنية الصادقة تدعوهم للحرب رغبة فى الانتصار ، و إما لأن وراءهم رأسماليين يربحون أرباحا طائلة من أدوات القتال . . فجاء قوم خيرون ، رأوا أن التسلح الخلقى هو المنجاة من الحرب ، إذ ليست الأخلاق صدقا وكرما وعدلا فقط ، بل منها أيضاً نشر السلام ، ومنع الحرب . فوجدت جمعية لهذا الغرض ، وانتشرت فى أقطار العالم . وحضر لفيف من أعضائها منذ سنتين فى الإسكندرية . وهم يرون أن الحرب مهما عظمت ، ومهما كان الداعى إليها ، لا تساوى ما ينتج عنها من تخريب وسفك دماء وقوة عداء ، وأن الناس قديماً كانوا إذا اختصموا يأخذون حقهم بأيديهم فلما ارتقوا احتكموا إلى المحاكم . .

وهذا ما ينبغى أن يكون شأن الأمم إذا اختصمت ، فهى لا بد أن تحتكم إلى محكمة دولية لفض النزاع . ووجدت من أجل ذلك فكرة عصبة الأمم ، ثم هيئة الأمم . ولكن أفسدها أنهما محكمتان غير عادلتين ، فقد اتخذت انجلترا عصبة الأمم محكمة تقضى لصالحها سواء كانت محقة أم مبطلة ، واتخذت أمريكا هيئة الأمم المتحدة كذلك . وها نحن هذه الأيام نسمع أن فرنسا تعلن أنها لا تسمح بأن

تنظر هيئة الأمم الخلاف الذى بينها و بين تونس ومرا كش لأن هـذا يهمها وحدها . . شأن الظالم الغاصب ، يريد أن يمنع المحكمة من التدخل فى الظلم والغصب ، فتطأطىء أكثر الحكومات رأسها لهذا . ومن غير شك سيودى هذا بهيئة الأمم المتحدة ، كما أودى مثل ذلك بعصبة الأمم من قبل . ولو عدلت هيئة الأمم كما تعدل المحاكم بين الأفراد ، لعلا شأنها وصانت كيانها . ولـكن يظهر أن الأمم محتاجة لزمن طويل ، لتدرك معنى العدالة الإنسانية بين الأمم ، كما أدركت المحاكم معنى العدالة بين الأفراد ، فحفظت كيانها .

إن التسلح الخلقى يجعل للفرد ، إذا حمل على ظلم ، أن يقول : « لا » بملء فيه . . ومن أغراض هذا التسلح الخلقى التسامى وجعل كل فرد مشرفا على مصالح الأمم ، يحميها من الظلم ، و يعمل لتحقيق العدل . . و إلا فما بال فرنسا تقف هذا الموقف ، وما بال انجلترا فى إيران تقف موقفها المخزى فلا ترضى شركتها بنصف الربح ؟ . والشعب الإيرانى فقير يريد أن يعيش و يحصل على الضرورى من القوت ، والإنجليز يريدون أن يصرفوا المال فى الترف وفى الـكماليات ، ولا يسمعون لدعوة داع إلى الخير ، ولا لتوسط أمريكا ولا غيرها . وكم فى الدنيا من مظالم يرتكبها الرجل الأبيض ضد الرجل الملون . ولا يسكت التسلح الخلقى حتى يزيل هـذه المظالم ، و يحل محلها العدل . ولم تجعل الإنسانية يوما ما من الرجل الأبيض مستعمرا ، ولا من الرجل الملون مستعمرا . وليس يهدأ أصحاب التسلح الخلقى حتى يروا الشعوب متساوية ، والعدالة شاملة . . إنه ليحز فى نفوسهم أن يروا مظالم لا تنتهى ، ملوكا جائرين ، وساسة مستبدين ، وحكومات تتباهى بالظلم ، وذلك عهد مضى ، وقد قضى على بعضهم ، وسيقضى على البقية الباقية منهم . ففى رأيى أن العالم يسير إلى الأمام دائما . . قد تتخلف بعض الأمم ، وقد يرقى بعض الأمم فى ناحية ، و ينحط فى ناحية ، ولـكن العالم على العموم لا يعبأ بكل هذا ، و يسير إلى الأمام .

وقد كان العالم مملوءا بمصادرات الملوك والأمراء ، وهم لا يعترفون بحق أى أحد غيرهم فى الحياة ، فلهم أن يقتلوا من شاؤوا ، وينهبوا ما شاؤوا . ثم اعترف أخيراً بحق الإنسان فى حياته وفى حريته ، وفى تعلمه ، وفى ملكيته ، تحميه القوانين وتمنع من الاستبداد به حتى الملوك والأمراء . وهو يسير إلى الأمام نحو احترام هذه الحقوق للأمم . . فلا ظلم ولا استعمار ، ولا سفك دماء ، وإنما أخ كبير يأخذ بيد أخ صغير ، حتى يرشد ، ووصى عادل يحمى من ليس من ذوى الأهلية حتى يبلغ سن الرشد .

هذا برنامج التسلح الخلقى ، وهدفه الأسمى . . ولا بد أن يصل إليه العالم بعد قليل من الزمن أو كثير . وقد عودنا التاريخ أن دعاة الإصلاح قد يفشلون ، وقد يقتلون ولكن يأتى من بعدهم قوم يحملون فكرتهم ، ويدعون إليها ، وهم أشد ممن قبلهم فينجحون ، وهذا ما أرجو أن سيكون .

حديث إلى نفسى

; اعتدت كل يوم أن أخلو إلى نفسى لحظات ، أفكر فيها فيما مر على من أحداث اليوم . . سواء منها ما ساء ، وما سر . ولا أعد يوما لم أتمكن فيه من هذه الخلوة ، سواء كان ذلك فى رحلتى أو إقامتى . وقد أذكرنى ذلك بقصة صوفية لطيفة ، وهى أن صوفيا رحالا دخل بلدة وأحب أن يزور مقبرتها . . فرأى عجبا : رأى بعض شواهد القبور مكتوبا عليه : هنا يرقد فلان ، وقد حج ، وألف ، ومات وعمره يومان . . وعلى شاهد آخر : هنا يرقد فلان ، وقد غزا سبعا وعشرين غزوة فى سبيل الله ، ومات وعمره ثلاثة أيام . . وعلى شاهد ثالث : هنا يرقد فلان وقد طوف فى البلاد شرقا وغربا ، وحارب وانتصر ، وعمره يوم واحد . فعجب من ذلك وسأل عمدة البلدة فقال : « إننا معاشر أهل هذه البلدة لا نعد من الأيام إلا الأيام السعيدة التى فشا فيها السرور ، ولم يحدث فيها غم » . فقال الرحالة للعمدة : « أرجو إذا مت فى بلدكم أن تدفننى فى مقبرة من مقابرها وأن تكتب على شاهدها : هنا يرقد فلان ، وقد رحل وحج وألف ومات وهو فى المهد . . لأنى لم أجد يوما ما يسرنى ! » .

أما أنا فلا أعد من الأيام ، ما لم أخل فيه لنفسى . ،

وفى الخلوة أفكر فيما جرى . . فأحيانا أرى أنه يوم عادى لم يجر فيه إلا ما كان مألوفا . وأحيانا أرى ما يهز مشاعرى ويقلق عواطفى ، فأرى مثلا من كنت أعده موطن وفاء ومركز صداقة عتيقة . . قد باع صداقته بأرخص الأثمان ، وصدر منه ما ليس له تفسير إلا الجحود والنكران . وتبين أنه كان صديقا وفيًّا يوم كان يؤمل حاجة ، أو يطمع فى قضاء مصلحة . فلما زال كل ذلك تنمَّر

وتنكّر وقلب ظهر المجن ، واتجه اتجاها جديداً إلى من يقضى له حاجته و يؤدى له مصلحته .

* * *

وخلوت يوما إلى نفسى فسألتها : « هل تود أن تعود شابة كما كانت ، وأن تستأنف الحياة التى قطعتها من جديد ؟ » . فأجابت : « إن كانت الحياة تعود والشباب يرجع مع التجارب القديمة ، و بعقل جديد قد استفاد مما حصل له . . فأهلا وسهلا ، أما إن كان الشباب يعود بالعقل الماضى ، و يرى من جديد التجارب التى حدثت و يسر و يألم و يضحك و يبكى ، فلا . . وخير ألا أجرب التجارب التى سبق أن جربتها ولا أحيا حياة ثانية كالتى حييتها ! » .

* * *

وسألت نفسى فى إحدى الخلوات : « ماذا كنت تستفيد من تجاربك لو حييت حياة ثانية وعدت إلى شبابك ؟ » فقلت : كنت لا أومن بالناس كما كنت أومن . . فكل من رأيت إنما يطلب الخير لنفسه ، و إنما يعرفك و يتملقك إذا أحس بالحاجة إليك ، و يمقتك و يكرهك إذا أحس الحاجة عند غيرك . وقد استعقلت الشاعر الذى يقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير

واستعقلت المتنبى إذ يقول :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل

ثم لو استقبلت من أمرى ما استدبرته ، لكرهت الإفراط فى كل شىء حتى فى الفضائل ... فالإفراط فى القراءة والكتابة كالإفراط فى التدخين كلاهما ضار . والقانون الطبيعى قد يستغفل مرة أو مرتين ، ولكنه لا يسمح أن يستغفل دائماً . . فهو يصبر و يصبر ولكنه إذا تنمر لم يفلت ، وقسا بالمؤاخذة .

وهزأت بمن يتعب جداً فى جمع المال ، وقد علمتنى الحوادث ألا شىء من المال يساوى الصحة خصوصاً إذا جمع المال على نفقة الصحة . وإن أقرب أقاربى حتى الأولاد لا يستأهلون أن تضيع الصحة فى سبيل إثرائهم .

وأحياناً تلتفت النفس إلى شخصى ، وأحياناً إلى أسرتى إذا جد مشكل كبير احتاج إلى مجهود كبير فى حله : من ضائقة مالية أو ضائقة خلقية أو ضائقة اجتماعية .

وأحياناً يغلب علىّ التفكير فى الأمة عند فشو فساد فيها أو وضعها تحت سلطة حاكم مستبد ، يكتم الحرية ويعيث فى الأرض الفساد . أو وضعها تحت نظام حكم فاسد ، يستغل الحكام الشعب لمصلحته .

وأحياناً أفكر فيما هو أوسع من ذلك . كالذى حدث لى أيام هجوم الصهيونيين على الفلسطينيين ، فقد تعب فكرى من هذه الحوادث أيها خير للأمة ، أنقبل الهدنة أم لا تقبلها . أتسالم أم تحارب ؟ إلى غير ذلك . . وكنت أقرن دائماً بين ضياع الأندلس على يد الإسبانيين قديماً ، وضياع فلسطين على يد الصهيونيين حديثاً . واتفاق هؤلاء وهؤلاء على أن يقفوا فى الحرب بأنفسهم من غير أن يساعدهم من بجوارهم .

بل أحياناً أيضاً أفكر فيما هو أوسع من ذلك : فى الإنسانية جمعاء . . كيف يغيب عن زعماء العالم أن فى الحرب ضرر الجميع ، سواء منهم المنتصر أو المنهزم ، وأن الغاية التى يسعى إليها الزعماء مهما كانت لا تساوى ما يهدر فى الحروب من دماء وما يصرف عليها من أموال ، وأن الجهود العامية لو بذلت فى خير الإنسانية لتقدمت البشرية ولكان الناس إخواناً ، ولم يكونوا ميادين حرب ، ولا انقسموا إلى معسكرات ، وأن العقل الضيق وحده هو الذى جعل فروقا بين الشرق والغرب والمسلمين والمسيحيين والصهيونيين ، وأن الناس لو عقلوا لرأوا أن الدين لله وحده . . لا يصح بحال أن يفرق بين أتباعه .

وعلى كل حال فقد اختلف منزع التفكير باختلاف ما يعتريني من نزعة قوية ، أحيانا فردية ، وأحيانا عائلية ، وأحيانا فوضية ، وأحيانا إنسانية .

هذا من ناحية العواطف .

وأحيانا تؤرقني المشاكل العلمية ، عقب قراءة تثير مشكلة علمية أو محاولة بحث في عقدة علمية .

بل أراني مضطرا أحيانا إلى أن أصحو منتصف الليل وأفكر في هذه المشكلة ، وأضيء النور ، وأذهب إلى المكتبة لعلي أعثر في المسألة على رأي جديد أو حل للإشكال . وأسوأ ما يكون ذلك إذا نمت بعد كتابتي في الموضوع ، فإن ذلك يظل الفكر يشتغل فيما كنت أكتب ، وأحيانا يوفق إلى حل ، وأحيانا لا يوفق . ولا أزال كذلك حتى أتنبه من نومي ، ولذلك آليت ألا أجيز لنفسي القراءة قبل النوم ولا أجيز لها الكتابة .

وأحياناً تثور عاطفتي الدينية إذا فكرت في المسلمين وضعفهم وانحلالهم ، وقارنت بين جهلهم وعلم الأوربيين ، وفقرهم وغنى الأوربيين ، وتفرق كلمتهم واجتماع كلمة المستعمرين ، وسوء حالتهم الاجتماعية . . ثم فكرت طويلا في الأسباب التي دعتهم إلى هذا التدهور : هل هو حكومتهم المستبدة الظالمة ، أم هم رجال الدين الذين منوهم الآخرة بترك الدنيا ، أو هو سوء عقيدتهم في القضاء والقدر ، الذي حملهم على الكسل والإهمال والتواكل ، أو هو جميع ذلك كله أو غير ذلك كله . وفكرت أيضاً هل هو مرض مزمن يبقى ما بقيت الحياة ويعيش على مر القرون ، أم هو عارض يزول متى زالت أسبابه ، ومن أي نقطة يبدأ الإصلاح .

* * *

تمر هذه الأحداث كلها على ذهنى كأنه شاشة بيضاء تسجل عليها حوادث السينما ، وأحيانًا يكون التفكير محزنًا يستعقب البكاء ، وأحيانًا سارًّا يستوجب الابتسام ... وكل ذلك نتيجة لحالة المزاج وموضوع التفكير . ولكن مهما كان المزاج ومهما كان موضوع التفكير سارًّا أو محزنًا ، فالنفس ترتاح إلى هذه الخلوة وتلتذها لذة التاجر يقلب فى دفتر حسابه .

الاجتهاد فى نظر الإسلام

كنت أتجادل فى الشهر الماضى مع معالى الأستاذ على عبد الرازق باشا ، وكنا نستعرض حال المسلمين وما وصلوا إليه من جمود ، فقال : إن دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرتُه قديماً من أن رسالة الإسلام روحانية فقط ، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل ، فقلت : إن رأيي أن رسالة الإسلام أوسع من ذلك وهى روحانية ومادية معا ، بدليل ما ورد فى القرآن من نظام البيع والشراء والإجارة والمعاملات المالية ، ومسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ونحو ذلك .

والذى يحل مشاكلنا ، هو فتح باب الاجتهاد بعد أن أغلقه العلماء ، ولم يكن إغلاق باب الاجتهاد باجتماع بعض العلماء و إصدار قرار منهم ، إنما كان مجرد حالة نفسية واجتماعية ، ذلك أنهم رأوا غزو التتار لبغداد ، وعسفهم بالمسلمين ، فخافوا على الإسلام منهم ، ورأوا أن أقصى ما يصبون إليه ، هو أن يصلوا إلى الاحتفاظ بتراث الأئمة مما وضعوه واستنبطوه وأنهم لا يؤملون أكثر من ذلك نظراً لحالتهم النفسية المتدهورة ، فسموا هذا إقفال باب الاجتهاد ، ونحن نريد أن نفتحه .

ونظريتنا فى الحقيقة تؤدى إلى نفس النتيجة التى يراها الأستاذ على عبد الرازق باشا ، فالاجتهاد الذى نريده ، هو الاجتهاد المطلق لا الاجتهاد فى المذهب ، فهو يشمل كل شىء حتى فى تقييد النص ووقف العمل به متى استوفى المجتهد شروط الاجتهاد المبينة فى كتب أصول الفقه ، من علم بالكتاب والسنة ، وعلم باللغة العربية ، وعلم بالعرف والتقاليد ، وعلم بمقاصد الشريعة ، وغير ذلك .

و إمامنا فى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فإنه مثلا لم يرد أن يعطى المؤلفة قلوبهم من الزكاة ، لأنه أدار الحكم على العلة وجوداً وعدما ، فلما لم يكن

الإسلام فى حاجة إلى تأليف القلوب لكثرة من دخل فى الإسلام ، وقف إعطاءهم الزكاة ، ولما رأى الناس أكثروا من الحلف بالطلاق الثلاث بلفظ واحد أدّبهم بإيقاعه ثلاثاً ، مع أن القرآن الكريم يقول « الطلاق مرتان » والطلاق الثلاث هو مرة من المرتين . ولما حد المسلم حدَّ الشرْب ورآه بعد ذلك قد تنصر والتحق بالقسطنطينية ، آلى على نفسه أن لا يحد مسلماً بعد ذلك أيام الحرب . وسرق مسلم من مُزَينة فى أيام المجاعة ، فأمر بحده ثم أمر برده ، وألزم قبيلته أن تدفع ثمن الناقة ، وقال : إنكم أجعتموهم فسرقوا . إلى كثير له من أمثال ذلك . فكان كما قلت ، يدير الحكم على حسب العلة ، فإذا لم تتحقق العلة لم يُحَقِّق المعلول .

ومجلس الشورى كان يفعل مثل ذلك فى الأندلس ، فقد واقع عبد الرحمن الناصر زوجته فى رمضان ، فأفتاه بعض العلماء بتحرير رقبة كما هو الترتيب فى الكفارة ، فأبى يحيي بن يحيي الليثى رئيس جماعة الشورى عليه ذلك نظراً لأنه أمير وغنى ومن السهل عليه أن يحرر رقبة ، فلا بد من عقوبة رادعة ، وهى أن يصوم ستين يوما بدل اليوم الذى أفطره تحقيقاً لمقصد الشريعة . فالاجتهاد الذى نريده من هذا القبيل ، فإذا جَدَّ للمسلمين موقفٌ دُرِسَ موقفُهم بعينين :

إحداهما مقاصد الشريعة الكلية . والأخرى موقف المسلمين الحاضر . وفى كل عصر تجد مسائل تحتاج إلى هذا الاجتهاد ، بدليل ما كان يرد على المرحوم الشيخ محمد عبده من مسائل جديدة يطلب أصحابها الفتوى الإسلامية فيها ، مثل : ذبيحة أهل الكتاب ولبس القبعة إذا اضطر الناس إليها ، و إيداع المال فى صناديق التوفير ، والاشتراك فى شركات التأمين على الحياة ، ونحو ذلك من المسائل والأقضية التى تجد فى العالم الذى هو فى تطور مستمر . فكل يوم تظهر أحداث تتطلب أحكاما شرعية ، فما لم تُقابَلْ بالاجتهاد العاجل ومجابهة الموقف أصيب المسلمون بالحرج ، وكان علماء الفرس[1] أوسع صدراً فى هذا ، وأكثر قبولا لنظرية

(١) يقصد علماء الشيعة الإمامية .

الاجتهاد ، لولا أنهم أكثروا من شروط هذا بما يساوى الاجتهاد المقيد ، ونحن نريد الاجتهاد المطلق .

والاجتهاد الذى نريده لا يصح أن يُعْطَى لكل شخص ، وإلا كانت الفوضى والاضطراب ، إنما نريده لأهل الحل والعقد الذين تتوافر فيهم شروطه كبعض أعضاء مجلسى النواب والشيوخ و بعض رجال العلم ونحو ذلك ، والإسلام مَرِنٌ بطبعه يتحمل مثل ذلك ، فقد جعل الاجتهاد مصدراً من مصادر الشريعة ، وأباح النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جَبَل أن يجتهد برأيه ، وأباح للصحابة أن يجتهدوا بآرائهم مع رأيه فى شئون الدنيا ، فقد أمرهم مرة ألا يؤَبِّروا النخل ، فلما فعلوا ذلك لم يُثمر ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وقد فعل صلى الله عليه وسلم أشياء كثيرة لا تتصل بالدين ، و إنما فعلها لمزاجه كحبه للدُّبَّاء ، أو نزولا على عادة قومه كطريقة لبسه ونوعه والالتحاء وصبغ اللحية ونحو ذلك ، فهذه كلها أمور ليست من الشريعة فى شىء ، ولكل زمن عُرْفُه وتقاليده ، ولكل شخص مزاجه ، فخلطُ هذه الأمور بعضها ببعض خلط غير صحيح ، وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه امتنع عن أكل البطيخ لأنه لم يعلم الموضع الذى قطعه منه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه مسألة عاطفية لا صلة لها بالدين ، ولكن حبه للنبى صلى الله عليه وسلم وحبه للاقتداء به فى كل شىء ، سواء أكان من العبادات أم من غيرها دعاه إلى فعل ذلك ، فهو أمر دعاه إليه الحب لا الدين .

ونحن فى زمن تتوالى فيه المخترعات والصناعات ، وتغمرنا فيه المدنية الحديثة بألوان كثيرة من المسائل ، وكلها تحتاج إلى اجتهاد ، فإذا ظهر الراديو مثلا تساءلنا هل يصح أن نسمع منه القرآن أو لا يصح ؟ والعالم نفسه يواجه هذه المشاكل ، فلما اخترعت الطائرات احتاج السياسيون أن يضعوا مواد خاصة فى القانون الدولى لمرور الطائرات فى جو الممالك الأخرى ، وكذلك شأنهم فى النظم البريدية الحديثة

والسفن والقطارات وغير ذلك ، فإذا نحن جمدنا لعدم وجود النص ، ولم نقابل هذه الأمور وأمثالها بالاجتهاد ، وتخلف المسلمون ، كانوا أمام أحد أمرين : إما اتباعهم للمبادئ الأوروبية من غير نظر إلى مقاصد الشريعة كما فعل مصطفى كمال فى تركيا . وإما الوقوف من غير إعطاء حكم ، وفى كليهما ضرر بليغ .

إن كل نظام تشريعى يلزم لبقائه شيئان : قواعد ثابتة كقول الشريعة « لا ضَرَر ولا ضِرَار » تركِّزُه وتثبته ، وقواعد متموجة مرنة ، يستطيع بها أن يواجه الأحداث الجديدة ، وفى الإسلام هذان النوعان ، ففيه القواعد الثابتة التى نسميها مقاصد الشريعة كحفظ النوع والجنس والمال ، وفيه القواعد المرنة ، كرعاية المصالح المرسلة عن طريق النظر والاجتهاد ، و بدونهما أو أحدهما لا تستطيع شريعة أن تبقى .

وقد قرأنا أن أبا حنيفة رحمه الله كان يقول : إذا غصب رجل ثوباً وصبغه بالسواد فقد أدخل نَقْصاً على قيمة المغصوب ، فلما جاء تلميذه أبو يوسف ، وكانت الحالة قد تغيرت واتخذ العباسيون السواد شعاراً رسمياً ، أفتى بأن الصبغ بالسواد يزيد قيمة المغصوب ؛ وليس الأمر تغير الحكم ولكن الأمر تغير الظروف . وكان الفقهاء الأقدمون يفتون بأن من رأى حجرة فى بيت دون سائر حجراته سقط عنه خيار الرؤية ، لأن الحجرات فى البيوت كانت تبنى بشكل واحد ، فلما جاءت المدنية الحديثة واختلفت هندسة الحجَر كان من مقتضى ذلك أن من رأى حجرة فى بيت لا يسقط عنه خيار الرؤية وهكذا .

و بالأمس كنت أقرأ فى كتاب الهوامل والشوامل ، فرأيت فيه أن أبا حيان التوحيدى سأل مسكويه عن السبب فى أن المسألة الواحد يفتى فيها مُفْتٍ بتحليلها ، وآخر بتحريمها ، فأجاب مسكويه : بأن العبرة باختلاف الزمان أو المكان ، وأن الاجتهاد يواجه ذلك ، قال : على أن الاجتهاد فى نفسه تمرين

للعقل بدليل أن ملكا من الملوك لو أراد أن يلعب بالكرة والصولجان ما أهمنا نجح فى اللعب أو لم ينجح ما دام قد مرّن أعضاءه ، والحكيم إذا خبأ الشىء وطلب من الناس أن يبحثوا عنه ، فسواء وجدوه أو لم يجدوه فقد حقق الغرض ؛ والمشتغلون بالنظريات الهندسية والرياضية يكفيهم ما بذلوا من جهد فى حلها سواء أصابوا أم أخطأوا .

وعلى الجملة لا ينقذ المسلمين إلا فتح باب الاجتهاد الذى أغلقوه ، فضيقوا على أنفسهم واسعاً .

التسامح الديني في الإسلام

نعني بالتسامح الديني أن يكون لكل فرد في الأمة حق في أن يعتقد ما يراه حقًّا وأن تكون له الحرية في تأدية شعائر دينه كما يشاء، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء. ولننظر إلى الإسلام في ضوء هذا التعريف نر أنه من حيث مبادئه وتعاليمه الأصلية هو أرقى الأديان في تحقيق هذه المبادئ. والباحث في التسامح الديني في الإسلام مضطر أن ينظر إليه من ناحيتين: ناحية المذاهب المختلفة في الإسلام نفسه، وناحية نظرة الإسلام لأهل الأديان الأخرى.

فأما الناحية الأولى فالمسلمون في عهد نزول القرآن أي عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا إلا مذهباً واحداً ولذلك لا نتوقع أن يكون في القرآن نفسه نص على التعامل بين المذاهب الإسلامية المختلفة. قد يكون هناك بينهم اختلاف في الاجتهاد أو اختلاف في تطبيق المبادئ الإسلامية ولكن لم يتعد هذا أن يكون في مسائل جزئية لا ينطبق عليها كلمة مذهب. وهناك أقوال مأثورة تدعو إلى التسامح مثل ما شاع بين المسلمين «اختلاف أمتي رحمة» وكان هذا سبباً في سعة الصدر بين أهل المذاهب المختلفة من حنفي وشافعي ومالكي الخ ... ومثل ما روى عن الشافعي من قوله: «مذهبي صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب» وهو قول لطيف يدل أيضاً على قدر كبير من التسامح. ومن هذا القبيل أيضا ما شاع بين المسلمين من قولهم: «لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب غيرَ مُسْتَحِلّ» أي أنه لا يكفر مسلم بارتكابه ذنباً ما دام غير مستحل له، وأولى من ذلك أنه مهما اختلف المسلمون في المذاهب والآراء والأقوال فيما هو محل للاجتهاد والنظر، فلا يصح أن يكفَّر أحد منهم.

أما نظر الإسلام إلى الأديان الأخرى فهو نظر سمح، فقد سمى اليهود

والنصارى أهل كتاب ، وسمّاهم أهل الذمة ، وهما تسميتان فى منتهى اللطف . والآيات التى وردت فى القرآن فى أهل الكتاب تدل على قدر كبير من التسامح خصوصاً فى العهد المكى ، فيظهر أن اليهود والنصارى قابلوا الإسلام فى العهد المكى بشىء من حسن الاستقبال ، فكان القرآن فى ذلك العهد سمحاً كريماً ، وقد بنى فى أساسه على أن القرآن يؤيد الكتب السماوية الأخرى و يتفق معها فى أغراضها ، وأن الشريعة الإسلامية وارثة لما قبلها ومكملة لتعاليمها « والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير » ؛ « ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » . والإسلام يعترف بنبوة الأنبياء السابقين كنوح و إبراهيم و إسحاق و يعقوب وداود وسليمان و يوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى و إلياس . و يقرر أن أساس تعاليمهم واحدة وكلها من عند الله ، فلا غرو بعد ذلك كله أن يكون الإسلام سمحاً مسالماً حتى لقد نصح أتباعه بأنهم إذا دخلوا فى جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين ، جادلوهم بالحسنى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم و إلهنا و إلهكم واحد ونحن له مسلمون » . بل نرى فى العهد المدنى ، فى أول الأمر مثل قوله تعالى : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا و إن تولّوْا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » . وقوله : « قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . ولكن يظهر أن اليهود والنصارى فى العهد المدنى ، بعد ذلك وقفوا أمام الدعوة الإسلامية يهاجمونها ويضعون الخطط لخنقها و يتحالفون مع الوثنيين فى الكيد لها والنيل منها فاضطر الإسلام أن يقابل الشدة بالشدة والكيد بالكيد ، فعلت نغمة القرآن فى التنديد بأهل الكتاب ووصف أساليبهم القديمة وخاصة

اليهود وما فعلوه مع أنبيائهم ... فكان موقف المسلمين منهم موقف المدافع لا المهاجم ، ومع ذلك فقد سمح لليهود والنصارى أن يؤدوا شعائرهم فى المدينة ، ونصح الرسول معاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمين بألا يكره يهودياً على الإسلام ، وفى كتابه إلى نصارى نجران سمح لهم أن يؤدوا شعائرهم وأن يتبعوا دينهم وأن تحفظ لهم كنائسهم وألا يتدخل فى شئونهم ما وفوا بعهودهم .

وسار الفقهاء من المسلمين على هذه التعاليم فى فقههم من حسن معاملة أهل الكتاب ، وأن يكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، بل لما فتحت فارس عومل أتباع زرادشت معاملة أهل الكتاب ، ولئن قسا الإسلام بعض الشىء على الوثنيين دون أهل الكتاب ، فلأنه يرى أن الوثنية انحطاط فى الإنسانية يجب علاجها ، وانتشال الإنسانية من حضيضها ، وعلى هذا سار المسلمون فى أكثر تاريخهم على حسن معاملة أهل الكتاب ، يحمونهم ما دفعوا الجزية ، ويسمحون لهم بالعبادة فى بيعهم وكنائسهم ، وهذه الجزية إنما شرعت بدل تجنيدهم لأنهم لا يأمنون جانبهم إذا جندوا ، ولا يثقون بغيرتهم الحربية ، فليدفعوا بدل القتال شيئاً من المال لحمايتهم . ولو قرنت معاملة المسلمين فى دولهم لليهود والنصارى بمعاملة النصارى للمسلمين فى دولهم ، لتبين إلى أى حد كان التسامح عند المسلمين ، وفقدانه عند النصارى ، حتى ليصح للمسلمين أن يفخروا بتشريع الفقهاء الأولين فى معاملة أهل الذمة ، وبتطبيق ذلك عليهم فى مختلف العصور .

* * *

نعم حدث فى التاريخ أحداث كثيرة لا تتفق وهذا التسامح الكريم ، ولكن إذا دققنا النظر فيها وجدناها ترجع إلى أسباب أكثرها غير دينى ، سواء فى ذلك الاضطهاد الذى حدث بين المذاهب الإسلامية بعضها وبعض ، أو بين المسلمين وغيرهم من اليهود والنصارى . من أهم هذه الأسباب : السياسية ، فالنزاع بين الحكومة الإسلامية والخوارج فى العهد الأموى وصدر العباسيين سببه أن

الخوارج بتعاليمهم يريدون أن يتولى الحكم أصلح الناس ولو كان عبداً حبشياً ، ولا يعترفون ببيت أموى ولا بيت عباسى ، ويريدون أن يصلوا إلى مبدئهم بالقوة ، فاضطرت الحكومة الأموية والحكومة العباسية أن تحفظ كيانها ، وتحمى بيتها فى الخلافة بمحاربة الخوارج والقضاء عليهم ، وهذا سياسة لا دين .

وانظر إلى النزاع الحاد ، والدماء المسفوكة بين السنية والشيعة طول العهد الأموى والعباسى ، وبعد ذلك ، وما جرى بسببه من دماء تجرى أنهاراً ، تجد سببه أن أهل السنة من أمويين وعباسيين وغيرهم يرون الحق فى خلافتهم ، ويرى الشيعة أن لا حق لهؤلاء فى الخلافة ، وإنما الحق لأهل البيت ، وكلٌّ يعمل على أن يصل إلى حقه بقوة السلاح ، فالنزاع إذن نزاع على من يتولى الحكم ، وهذه سياسة لا دين . وأحياناً يقوم بالدعوة الدينية رجال يدعون إلى مذاهب هدّامة ، ويتسترون باسم الدين ، وتخشى الحكومة إن سادت تعاليمهم أن تنهار قوّتها ، فتضطر إلى محاربتهم ، وشكل الحرب شكل دينى ، وحقيقته حقيقة سياسية ، وكثير ممن خرجوا على الدولة العباسية كانت حقيقة أمرهم الرغبة فى إعادة الحكم للفرس ككثير ممن قتلوا تحت ستار الزندقة فى عهد المهدى العباسى ، وبتهمة المانوية ، وقد يستثنى من ذلك الاضطهاد الذى حدث من المأمون والواثق لمن لم يقولوا بخلق القرآن ، فقد كانت هذه نظرة دينية خاطئة من المأمون ، إذ ظن أن من لم يقل بالاعتزال وبخلق القرآن فقد أفسد دينه ، فهو يريد إصلاح العقيدة قسراً وقهراً كما فعل المسلمون الأولون إزاء الوثنيين ، وهذا خطأ فى التفكير نتج عنه أضرار جسيمة للمسلمين .

ومن العداء السياسى ما كان بين الدولة العثمانية والدولة الإيرانية ، فالعداء بينهما عداء سياسى اتخذ شكلا دينياً . يريد العثمانيون الأولون أن يمدوا سلطانهم على الفرس ، ويأبى الفرس إلا أن يحتفظوا باستقلالهم ، فيؤول ذلك إلى البغض الذى بلغ

مداه فى عهد السلطان سليم الأول حتى كان من اضطهاده للشيعة فى مملكته أن قتل وسجن ما يقرب من أربعين ألفاً . ولكن من الخطأ تحميل الدين جرائر السياسة بدليل أن كثيراً من هذه الخصومات السياسية حدثت بين أمم إسلامية مختلفة تعتنق عقيدة واحدة سنية أو شيعية ، و إنما كان الخلاف بينها على السلطان وسعة الحكم ونحو ذلك .

ولسنا ننكر أن كثيراً مما حدث فى التاريخ من اضطهاد المسلمين للنصارى واليهود ، كان ناشئاً عن كراهية دينية وغيرة إسلامية ، ولكنها كانت غيرة عمياء من بعض من أصيبوا بضيق النظر ، وفهم الدين فهماً خاطئاً أوكان رداً لما يبلغهم عن اضطهاد المسيحيين للمسلمين ، فيضطرون أن يعاملوهم معاملة المثل جزاءً وفاقا ، ولكن من الظلم أن نحمّل الدين الإسلامى هذه الأخطاء أيضاً .

وأحيانا يكون السبب فى اضطهاد المسلمين لليهود والنصارى سبباً اقتصادياً ، فكثيراً ما كان يحدث أن تولى الحكومات الإسلامية بعض اليهود والنصارى زمام الأمور المالية فى الدولة فيسرفون فى تعيين أقاربهم وأصهارهم فى الوظائف المالية كما يسرفون فى بذل المال لهم ، و بعد قليل ينظر المسلمون فيرون أن الغنى والترف ، وحياة الفخفخة ، والأبهة والعظمة ، فى جانب اليهود والنصارى ، وحياة البؤس والفقر فى جانب المسلمين ، فيثور ثائرهم ، و يحطمون هذا الوضع الاقتصادى الظالم ، كما حدث ذلك فى العهد الفاطمى . وقد كانت الدولة العثمانية فى أول أمرها من أكثر الدول تسامحاً لرعاياها من اليهود والنصارى ، ومنحتهم من الامتيازات ، ما لم يعهد له نظير فى الدول الأخرى ، ولكن انقلبت هذه الامتيازات ، معاول لهدم الدولة العثمانية ، واتخذت الدول الأجنبية من روسيا وانجلترا وفرنسا وغيرها ، هذه الامتيازات التى لرعاياها وسيلة لنشر الدسائس وتدبير المؤامرات ، وخلق الفتن ، فاضطرت الدولة بعدُ إلى استعمال كثير من العنف دفاعاً عن كيانها ، ومواجهة لنقض الدسائس التى تحاك حولها ؛ وكل هذا سياسة لا دين .

وأحياناً يكون سبب القتال والخصام ، تجارة رؤساء الدين ، فيرون أن قوة مركزهم ، و بسطة نفوذهم ، متوقفة على تعصب عوامهم ، فهم يستغلون ضيق نظر أتباعهم ، و يبثون فيهم روح التعصب حفظاً لمركزهم ، ونفوذهم وسيطرتهم ، علماً منهم بأنه إذا ساد التسامح ، وكان الناس إخواناً ، فقدوا عزتهم الوهمية ، ومكاسبهم الفانية ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

* * *

و بعدُ فإن أوروبا مع تقدمها في فهم الحرية ، وجدها المتواصل في بناء حياتها على العلم لا على العواطف ، ما زالت بعيدة عن تحقيق التسامح الديني بالمعنى الذي شرحناه في صدر المقال ؛ فبالأمس قرأنا كيف فعل هتلر بيهود ألمانيا وقرأنا كيف اضطهد الشيوعيون الدين وحاربوا شعائره ، ونقرأ في الصفحات الأخيرة كيف حاربت أوربا المسلمين العرب في فلسطين ، ونصرت اليهود عليهم ، وعرفنا كيف تخلط أوربا المنزعة السياسية بالعواطف الدينية في معاملتها للمسلمين .

وأخيراً فهل للمسلمين أن يشتد وعيهم القوى ، و يفهموا بعد طول هذه التجارب التي ذكرنا بعضها أنه لم يعد هناك وجه للخلاف بين سني وشيعي وزيدي وغير ذلك من المذاهب ، لأنهم لو رجعوا إلى أصل دينهم ما وجدوا لهذا الخلاف محلا ولوجدوا أنه خلاف مصطنع لا خلاف أصيل ، وأن الأمم الإسلامية في موقفها الحاضر أحوج ما تكون إلى لم شعثها و إصلاح ذات بينها ، وتوحيد كلمتها ، وهي ترى كيف تُهاجَم من كل جانب ، و كيف يتخذ إسلامها وسيلة من وسائل الكيد لها ، و إذا اتحد أهل الباطل على باطلهم ، فأولى أن يتحد أصحاب الحق على حقهم .

ما نعلم وما لا نعلم

وقف مرة الأستاذ آينشتاين العالم الكبير عند درج صغير فى أسفل مكتبته وقال : « إن نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم ، كنسبة هذا الدرج إلى مكتبتى » ولو أنصف لقال : إنه أقل من هذه النسبة . فإنا لا نعلم أى شىء هو ؟ إنا نعيش فى عالم مملوء بالحقائق والقوى ، ولا نعلم أى شىء هى ؟ وهذا فى الدنيا التى نعيش فيها ، ونلمسها ونزاول شئوننا فيها ، فكيف بالعوامل الأخرى البعيدة عنا ؟ نقول إن العالم مكون من ذرات ، ونقول إن الذرة مكونة من إليكترونات ، أو من نواة وشحنة كهربائية سالبة وموجبة ، و يتغير رأينا فى تكوين الذرة بمعدل مرة فى كل أربع سنوات ، ونتبجح فنعمل من الذرة قنابل ذرية ، ونحن لا نعلم عن حقيقتها شيئاً ، نقول إن الأجسام تسقط لقانون الجاذبية ، والمصباح يشتعل بالكهرباء ، ونسخر الكهرباء فى إيجاد الحرارة والبرودة والحركة ، و إيجاد الأمواج واستقبالها ، ولكن ما الكهرباء ؟ لا نعلم عن حقيقتها شيئاً ، و إنما نعلم كيف تستخدم ، بل الحياة نفسها لم نعرف حقيقتها ، و إن كانت تسكن فينا . وكل ما حولنا لا نعلم حقيقته و إنما نعرف أعراضه ، و بعبارة أخرى نعرف « كيف » ولا نعرف « ما » و « لماذا » .

ما الحب ، ما الجمال ، ما القبح ، ما الحرية ، ما كل شىء معنوى ؟ كل هذه لا نعرف عن حقيقتها شيئاً ، وكل ما يستطيعه العقل أن يعرف صفاتها . ما الدين ، ما الخوف ، ما الأمل ، ما الشجاعة ، ما الفضيلة ، ما الرذيلة ؟ لا شىء غير الصفات .

قد نعلم أن اثنين واثنين أربعة ، ثم نعلم أجزاءها ومضاعفاتها ، أما سائر الأشياء فنعرف أعراضها ولا نعرفها ، وكأنا منحنا عقلا ليس من طبيعته أن يعرف شيئاً عن الحقائق وكل الذى يعرفه الإنسان لو كان ذكياً أن يوجه سلوكه

فى الحياة حسب طبائع الأشياء وحقائقها . ولذلك أنصف أصحاب مذهب البَرَاجْماتِزْم إذ أنكروا قدرة العقل على معرفة الحقيقة ، وقصروه على معرفة الوسائل للغايات .

والذين يشتغلون بالعلوم ويقولون إنهم وضعوا قوانينها كقوانين الجاذبية وقوانين الطبيعة والكيمياء ، لا يزعمونها شرحا للحقائق ، ولكن شرحا لأوصافها ، وحتى هى شرح لصفاتها الظاهرة ، لا صفاتها الباطنة . إنك تقول إن فلانا يحبنى وفلانا يكرهنى ، ولكن ، ما حقيقة الحب والكره ؟ لا نعرف ! قد تكون معرفة الفن أسهل من معرفة العلم ، أو بعبارة أخرى أسهل من معرفة الحقيقة ، لأن الفن عمل ، والعلم فهم ، ونحن على العمل أقدر منا على فهم الحقائق ، ولذلك سهلت الحياة ، لأنها فن ، وصعبت معرفة الحقائق ، لأنها علم ، إنك تستطيع أن تعلم أنك إذا صنعت القطار على نمط صحيح لا يصطدم ، ولا تخرج عجلاته . وتستطيع بقدر الإمكان أن تتقى الأحداث ، وتستطيع أن تترقب النجاح فى عمل إذا سرت فيه سيراً حسناً ، لأن هذه كلها فن لا علم ، وحتى أنت فى هذه عرضة للخطأ ، فقد يحدث ما ليس فى الحسبان ، ويخرج القطار عن القضيب ، ويصدم بجاموسة مرت عرضاً فى الطريق ، وتصطدم سيارتك بما لم تقدِّر مطلقاً أنها تصطدم به . فكيف الحقائق المجهولة ؟

إن كان ذلك كذلك ، فكيف نأمل أن نعرف العقل والنفس وحقيقة الشعور وما إلى ذلك ، كل ما نتحدث به عن هذه الأشياء ألفاظ جوفاء ، وتشدق سخيف ، لا حقيقة وراءه ، ولو أنصف مؤلفو المعاجم ، ومحاولو التعريفات ، لكفوا عن ذلك ، لأنهم لا يصلون إلى حقيقته ، وإنما يدورون حول أنفسهم ، ولو دققت النظر فى تعريفاتهم ، لوجدتها تعريفاً بالمثل لا تعريفاً بالحقيقة ، وأكثر الناس يعيشون بعقيدتهم لا بعلمهم ، وبخرافاتهم وأوهامهم لا بعقلهم ، فكيف وعقلهم لا يدرك حقيقة ما حوله ؟ إن كان هذا حقاً ، فكيف يحاول العقل الإنسانى البحث

عن الله ؟ إنه يكون كقوم لم يعرفوا أرضهم ، فبحثوا عن المرّيخ ، أو لم يعرفوا ما أمامهم ، فحاولوا أن يعرفوا ما فوقهم .

ويعجبنى ما ينسب إلى الإمام على كرم الله وجهه فى الله تعالى : « إنه لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحجبه السواتر ، لا بذى عِظَم تناهت به الغايات ، فعظمته تجسيداً ، ولا بذى كِبَر امتدت به النهايات فكبّرته تجسيما » .

كما يعجبنى قول ابن أبى الحديد :

والله لا موسى ولا عيسى المسيح ولا محمدْ
علموا ولا جبريل وهو إلى محل القدس يصعد
كلا ، ولا النفس البسيطة لا ، ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أنك واحدىّ الذات سرمد
فلتخسأ الحكماء عن حرم له الأفلاك سُجّد
من أنت يا رسطو ومن أفلاطُ قبلك يا مُبلّد
ومن ابن سينا حين مرّد ما بنيت له وشيد
هل أنتم إلا الفراش رأى الشهاب وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشَداً لأبعد

* * *

وقوله أيضاً :

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر قليلا
أنت حيرت ذوى اللبّ وبلبلت العقولا
كلما أقدم فكرى فيك شبراً فرّ ميلا
ناكصاً يخبط فى عمياء لا يهدى السبيلا

وفى مثل ذلك من الحيرة — أقرّ — ابن سينا بعد طول ما أجهد نفسه فى فلسفته ، وفخر الدين الرازى بعد ما أطال فى تأملاته ، بالعجز عن معرفة الموجود الواجب الوجود ، بل أقرّا مع هـذا بالعجز عن معرفة حقائق هذا الوجود ، وأسفا أنْ صرفا حياتهما فى غير طائل ، ورجع كل منهما بعد طول السفر خاوى الوفاض ، وقالا : إنهما لو استقبلا من أمرهما ما استدبرا ، لما صرفا حياتهما فى شىء باطل ، ووهم واهم .

ما أعجز الإنسان ، يجهل كل ما حوله ، ثم هو يؤلف كل هذه الكتب التى لا عداد لها ، ثم يفتخر بها ، ولو أنصف لخجل منها ، وحرق أكثرها ، والأعجب من ذلك هذا الغرور الذى يستولى على بعضهم ، فيزعم أنه العالم النحرير ، والفيلسوف الكبير ، أو يزعم أن عقيدته التى اعتقدها حق لا باطل فيها ، وعقيدة غيره باطلة لا حق فيها . فما هذا الحق الذى يتباهون به ، و يتعصبون له ، و يملؤون الدنيا فخراً به ، و يعيبون غيرهم بالصد عنه ؟ كلا ليس فى أيديهم حق بحت وليس يعلم الحق إلا الله ، يعلم ما ظهر وما بطن ، و يعلم السر والعلن . أما غيره فلا يعلم إلا سرابا بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

الأدب الشعبي

بين الحرفشة والفصحى

من قديم اشتهرت مصر بالأدب الشعبي ، حتى ليمكن تحديد سلسلة من الأدباء الشعبيين . وذلك من شعر خفيف لطيف ، كشعر الجزار ، والبها زهير ، أو زجل ظريف ، أو نكت رائعة ، كالذى اشتهر به ابن دانيال الموصلى ، وابن سودون ، والشربينى ، والمسرحيات والقصص الشعبية التى كانت تمثل فى خيال الظل .

هذا كله قديماً ، وفى الحديث اشتهر الأدب الشعبي بالزجل أيضاً ، وبالنكت الظريفة ، وكان الشيخ حسن الآلاتى رجلا كفيفاً من أصل تركى ، يلبس العمامة ، ولها عدبة على قفاه ، وله قهوة فى حى السيدة سكينة تسمى المضحكخانة ، يقصد إليها العظماء والأمراء ، ليضحكوا من نكته . وكان يحضرها عبد الله (باشا) فكرى ، وغيره من العلماء . وكانت أكثر نكته من قبيل المفارقات ، مثل : « البردان يقلع عريان » . واشتهر بعده عبد الله نديم وكان ماهراً فى الزجل ، وكان يخرج مجلتى الأستاذ ، والتنكيت والتبكيت ، بعضهما باللغة العامية ، و بعضهما باللغة الفصحى . وكان إذا نازل الأدباتية غلبهم . وأقيمت بعض الحفلات للمبارزة الزجلية ، كالمبارزة بالعصى والسلاح . وحكى هو نفسه ، منازلة كانت بينه و بينهم فى طنطا ، وانتصر فيها على حد قوله . واستمرت هذه السلسلة ، فجاء بعده توفيق صاحب « حمارة منيتى » وكان الشعب يتلقفها لخفة روحها ، ثم كانت الصاعقة لأحمد فؤاد ، والسيف لحسين شفيق ، رحمهما الله .

***

والذى يقارن بين هذه المجلات ومجلات اليوم يرى أن المجلات القديمة كانت

تميل إلى الفحش والأدب المكشوف ، ثم ارتقى الذوق ، فمالت إلى الأدب المستور ، وقلة الفحش . وظاهرة أخرى هى أن المجلات القديمة كانت تهتم بالنكت اللفظية ، ثم صارت تميل إلى النكت الغامضة التى تدل على الذكاء .

وفرق ثالث وهو أنها كانت تصرح بالأسماء ولا تخشى جرح عواطف أصحابها ثم سترت الأسماء ، واكتفت بالنكت نفسها ، أو برموز حرفية . وكانت اللغة الشعبية مملوءة بما يسميه ابن خلدون «الحرفشة» وهى الجفاف والخشونة والابتذال . ثم ترقت اللغة الشعبية برقى أصحابها من جهة ، وبالإذاعات السهلة التى تناسب عقول الشعب . وأحياناً بالإذاعات العامية ، كما يفعل الأستاذ فكرى أباظة ، وما زالت اللغة الفصحى تسهل . واللغة العامية ترقى وتصفو من الحرفشة حتى كادتا تتقاربان ، ويكاد لا يكون من فرق بينهما إلا الإعراب .

ونلاحظ أن اللغة العامية أحيى ، لأنها تستعمل فى البيوت وفى الشوارع ، وفى الأحاديث العادية ، وهذه أمور تكسبها حياة وقوة ، وهى ألطف فى النكت . فإذا حولت النكتة العامية إلى لغة فصحى سمجت ، كما تنبه إلى ذلك الجاحظ من قبل .

ومن ظرف اللغة الشعبية تهزيئها للنحو والصرف تهزيئاً ظريفاً ، وأقدم من عرفناه فى ذلك الشيخ حسن الشربينى فى كتابه « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » فهو مملوء بهذا النوع . وجرى على أثره الأستاذ الهيباوى رحمه الله فى كتاباته فى الكشكول وغيرها .

والناس عادة يتقبلون ما يكتب باللغة الشعبية قبولا حسناً ، لأن النبوغ فيها أبرع ، وهى لهم أنسب .

ولا يزال هناك أبواب من أبوابها حية مستعملة ، كالزجل الظريف ، والأغانى ، وخصوصاً ما يؤلفه الأستاذ أحمد رامى ، والأستاذ محمود بيرم التونسى ،

والأستاذ صالح جودت ، وما تغنيه لهم أم كلثوم ومحمد عبـد الوهاب ، فإن لأقوالهم معانى رائعة .

***

ولـكل أمة لغة شعبية تخالف لغة الأمة الأخرى ، فلغة مصر تخالف لغة الشام ، وهما تخالفان لغة العراق . وربما كانت اللغة المصرية أظرف وأرق ، كما يدل على ذلك المقارنة بين المجلات الهزلية فى الأمم المختلفة ...

ومن دليل إقبال الشعب على اللغة الشعبية أن الرواية إذا مثلت باللغة الشعبية أقبل عليها الجمهور إقبالا شديدا ، على حين أنها إذا مثلت باللغة الفصحى لم تجد لها مثل هـذا الإقبال . ومن الدلائل على ذلك أن بعض الـكتاب يتكلمون باللغة العامية ، أو باللغة الفصحى التى لا يميزها عن العامية إلا الإعراب ، فيقبل عليهم الجمهور ، ويستلذون حديثهم .

ومن مظاهر ذلك أيضاً ما نشاهده من فتح ركن للفلاحين فى الإذاعة يذاع باللغة العامية .

***

على كل حال نشاهد السير إلى الأمام فى تقرب اللغة العاميـة من العربية ، وتقرب العربية من العامية . وذلك بفضل الإذاعة ونشر التعليم ، وكثرة قراءة الصحف ، ومشاهدة السينما . والمنتظر أن يتم التوافق قريباً فتكون لدينا لغة واحـدة ، هى لغة فصحى ليس فيها شىء من الغريب ، ولغة عامية خالية من الحرفشة ، لا يميزها من العربية إلا الإعراب . وهذا الإعراب مشكلة لا بد من حلها ، خصوصاً ونحن قادمون على عهد يطلب فيه مكافحة الأمية ، وتعميم التعليم . ولا شك أن من أكبر العقبات فى ذلك الإعراب ، فما يمكن نشره من التعليم فى سنتين من غير إعراب ، لا يمكن نشره إلا فى خمس مع الإعراب .

ونحن نشاهد أن طلبة الجامعة — وقد أمضوا ثلاث سنوات فى رياض الأطفال ، وأربعاً فى التعليم الابتدائى ، وخمساً فى التعليم الثانوى ، وأربعاً على الأقل فى الجامعة — لا يحسنون القراءة والكتابة باللغة الفصحى . فما لم تعالج هذه المشكلة نظل متعثرين فى الطريق .

والتاريخ يخبرنا أن اللغات البدائية تبتدئ معربة ، وتنتهى فى تطورها إلى الإسكان . وما جرى عليها يجرى على لغتنا ، فالقانون الطبيعى يحارب أى استثناء .

خواطر فى الانقلاب الحديث

عشنا بين العهدين . . وكان أهم فارق نشعر به ، إحساسنا بالعبودية أولا ، وبالحرية ثانياً . قد كانت تكفى إشارة من البلاط لتنفيذ ما أراد مهما خالف القوانين ومهما استغرق من المال .

الفساد فى الجامعة

ومرت علىّ حوادث كثيرة شعرت فيها بهذا المعنى وأنا فى الجامعة . فمثلا أوحى إلينا فى مجلس الجامعة أن نمنح بعض الأجانب دكتوراهات فخرية ، وفتشنا فى هؤلاء الأجانب ، أى خدمة خدموا بها مصر ، أو أى نبوغ نبغوه فى علومهم ، فلم نجد . ومع ذلك انطلقت الأفواه البليغة فى الإتيان بالحجج والبراهين ، على استحقاقهم هذا الفخر ، واعترضت قلة قليلة فى المجلس ، وتأجلت المسألة من جلسة لأخرى ، ثم أخذت الأصوات ، فكانت الأغلبية العظمى فى جانب منحهم الدكتوراه ، والأقلية الضئيلة بجانب عدم منحهم . وكانوا يقولون : إنه إذا كان ولا بد ، فلتمنح الدرجة لبعض نوابغ المصريين الذين خدموا مصر خدمة حقيقية ، فنزل الوحى أيضاً بتشريد هؤلاء الذين يعارضون وعدم إبقائهم فى الجامعة ، وكان من ذلك ما كان .

وكانت إدارة الجامعة تطلب بعض الإصلاحات فى الأبنية أو الطرقات ، فلا يسمع لها كلام ، وتتكرر الطلب حتى يبح صوتها ، ولا فائدة ، ثم تأتى إشارة بأن الملك يريد أن يزور الجامعة ، فإذا كل الإصلاحات المطلوبة وأكثر منها تعمل فى سرعة البرق .

وهكذا وهكذا من مئات المسائل التى تدل على أن أمور الناس حتى فى الجامعات والبرلمانات لم تكن فى يدهم ، وإنما هى فى يد غيرهم .

العدالة الاجتماعية

كان نظام الطبقات فى مصر بالغاً حده ، فمترف غاية الترف ، يأكل أنعم الأصناف ، ويلبس أفخر اللباس ، وإن شاء أن يشعل لفافته بورقة مالية من ذوات المائة جنيه فعل ، وتتدفق الأموال الهائلة على الخمور والكباريهات وسائر الشهوات تدفقاً فظيعاً ، ثم إلى ذلك رجل يجلس بجانب صندوق القمامة ، ينقى قشر البطيخ ليسد به جوعه . ويلبس ثيابا مهلهلة لا تكاد تستر جسمه . فأعلن الانقلاب تحديد الثروة الزراعية ، والأخذ بيد الفقير ، والتشريع له ، حتى تتحسن حالته ، وإلى جانب ذلك أعلن أن الناس كلهم غنيهم وفقيرهم أمام القانون سواء .

ومن التقريب الذى أحدثه الانقلاب بين الطبقات ، إلغاء الرتب ، وتساوى الناس فى الألقاب . فإن لخصت كل ذلك فى كلمة ، قلت : إن الغاية من الانقلاب هى تحقيق العدالة الاجتماعية .

أعدل النظم

انتقلت القيادة من يد البلاط والبرلمان إلى يد الضباط ، وهذا شىء دعت إليه الضرورة . ولكن أملنا كبير فى أن الحالة تعود إلى مجراها الطبيعى ، وهو : أن تحكم مصر بدستور عادل وبرلمان حر نزيه ، فهذا هو الوضع الطبيعى للأشياء . فإن أمام مصر أهدافا داخلية ، وأهدافا خارجية ، على جانب عظيم من الأهمية . ومما لا شك فيه أيضاً أن وضع الأمور فى يد السياسيين المختصين والبرلمان الذى انتخب أعضاؤه انتخابا حراً نزيهاً هو أعدل النظم لحكم البلاد .

الشعور بالقدرة

كان من نتائج الانقلاب شعور البلاد بقدرتها ، فقد كانت حركتها رائعة حقًا ، أحدثت الانقلاب على أكبر قوة فى هدوء ونظام من غير إراقة دماء . وقد كان الظن أن القوة المالكة المائلة كانت قد تحصنت تحصناً كبيراً ، واتخذت العدد العديدة لكل الاحتمالات . فلما هزمت بلباقة ، أحس المصريون بقوتهم . والنجاح يدعو إلى النجاح ، فلما نجحت الثورة ، فتح ذلك نفوس الثائرين إلى أن يوالوا الحملات ، فحملة على الأغنياء ، وحملة على المرتشين ، وحملة لتعميم زراعة الأشجار ، وإصلاح الأراضى الزراعية ، وحملة لزيادة الإنتاج ، وحملة لتنظيم التعليم ، والصحة وغير ذلك . وكل هذا حسن وجميل . وقد بدأ وأخذ سيره الطبيعى فى زمن قصير .

إصلاح النفوس

ما أسهل تغيير الظواهر ، وما أصعب تغيير النفوس ! لقد ثرنا وغيرنا كثيراً من القوانين ، ولكنا لا نزال فى حاجة شديدة إلى إصلاح النفوس . لقد مضى زمن طويل ونحن نقدس الحاكم ، وننظر إليه كما عبر المرحوم سعد باشا نظرة الطير للصائد ، فما أحوجنا إلى أن ننظر إليه نظرة الأخ الكبير الذى يرعى أخاه الصغير ويأخذ بيده ، حتى يقف على قدميه .

ومع كل ما عمل من إصلاحات ، فأكثرها مع الأسف لم تتشرب به أرواحنا . ألغينا الألقاب ، ولا تزال على ألسنتنا الألقاب ، واختفت الألقاب فى المجلات والجرائد والمكاتبات الرسمية ، وظلت فى الأحاديث الخصوصية . ودعونا إلى غرس الأشجار ، وتربية الدواجن تربية على أحدث طراز وغير ذلك من أنواع الإصلاح . ولكنى أخشى أن يكون ذلك كله أمراً شكليا . وهندمنا

الأرستقراطية وأحيينا الديموقراطية ، ولكن ، لا يزال فى باطن الناس اعتبار أرستقراطية الغنى والمنصب والجاه ، ولا زلنا فى حاجة شديدة إلى أن نفهم معنى الديموقراطية الصحيح . وهذا طبيعى ، لأن تغيير النفوس بين يوم وليلة محال . فلا بد أن يمضى زمن حتى تكره القديم وتألف الجديد . وأخشى ما أخشاه أن يتدرجوا إلى القديم شيئاً فشيئاً ، بدل أن يتخلوا عنه شيئاً فشيئاً .

— دق الطبول

لقد لاحظت آسفا أن دق الطبول كثير ، وصوت المعارضة ضعيف ، وهذا مما يؤيد قولى السابق إن النفوس لم تتغير تغير الظواهر . وكان الظن أن كابوس الاستبداد قد زال بتحرير الأفكار ، وإطلاق الألسنة المؤدبة بالنقد . ولكن حدث أن رجعنا إلى القديم ، وأصبحنا كلنا طبالين زمارين ، وهو شىء كما قلنا يؤسف له ، لأن الحياة الصحيحة تبنى على أساسين متعارضين ، لا على أساس واحد ، وهما التأييد والمعارضة . وسير الأمة سيرا صحيحا من بينهما . وقد تعلمنا من تركيا درساً قاسيا وهو أنه قد أخفت صوت المعارضين ، ولم يبح القول إلا للمؤيدين ، ففشا الفساد واضطربت الأمور . وأدرك العقلاء خطأهم بعد حين . فهل يمكننا أن نتعلم من هذا الدرس ؟

نعم : إن هناك عذرا للقائمين بالأمر ، وهو أن الثورة والانقلاب عادة يضران بأناس كثيرين ، أغنياء ضعف غناهم ، وذوو سلطات غير مشروعة قلت سلطاتهم ، ووجهاء فقدوا جاههم ، وأصحاب مناصب كبيرة فقدوا مناصبهم . . كل هؤلاء وأمثالهم قد ينقمون على الانقلاب الذى حرمهم من امتيازاتهم ، ويتمنون الفرصة التى تسنح لإعادة حالتهم إلى ما كانت عليه . بل قد يتعدون انتهاز الفرص ، إلى الاشتراك فى العمل المضاد ، فمثل هؤلاء إذا أرخى الحبل لهم ، عاثوا فى الأرض

فسادا حتى يعيدوا الأمور سيرتها الأولى ، و إذا بنا فى وضع سيىء كالذى كان .

إزاء ذلك لابد من أن نقول كما يقول الفقهاء الأقدمون : « إن الضرورات تبيح المحظورات » وهذا قول صحيح . ولكن نقول مخلصين ، كما قال الفقهاء أيضاً : « إن الضرورات تقدر بقدرها » ليحسب حساب الخطر بقدره فقط ، و يحسب بحساب زمنه فقط ، حتى لا تزيد معالجته ولا تنقص . وهذا مطلب عسير .

جمهوريتنا الأولى

من كان يظن أن مصر التى حكمت آلاف السنين من عهد الفراعنة إلى اليوم بالملوك المستبدين — إلا قليل منهم — تستطيع أن تتخلص منهم فى عشية أو ضحاها وتنقلب جمهورية ؟ لقد حكمها الملوك واستبدوا بأهلها وأذلوهم واستغلوهم ، وكانوا كما قال أبو العلاء المعرى :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

كانوا ينعمون فيها بكل مظاهر الترف والنعيم ويستغلونها بكل أنواع العسف ويعدون مزارعها وقصورها من أملاكهم الخاصة ، كما يعدون الناس عبيداً لهم ، وكانوا يختارون من تخضع لهم رقابهم ويقبلون أيديهم وأرجلهم ، ثم هم يحكمونهم فى رؤوس الناس جزاء خضوعهم لهم ، وأشاعوا أن الدم الذى يجرى فى عروقهم غير دماء الناس ، وأنه دم إلهى اختاره الله لهم ، واستحثوا العلماء على وضع الأحاديث التى تؤيدهم مثل « السلطان ظل الله فى أرضه » ووجهوا خطباء المساجد أن يدعوا لهم على المنابر ويشيدوا بذكرهم . ويكفى الملك أن يتظاهر أمام الناس بصلاة الجمعة وباللعب بحبات السبحة حتى يلقبوه بالملك الصالح مهما يرتكب بعد ذلك من الآثام . ويكفى أن يمنحهم منحاً قليلة ليسبحوا بحمده ويشيدوا بذكره ، وما دروا أنه إنما يمنحهم عرق جبينهم أو عرق جباه أمثالهم ، ومما استغله من أموالهم . حتى لقد أسسوا ملكهم على مدى الأيام وأصلوا سلطتهم على مدى الزمان فما كان أعظم ألقابهم وأروع نعوتهم . وأفسدوا الأدب واللغة فكان الأديب الكبير هو من تملقهم ، والخطيب البارع من أشاد بذكرهم ، وملئت اللغة بألفاظ الضخامة والفخامة ونعوت الذلة والخضوع . . ولذلك تأصلت فى الأمة

كل هذه الآثار . وبرغم إلغاء الألقاب والرتب ، لا تزال تجرى على ألسنة الناس ، ولا بد من أجيال طويلة حتى تختفى « سعادتك وعزتك » .

وقلدهم الأغنياء فخضعوا للملوك ليستذلوا بقية الرعية ، وبذلك انقسم الناس إلى طبقات يستعبد بعضها بعضاً . . فحملت الجمهرة الكبرى من الشعب ممن فوقهم أثقالا فوق أثقال .

وجاءت أخيراً الجمهورية التى لا عهد للناس بها . . والجمهورية فى أسمى معانيها ترمى إلى أن يكون الناس سواء ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح ، وأن يقال للمحسن أحسنت ، وللمسيء أسأت ، وأن تقدر الناس بالكفاءات لا بالرتب . وهى تتطلب مطالب عسيرة لا عهد لنا بها ، تتطلب انتباه الوعى القومى حتى يميز جيداً بين الحسن والسيئ ، وتتطلب تغيير العلاقة بين الحاكم والمحكوم : لقد كان المحكوم ينظر إلى الحاكم كما ينظر الطير إلى صائده ، وينظر الحاكم إلى المحكوم كما ينظر الصائد إلى الطير والمستغل إلى الغلة . والجمهورية تتطلب أن يزول كل ذلك ، وتحل محله نظرة الأخ إلى الأخ ، وتتطلب أن يؤدى كل واجبه فى أمانة وإخلاص ، وأن ينظر الحاكم إلى أن الوظيفة تكليف لا تشريف ، وأنها عبء ثقيل عليه يتمنى لو حمل عبئها غيره واستراح . وأن يكون من تنبه الوعى القومى ما يستطيع معه الرجل الصغير أن يقول للرجل الكبير أسأت أو أحسنت فى أدب ولباقة ، ومن لنا بكل ذلك بعدما عانيناه آلاف السنين إلا بمشقة كبيرة وتربية جهيدة .

* * *

وعلى ذكر ذلك نرى أن الجمهورية فى أشد الحاجة إلى تغيير مناهج التربية وأساليبها وتعاليمها . . فقد تعودنا أن نبنى التاريخ على الملوك ، وأما الشعب فمهمل فى كتبه ، ولذلك نقلب صفحات التاريخ فلا نرى إلا ملوكا يسالمون أو يحاربون ، ويقتلون أو يصادرون ، ولا يرتفع صوت لتنبيههم إلى أخطائهم ، وبين جملة من

الصفحات نرى فلتة من الفلتات تشير إلى الشعب . . فما أحوجنا إلى كتب تعلم الشعب أنه هو كل شيء والحاكم ليس إلا خادماً له ، أو كتب فى التربية تنشىء التلميذ من الصغر على أنه إنسان ذو حقوق وواجبات يطالب بحقوقه و يثور لها إذا أهملت ، و يؤدى واجباته على أكمل وجه . لقد سمعت أن أميراً قريب العهد أراد أن يجرب مدفعاً وأمر بإطلاقه ، فقيل له إنه إذا أطلق هكذا تقتل بعض الناس ، فقال : « وهل نحن استلمناهم بعدد » كأنهم سلع لا قيمة لها .

لقد بلغ من ذلنا واستبداد الملوك بنا أن ضاعت نفوسنا فى الداخل وصغرت قيمتنا فى الخارج ، فكان المسافر منا يذكر أنه مصرى فى ذلة وخضوع ، و يحس كأن وصمة علقت به ، فسيكون من أثر الجمهورية الصالحة عزة النفس وارتفاع الرأس والإحساس بأنه إذا قال أنا مصرى ، كان ذلك فخراً له وعزة لنفسه .

إن الجمهورية حرية ، ولكنها حرية مقيدة بالعمل للمصلحة لا فوضى يفعل الإنسان فيها ما يشاء .

لقد كان الملوك يظنون أنهم ملوك إلى الأبد ، وأنهم إن أدركهم الموت خلفهم أبناؤهم وأبناء أبنائهم إلى القيامة ، وأنهم لا يسألون عما يفعلون ، وأنهم ليسوا فى حاجة إلى حكم الشعب رضى أم سخط . أما الجمهورية فمن أهم فضلها أن رئيسها يعتقد أنه من الشعب ، وأن بقاءه رهن برضا الشعب . . لأنه يعرف أن الناس إن سخطوا عليه لم ينتخبوه ثانية ، و إنما ينتخبون من يظنون أنه يحقق مطالبهم وينشر العدل بينهم — والعدل يراعى من الجانبين : الحاكم والمحكوم — فهو لا يستند إلى أسرة عريقة تصعب إزالتها و إنما يستند إلى رضا الشعب الناشىء من العمل الصالح .

* * *

والعالم سائر من الملكية إلى الجمهورية ، وكل يوم نسمع أن ملكية سقطت ، وحلت محلها جمهورية بسبب تعسف الملوك وتنبه الرعية ، وحتى ما احتفظ منها

بالملكية كانجلترا إنما احتفظت بها لأن الملك فيها يملك ولا يحكم ، فهى ملكية في الظاهر جمهورية فى الحقيقة .

وأسخف أنواع الحكم حكومة تتسمى بالجمهورية وتتصف فى الباطن بالملوكية ، فتعسف وتظلم وتجور وتستبد ، ولا يبقى لها من الجمهورية إلا اسمها ، وما فرحنا بالألفاظ إذا ساءت المعانى ؟

إنا لنود مخلصين أن تكون جمهوريتنا الأولى واضعة الأساس الأول ، وأن تكون جمهورية لفظا ومعنى .. إن الجمهورية تحتاج إلى سند قوى متين كما كان الملوك يحتاجون إلى سند قوى متين . إن الملوك استعانوا بالمنافقين من رجال الدين يسبحون لهم ويكبرون ، واستعانوا برجال الحكم يخضعون لهم ويقبلون أيديهم نظير نشوب أظافرهم فى أعناق الناس. والجمهورية الصحيحة تحتاج إلى مساعدة من الصحافة ، تقف موقف المحامى النزيه والقاضى العدل ، فتخطىء ما رأت من الخطأ ، وتؤيد بشجاعة ما ترى من صواب ، وتنقد فى قوة ونزاهة . كما تحتاج إلى معونة رجال الفكر والقلم يوجهون رجال الحكم فى الجمهورية الوجهة الصحيحة ، ويخذلون تصرفاتها السقيمة .

* * *

ا لم تقم حكومة من الحكومات فى أى شكل من أشكال الحكم إلا بالاعتماد على الرأى العام . ولا قيمة للرأى العام إلا إذا كان حراً نزيهاً لا يطبل ويزمر لكل حاكم فى دولته ، بل يقول لا ، فى موقف لا ، ونعم فى موقف نعم .١

أظن أننا لا نحتاج فى تعودنا حكم الجمهورية إلى زمن كالذى اجتزناه فى الخضوع للملكية ، فقد أصبح الزمن أسرع والأمم أوعى وأصبح العالم كوحدة من سرعة التنقلات والإذاعات .. فكل ما يجرى فى أمة يعلمه العالم ويؤيده أو ينقده ويشجع على بقائه أو فنائه . وهذا ما يجعلنا نحس مسئوليتنا ، فلسنا فى جانب منعزل نعمل كما نشاء وننتظر حكم الزمان كما يشاء ، إنما أمورنا مكشوفة لنا ولغيرنا معرضة للحكم منا ومن غيرنا ، ولا قيمة فى ذلك للألفاظ الجوفاء والعبارات الصماء إنما القيمة للعمل ، فالعمل العمل ، والله الموفق .

غيروا مناهج الفن والتاريخ

يتحقق لكم السلام

جرى العالم إلى الآن شرقيه وغربيه على أن يكون الفن فى خدمة الحرب ، فمن قديم استخدمت الموسيقى فى الجيش لتعزف أمام الجنود تحمسهم للقتال وتنسيهم أنفسهم فى المعارك ، علما منهم بأن الموسيقى تفعل فى العواطف ما لا يفعل غيرها . فالموسيقى — كما فعل الفارابى — فى يد الفنان قادرة على أن تضحك وتبكى وتوقظ وتنيم . . كما فعل فى مجلس سيف الدولة إذ عزف على قانونه — كما يروون — فأضحك ، ثم عزف فأبكى ، ثم عزف فأيقظ ، ثم عزف فأنام ، ثم خرج وترك سامعيه نائمين . ونحن إلى الآن نشاهد ذلك ، فموسيقى مرحة كالجاز باند ، وموسيقى حزينة كأنغام الصبا . وليس هذا شأن الموسيقى وحدها . . بل كل الفنون من آداب وشعر وخطب وتصوير ونحت ، قادرة على خدمة الحرب وقادرة على خدمة السلام .

فالمصور يستطيع أن يصور عينا تبكى فتبكى ، وعينا تضحك فتضحك . . وقد حكوا عن ابن نباتة أنه كان فى الحروب الصليبية يهيئ الناس للحرب فيحاربون ، وكان عبد الملك بن مروان مترددا يوما بين أن يحارب وألا يحارب ، فما هو إلا أن خطر على باله بيتان من الشعر فتحمس وخرج يدعو للقتال . . ومثل هذا روى عن أبى جعفر المنصور . والشواهد كثيرة على أن الفن ظل قرونا فى خدمة الحرب ونجح فى ذلك .

واليوم أدعو إلى استخدام الفن فى خدمة السلام ، فبدلا من إثارة الموسيقى لعواطف الحرب ، تثار لعواطف السلم . . وكذا الأدب والتصوير . وهى نظرية

لم تجرب إلى اليوم . فالدعوة السياسية للسلم لا تفيد إلا إذا دعمت بالفنون ، ولو أراد العالم السلم الحقيقى لأمكنه ذلك بشىء واحد ، وهو تغيير برامج التعليم وتغيير المناهج فى التاريخ والفن . . فبدل إشعال نار الوطنية فى نفوس الطلبة وحكاية الانتصارات والانكسارات فى الحروب وتعويد الأطفال الفرح بالمدافع فى العيد والفرح بالمفرقعات ، تحكى الأعمال العظيمة التى عملت لنشر المدنية وحمايتها ، وكذلك الأدب والفنون ، وتأسيس العلاقات بين الأمم على أساس إنسانى لا على أساس قومى ».

«ولا شك فى أن رؤية المناظر الطبيعية التى تشعر بالضعف الإنسانى ، كمنظر غروب الشمس فى البحر أو منظر الجبال العالية المكسوة بالثلج تجعل الإنسان أقرب إلى السلم منه إلى الحرب ، وما علينا إلا أن يتعاون علماء الموسيقى وعلماء النفس على تقييد النغمات التى تبعث على السلم وتعليمها و إذاعتها . . ولا شك أن الأمة التى تشيع فيها نغمات السلم تكره الحرب ، ولكن إذا أنت ضربت على الطبل نغمة قوية مثيرة هاج الناس بالقتال .

* * *

« إن الموسيقى السلمية ترهف العاطفة وترقق الذوق ، ومن به ذوق سليم وعاطفة صحيحة ينفر من الحروب ويعدها قلة ذوق . حتى فى الحياة العادية يكلمك إنسان بصوت غليظ فيستثير عاطفتك الحربية ، ويكلمك إنسان بصوت وديع رقيق فيثير عندك عاطفة الرحمة والإنسانية ، ومن أجل هذا كان صوت النساء أدعى إلى الرأفة والعطف من صوت الرجال ».

ومثل الموسيقى الفلسفة . . ألا ترى أن «الفيلسوف إذا دعوته للحرب تخاذل لأنه «يوازن بين أثرها فى الأرواح و بين مكسب الحرب فلا يجد شيئاً يساوى قتل الأنفس ؟ وهو يرى ببصيرته العواقب الوخيمة للحروب فيتراجع . كما قالوا : من أطال النظر فى العواقب لم يتشجع . »

وكذلك الشأن فى الأدب . . استثر الأمة بقولك إن العدو يهين كرامتك ويستغل ثروتك ويفسد عليك حياتك وأمثال هـذه المعانى ، تجد الأمة ثائرة مندفعة إلى الحرب ، وقل لهم إن العدو لا يريد من عمله هـذا إلا الخير ، تهدأ نفوسهم وتطمئن مشاعرهم . وأكبر مثل على ذلك الأناشيد ، فقد اعتاد الناس أن يؤلفوا الأناشيد ، دائرة حول التضحية بالدم والذود عن البلاد بإراقة الدماء فعملت عمل السحر ، ولو ألفت الأناشـيد بألفاظ ومعان رقيقة وموسيقى رخيمة لأنتجت العكس .

« إن الفنون كلها تعتمد على الجمال ، والذوق المؤسس على الجمال يرى فى الحرب قبحاً وفى السلم جمالا . والمعانى عادة تلبس أثواباً من النغمات ، ومن الممكن إلباس المعانى الهادئة ثوباً هادئاً يطمئن النفس ويهدئها ، ويمكن إلباسها ثوباً جافاً غليظاً يشعل النار فى النفوس ويهيجها . »

قد يقول قوم إن كل أمة لها فنها الذى يختلف عن فنون الأمم الأخرى ، ولـكن ما ضرر هذا وكل فن يطلب منه أن يكون داعياً للسلم تفهمه أمته . والأمم جميعها تفهم فنونها السلمية .

لقد آن الأوان أن يدعو اليونسكو إلى شيئين : دعوة لاستخدام العلم فى الإسعاد دون الإشقاء وفى البناء دون الهدم ، ودعوة إلى استخدام الفنون فى حب السلم دون الحرب ، وفى إنماء العواطف الإنسانية لا القومية . . فإن لم يفعل ذلك حكم عليه بالفشل .

لو كنت شيخاً للأزهر !

هذا موضوع شائك . وماذا أفعل وقد عجز عن إصلاحه الشيخ المهدى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ المراغى ، والشيخ عبد المجيد سليم . . . هذا فى عصرنا الحديث ، وعجز مثلهم من كان قبلهم . لذلك كنت أتردد كثيراً فى قبول هذا المنصب ... فإذا قبلته عملت ، ما أمكننى ، على إصلاحه .

وأول هذا الإصلاح أنى أسائل نفسى : ما رسالة الأزهر ؟

فأجيب بأن رسالته التعليم الدينى العالى ، ونشره فى الأقطار الإسلامية . لذلك كان من البديهى أن أجعل الأزهر كلية جامعية فقط ، تدرس الدين وتوابعه ، فلا شأن له بالتعليم الابتدائى والثانوى ... فذلك تتولاه وزارة المعارف ، وليس الأزهريون بدعاً من الطلبة ، فيجب أن تتوحد دروسهم مع طلبة المدارس المدنية أولا ، ثم يتخصصون بعد ذلك للدين كما يتخصص غيرهم للهندسة والطب والحقوق . وبذلك أستطيع أن أبذل جهدى كله فى التعليم العالى . غاية الأمر أنى أعيد تجهيزية دار العلوم لأنها كانت تعلم تعليما ثانوياً على نمط خاص ، وتتوسع فى اللغة العربية وفى التاريخ الإسلامى وفى الأدب العربى اتساعاً يجعلها بحق إعداداً للأزهر .

أما الأمر الثانى : فهو أن الأزهر منار للعالم الإسلامى ، فيجب أن يكون مناراً للخلق والعلم . فأجتهد أن أجعل الأزهر كما كان فى العهد الماضى مطلوباً لا طالباً ، ومعززاً لا مستجدياً ، وشيخه يقول الكلمة فترتج منها الحكومة ويرتج منها العالم .

وهذا يتطلب أمرين :

الأول : بعد الأزهر عن السياسة ، فالمنارة كالشمس تضىء للناس على السواء ، وليس من الحق أن يناصر الأزهر سياسة ما ، وخصوصاً السياسة الحزبية ، فإنى

أفهم الأزهر يناصر السياسة القومية لا الحزبية ، فإن الأزهر باق والأحزاب متغيرة ، فليس من الحق أن ينصر الأزهر لأنه جارى سياسة ما ، و يضطهد لأنه جارى سياسة معاكسة .. كما أنه ليس من الحق أن يتقلب الأزهر مع السياسة من حين إلى حين ، فإن هذا يضعفه فى رأى الناس .

والأمر الثانى : إنى من أنصار اختيار العدد الصالح من الطلبة والعلماء ، كما أنى من أنصار اختيار الطلبة فى الجامعات ، ولست من أنصار فتح البـاب على مصراعيه ، فالتعليم العالى لا يصلح له إلا الخاصة ، ومنه الدين ، بل أحدد عدد الأزهريين بقدر صلاحية الطلبة والمدرسين المعينين والمنتدبين و بقدر حاجة البلاد إلى هـذا الصنف و بقدر ميزانية الدولة . وأظن أن ميزانية الأزهر التى خصصتها له الدولة كافية لتعليم عدد لا بأس به . . . فإن لم تكف ، وجب على الحكومة أن تزيدها .

* * *

و إذا نظرنا إلى الأزهر فى هذا الضوء ، وجدنا خمسة آلاف أو ستة آلاف أو هذا النحو تكفى للعالم الإسلامى . فليس الأزهر ولا أية كلية من الكليات « تكية » ينتسب إليها الطالب لقضاء وقت فراغ ، أو للهرب من القرعة ، أو لأى غرض آخر . . إنما الغرض تحصيل العلم لأداء الرسالة المخصصة لكل كلية .

ثم أتجه بعد ذلك إلى التعليم فى الأزهر ، فأساير الزمان وأجعل التعليم على أسس التربية الحديثة .. فلا أجعل جد الطلبة منصرفاً إلى كلام غير ذى موضوع ، ولا أجعله جاريا على أساليب القرون الوسطى . . و إنما أجعل ما اشتهر عن طلبة الأزهر من الجد منصرفاً إلى الموضوع لا إلى الشقشقة اللفظية ، و إلى الجوهر لا إلى العرض .

* * *

وأختار من الموضوعات ما يناسب العصر الحاضر والمستقبل لا الماضى . وأجعله بلغة العصر وأساليب العصر لا بلغة الماضى وأساليب الماضى . وأجعل الأزهر

طلبته وعلماءه يقفون على الحياة الاجتماعية فى بلدهم وفى العالم الإسلامى وفى الخارج فيقصرون علمهم على الشعب ، ويجعلون من اختصاصهم الدعوة إلى الدين على النمط الذى يفهمه الشعب و يتأثر به ، مستمدين علمهم ووعظهم من الحوادث الحاضرة كما يفعل القسس فى البلاد الأرور بية : فلا يكونون منعزلين عن العالم جاهلين به متجاهلين له . فكما أن كل شعب محتاج إلى من يثقفه ثقافة دنيوية من طبيعة وكيمياء الخ على آخر ما وصل إليه العلم الحديث ، فكذلك علماء الأزهر مطالبون بنشر الثقافة الدينية وعرضها عرضاً حديثاً .

ثم ألغى القرار الذى وضعه المرحوم المراغى فى الامتحان فى المقروء لا فى المقرر.. فإن هذه زلة كبرى تجعل الطلبة يضربون إذا شاءوا و يجادلون متى أرادوا رغبة فى قلة المقروء ، واعتماداً على أن لا امتحان إلا فى المقروء ، وكلما كان مقروؤهم أقل كان نجاحهم أقرب إلى التحقيق . .

وأحيط طلبة الأزهر وعلماءه بسياج يبعث فيهم الكرامة وعزة النفس ، وأفهمهم أن الدين وطلابه أزهد الناس فى درجات وعلاوات ، وأن ليس للأزهريين حق إلا فى أن يعيشوا عيشاً موفوراً لا ذلة فيه ولا ضعة ، وعلى الحكومات أن توفر لهم ذلك ثم على رجال الأزهر أن يترفعوا عما بعد ذلك . فلئن كانت العلاوات والترقيات أفسدت رجال الدنيا فواجب أن يتحرز منها رجال الدين .

ثم إذا وجدت من يقف فى طريق إصلاحى ، استأصلته من غير هوادة ومضيت قدماً حتى يتسنى لى الإصلاح . . وحبذا لو استطعت أن أجعل الأزهر مدرسة داخلية مصونة من كل عبث خارجى ، ألقى فيه المحاضرات النافعة وأفتح لأبنائه وعلمائه المكتبات النافعة ، وأمنع بذلك التسكع خارج الدار ، وأختار عدداً قليلا من العلماء أتوسم فيهم الخير . . . أجعلهم مشرفين على الطلبة وأجعل كل طائفة منهم متصلة بهذا الشيخ يفضون إليه بدخائلهم ومشاكلهم النفسية والمادية .

* * *

قد تقول : إن هذا برنامج خيالى ، وقد كان من قبلك من هو أصلب عوداً وأحد أنيابا وأحزم منهاجا ، فلم ينجح وباء بالفشل ، فأقول إنى سأجرب من جديد ، فإذا لم أنجح أنا أيضاً تركت الدار تنعى من بناها ، وفررت بنفسى وضممت فشلى إلى فشل غيرى . . .

فإن لم يكن إلا أن أقول هذا لأطلع الشيخ الجديد على منهج جديد ، ليكون أمامه وجوه الإصلاح المختلفة فيختار منها أصلحها لكان كافياً .

قد يكون هذا المنهج مرًّا ، ولكن عاقبته حلوة ، والطبيب الذى يعطيك المر فتشفى خير من الطبيب الذى يعطيك الحلو فيستمر مرضك .

لماذا كفر الشباب بالزعماء؟

الشباب دائما عماد كل زعيم فى القديم والحديث ، لأنهم كما قال أبو العتاهية : رائحة الجنة ؛ قويت عضلاتهم ، واشتدت سواعدهم ، وتفتحت آمالهم . ولأنهم من ناحية أخرى لم يتحجروا كما تحجر الشيوخ . فهم أقبل للدعوة الجديدة وأحرص عليها ، وأسخى تضحية فى سبيلها . لذلك كانوا عماد الزعيم فى كل عصر .

وكلما كان الزعيم شابا مثلهم كانوا له أطوع لأنه إذ ذاك يشعر بشعورهم ويحس بآلامهم ويأمل آمالهم . أما إن كان شيخا هرما فله جيله ولهم جيلهم ، وله تعاليمه ولهم تعاليمهم ، إلا إن كان سابقاً لزمنه كما هو الحال فى بعض الزعماء فيكون قد جمع بين بعد المدى وسعة العقل وكثرة التجارب . فهم مع مناسبتهم لجيلهم أكثر اندفاعا . فإذا كان الزعيم تقدميا استطاع أن يحمسهم ويقلل من اندفاعهم ويكون جامعاً بين المزيتين اللتين تأوه منهما إسماعيل صبرى إذ قال :

أواه لو عرف الشباب　　وآه لو قدر المشيب

وبذلك استطاع مصطفى كامل وقد كان فى ريعان شبابه أن يصرخ فى الشباب أمثاله فيحمسهم وينفخ فيهم من روحه ويخلق منهم وطنيين بعد أن لم يكونوا .

أما الهرم فتنقصه عوامل كثيرة تقلل من زعامته ، مثل تبلد شعوره غالباً وحذره من العواقب غالباً وعدم فهمه جيلا غير جيله غالباً . . وبذلك يكون فى الأغلب مقودا فى شكل قائد ، ومتخلفا فى شكل زعيم .. أتيحت له ظروف الزعامة ولكن لم يتصف بصفتها .

ثم إن الشباب فى زماننا حائر كل الحيرة مضطرب أشد الاضطراب ، يتحمس ولكن لا يعرف أين يتجه ، ويطمح إلى تغيير ما هو فيه ولا يدرى ماذا يجب أن

يكون فيه . وإذ ذاك يصح جدا أن يكون عنده الاحتراق بالنار خيراً من الحيرة التي تستولي عليه . فمن حسن حظه أن يوفق إلى زعيم ينفي حيرته ويهدئ اضطرابه ويوجهه الوجهة الصالحة .!

وهو في حاجة إلى عقل يقوده ، ويحتاج أيضاً إلى شعور يحمسه ، وعاطفة تلهبه . وفي العادة يكون الشيوخ أكبر عقلا وإن كانوا أقل شعوراً وعاطفة . فلا يفلحون في قيادته لأن الشباب عادة يصغي إلى العاطفة أكثر مما يصغي إلى العقل . وتستهويه الخطب الرنانة أكثر مما تستهويه الحكم الهادئة .

* * *

ا ومن الأسف أن زعماء العالم اليوم يسيرون حذو زعماء الأمس لأنهم يؤمنون بأساليب السياسة القديمة ويخضعون لتعاليم الوطنية التي هي إرث من القرن الماضي . وهذه كلها غير صالحة اليوم ، لأنها تكشفت عن عصبيات بغيضة وعن سفك للدماء من غير حساب ، وعن حروب متوالية متتابعة ، تتدرج تدرجا تصاعديا وتتضاعف ويلاتها كما تتضاعف عملية الربح المركب . وهذا كله غير صالح لزماننا .

إنما يصلح لزماننا زعماء يؤمنون بالإنسانية بدل القومية ويقودون الشباب لخدمة المجتمع الإنساني كله . ا

والفرق بينهما كالفرق بين تعاليم المسيح ومحمد من جهة ، وتعاليم هتلر من جهة أخرى . إن هذه الزعامة بحق هي التي تناسب العصر . وليست تنجح هذه الدعوة إلى الإنسانية إذا أحيطت بدعوات قومية لأنها تكون كرجل أعزل بين مسلحين . فهو معرض دائما لخطرهم . إنما تجدي هذه الدعوة عندما يتعاون الزعماء كلهم على نشر الأمن والدعوة إلى الإنسانية .

وقد كان الزعماء السياسيون يؤمنون بألفاظ جوفاء كالاستعمار والانتداب والمحافظة على النظام ، وكانت الشعوب تبيع أنفسها بيع السماح لمثل هذه الدعوات .

أما اليوم فأصبحت الشعوب أرقى من قادتها وأعقل من زعمائها ، لا يسمحون لأن يقادوا قيد الأغنام وهم اليوم لا يحبون أن يسموا رعية و يسمى الزعيم راعيا ، بل يريدون أن يسموا مواطنين وزعيمهم مواطنا أيضاً . . لذلك وجدنا فى كل شعب شبانا يخرجون على الزعماء و يدعون للسلام كى يروا العالم آمنا مطمئنا لا يروعه شبح الحرب ، ويكرهون أن يروا حكامهم ينصرون الرأسماليين ويخضعون لأوامر صانعى الأسلحة .

هذه الحركة ما زالت فى بدئها ولكن من المحتم أنها ستقوى ثم تقوى حتى تكتسح العقلية القديمة والزعماء القدماء وتنصب عليهم زعماء جددا من جنس ميولهم .

إن زعماء اليوم فى غفلة من أمرهم يقادون من ذقونهم بتعاليم موظفى وزارة خارجيتهم وهى تعاليم قد تعفنت ولم تعد صالحة لزماننا . . و إلا فلو سأل كل زعيم نفسه : ماذا تجنى من الحرب وماذا تخسر ولماذا نستعمل السلاح حيث يمكن أن نستعمل الحجج المنطقية ولماذا نتحارب وقد كان يمكننا أن نلجأ إلى هيئة تحكيم تنصف المظلوم ؟

لو سأل كل زعيم نفسه هذه الأسئلة لم يتردد فى أن يرى أن الحرب وخيمة العواقب للغالب والمغلوب بل للغالب أكثر منها للمغلوب . . وأن دم إنسان واحد يسفح على الأرض أعز من الدنيا وما فيها . .

ثم كيف نطمئن إذا كان هناك دولتان متحاربتان إلى أن الغالبة منهما هى المظلومة لا الظالمة ؟ بل كثيراً ما يحدث العكس .

ولقد مر على الناس هذا الدور بالنسبة للأفراد ، فكان من أخذ حقه يستعيده بالقوة ، إما بسفك دمائه أو مصارعته أو نحو ذلك . ثم تقدم الناس فلجأوا إلى المحكمة بدل أخذ الحق باليد ، علماً بأن المحكمة تقضى بالعدل ولا تغلو فى سلطتها فتأخذ من الظالم للمظلوم أكثر من حقه . فما بالنا لا نفعل ذلك بين الأمم ؟

لقد بدأ الناس يفهمون ذلك إذ أسسوا محكمة العدل فى لاهاى وهيئة الأمم فى أمريكا ، ولكن ظلت الهيئتان بدائيتين تنتظران أن تسندهما الشعوب فيكون لهما من السلطان ما لحاكم الأفراد على الأفراد .

* * *

مما يؤسف له أن الشباب قد كفر بكل شيء : كفر بالدين ، وكفر بالدنيا ، وكفر بالزعماء . والسبب فى كفرهم بالدين أن زعماء الدين شوهوه ولم يمكنهم عرضه عرضاً يوافق عقل الشباب . وكفرهم بزعماء الدنيا يرجع إلى أنهم لم يستطيعوا أن يملأوا عقله وقلبه . وخير الزعماء من ملأهما . إنما ملأوه خداعا ونفاقا وكذبا . وهذه الأشياء كلها قصيرة العمر كما قيل :

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا ارتديت به فإنك عارى

وإذا كشف الرياء فى الزعيم سقط إلى لا رجعة وتبين الشباب أنه مخدوع ، وأن الزعماء إنما يريدون أن ينهضوا على كتفيه إلى الحكم لا إلى الإصلاح ، فإذا وصلوا إليه تنكروا له وعبسوا فى وجهه ، فأخذوا حذرهم وصاروا يريدون من الزعيم التضحية لا الاستغلال . ومنفعة الشعب لا الانتفاع ، وسيظلون فى اضطراب وقلق حتى يصلوا إلى غرضهم ...

شعورنا الوطنى

لا تطفئه المدافع الرشاشة

كان الشعور عند الناس فى عهد عرابى شعوراً بدائيًّا ، لا يتحمس كثيراً لدفع عدو أو جلب منفعة عامة . وكان من صفاته الغرور ... فالناس كانوا يعتقدون أن العدو مهما قوى ، فالمصريون قادرون على صده ، وأن البيرق النبوى لو نشر كان كافياً لدحض كل قوة . يظهر ذلك عند حروب مراد بك لنابليون ، وما قاله مراد بك من ألفاظ استهتار ... يضاف إلى ذلك محاربتهم بالأدعية والخرافات . فكان علماء الأزهر ، كما قال الجبرتى ، يحاربون بقراءة البخارى . وامتلأ الناس عقيدة بانتصار المصريين لأن فرخة باضت بيضة زعموا أنه مكتوب عليها « نصر من الله وفتح قريب » .

وأهديت لعرابى باشا ثلاثة مدافع خشبية ، زعموا أن أحدها للسيد البدوى ، والثانى لإبراهيم الدسوقى ، والثالث لسيدى عبد العال ... وأنها قادرة على أن تزلزل أقدام انجلترا بمدافعها وقنابلها . وعرابى باشا نفسه لم يكن يكترث بهذه الحروب اكتراثاً كبيراً بدليل أنه لم يحصن البلاد تحصيناً كافياً . والوعى القومى كان مغفلا ... فمثلا كان عبد الله النديم يزعم أن الأسطول الإنجليزى كان محاصراً بين قبرص التى هى فى مملكة الأتراك والإسكندرية المصرية ، وأنه إذا أطلقت القنابل من قبرص والإسكندرية فتكتت بالأسطول البريطانى . والناس يصدقونه فى قوله .

وعلى كل حال كان الوعى القومى محصوراً فى عدد قليل إلى أن حلت كارثة الاحتلال بسهولة . وفضلا عن ذلك ، كانت حيل الأوربيين ودسائسهم تجوز

عليهم وتؤثر فيهم ، فإذا أرادوا أن يحركوهم و يهيجوهم هاجوا ، و إذا أرادوا أن يهدئوهم هدأوا . نعم قو بل الاحتلال بشيء من المقت والبغض ، ولـكن لطف منه اعتقادهم أنه قدر سلطه الله عليهم لذنوبهم .

***

ومن الغريب أنهم أتعبوا الفرنسيين عند احتلال بلادهم ، وكانت كل يوم تقوم ثورات حتى لم يهـدأ للفرنسيين بال إلى أن خرجوا . ولم يكن ذلك عند الاحتلال الإنجليزى ، ولعـل السبب فى ذلك دهاء الإنجليز ونعومة استعمارهم ، وتفريقهم بين ما يجرح الإحساس وما لا يجرح ، وتركهم المصريين أحراراً فى عاداتهم وتقاليـدهم ودينهم ونحو ذلك . فلما جاء البطل الثانى مصطفى كامل وسع موجة الشعور الوطنى من خاصة الخاصة إلى رجل الشارع ، و بصر المصريين بألاعيب الأوربيين وخصوصاً انجلترا . وكان سيئ الظن بكل حركة يتحركونها ، وجاهد فى سبيل ذلك جهاداً عظيما . فلما مات نبض بموته قلب كل مصرى ، كما يقول قاسم بك أمين .

وجاء سعد زغلول فزاد الشعور القومى التهاباً ... ولم يقتصر التهـاب الشعور على سكان المدن كالقاهرة والإسكندرية ، بل تعداه إلى الفلاحين وأصحاب الجلاليب الزرقاء . وتجاوب سعد مع المصريين ، إذ كان فلاحاً مثلهم وخطيباً بليغاً يعرف مواطن القول وأفانين الكلام ، ويعرف نفوس الشعب وما يؤثر فيه .

ودرس آخر علّمه للمصريين ، وهو ألا يكترثوا بالتهديدات وألا يعبأوا بها . وقد هددته إنجلترا بالنفى فقبله عن رضا واطمئنان ، وأطلقت المدافع الرشاشة وغير الرشاشة فكان يحمس الشعب و يدعوهم إلى الاستهانة بكل هذه التهديدات ، على حين أنه كان وجود مركب واحد من الأسطول الإنجليزى فى المياه المصرية كافياً لحل كل عقدة ، مع أن وجود الأسطول كله فى المياه المصرية أصبح فى عهده لا يحل أى مشكلة ! ولو دمرت البلاد كلها !

وأكثر من ذلك أن الشعب أصبح يفهم فى وضوح أساليب الاستعمار ، فإذا أراد الاستعمار أن يدخل وسط المصريين ليفرق بين قبطيهم ومسلميهم ، فهم هذه الألعوبة بوضوح وقضى عليها ، ونادى الأقباط بالاستقلال كما نادى المسلمون . وإذا أرادوا أن يستغلوا حادثة اعتداء على أجنبى ويكبروها ويهللوا لها ، قضى على استغلالهم وقاوم ضجيجهم ونادى بحرمة دم الأجنبى وماله ، وهكذا . . . فما وصلنا إليه اليوم ليس إلا نتيجة لتوالى الأحداث وتربية الشعور القومى على يد هؤلاء وأمثالهم ومرور الحوادث الكثيرة عليهم حتى فهموا أساليب الاستعمار وألاعيبه .

واليوم أصبح المصريون لا يقدمون على عمل ثم يقولون : لتكن النتيجة ما تكون ! بل هم لا يقدمون على عمل إلا قدروا نتائجه ودرسوا احتمالاته وقرروا لكل احتمال نتيجة ، ووضعوا خطة لحلها . نعم إن الشعور القومى المصرى لم يكتمل تماماً ، ففيه عيوب ... ومن عيوبه زيادة القول على العمل ، وعدم المعرفة الواسعة لحالات الدول الأجنبية وعلاقاتها وتصرفاتها ، ومنها المغالاة فى الحزبية ، وعدم سعة الصدر للوطنى المخالف مهما أتى من جيد الأعمال إلى غير ذلك . ولكن على العموم نحن اليوم أنضج من أمس وستعلمنا الأحداث أن نكون غداً أنضج من اليوم . وقد صرنا لا نهاب الموت إذا كان ، ولا نتفرق إذا دعت الحال للاتفاق ، ولا نخاف مهما كان التهديد .

* * *

ونغتبط كل الاغتباط إذا قارنا بيننا اليوم وبيننا أيام عرابى ، ولكن لا يمنعنا اغتباطنا من أن ننظر إلى من تقدمونا فى الوطنية فنحذو حذوهم ونسير سيرهم . وأذكر أن برنارد شو رحمه الله سئل يوماً : «ماذا يفعل المصريون لنيل استقلالهم؟» فقال : « يجب عليهم أن يعملوا كما عملت إرلندا » . هذا والإرلنديون بريطانيون بالمعنى الواسع ... فما بالنا ونحن أمة نختلف فى الجنس والدم والدين واللغة ؟ وحقنا أوضح من حقهم !

كل الذى يلجئنا إلى هذه التضحيات وما نناله من كوارث إنما سببه أن عقلية قادة السياسة المستعمرين من إنجليز وفرنسيين وأمريكيين لا تزال جامدة على أساليب القرن التاسع عشر ، لم تتغير بتغير الأزمان . ولا يزالون يفهمون أن القوة الحربية هى كل شىء ، وأنهم متى قدروا عليها استطاعوا أن ينكلوا بالأمم المغلوبة ، وأن العدل والإخاء والمساواة ألفاظ جوفاء لا تقال إلا ضحكا على الذقون أو عندما يريدون الانتفاع من المستعمر أو عندما تتأزم الأمور . فإذا زالت هذه الظروف فلا عدل ولا مساواة ، إنما هو تنمر ، وظلم واستبداد ! لا فرق عندهم بين حزب المحافظين وحزب الأحرار ، ولا فرق بين سياسى قديم وسياسى جديد !

ولذلك نرى أن أساليب الاستعمار قد تعفنت وحمضت ، ولم تعد صالحة لسياسة الأجيال الجديدة . ولا معدى الآن من أن يغيروا سياستهم إلى سياسة جديدة وفقاً للأجيال الجديدة .

ألا ترى أن المرأة اليوم إذا لبست ثياب القرون الوسطى بل ثياب القرن الثامن عشر كانت أضحوكة !

فما تعمله السيدات لتجارى الأزمان ، فتقص شعرها بعد أن كان طويلا ، وتغير أزياءها من حين إلى حين ، يجعلها أعقل من أولئك السياسيين ... لأنها فهمت مالم يفهموا وتأقلمت أكثر مما تأقلموا .

إن الثورات الحديثة الكثيرة ، سببها عدم الانسجام بين عقلية الناس وعقلية الساسة ! . . يريدون أن يركبوا جملا أو حماراً والزمن زمن سيارات وطائرات . ويريدون أن يخيفوا بجعجعتهم من لم يخافوا بالسيوف والمفرقعات .

***

والواجب منعاً لهذه القلاقل الدائمة ، أن يغيروا المدارس التى تخرج السياسيين ككلية (إيتون) ، ويضعوا من أول برامجها دروساً فى الأقلمة . فالجامعة السياسية

كما قال قائلهم هى التى تكسب الحرب ، ولكن نضيف إليها أنها هى أيضاً التى تخسر الحرب بجمودها وعدم مواجهتها للظروف . أيظنون أن تجريد الأسطول و إطلاق مدافع يحل المشكلة المصرية ؟ هذه عقليتهم ، ولكن الواقع أنها لا تحل المشكلة بل تعقدها . قد كانوا من قبل كما قال قائدهم يطفئون النار ببصقة ، ولكن النار التى كانت تنطفىء قبل اليوم ببصقة لا تنطفىء اليوم بمدافع رشاشة ولا بطائرات نفاثة ، و إنما تنطفىء بالحكمة ، وهى مع الأسف ليست عندهم ...

الابتكار

الابتكار مصدر ابتكر الشيء ، إذا اخترعه بعد أن لم يكن ، وهو فى الماديات كثير ، كاختراع الراديو ، واختراع التليفون ، و « الثلاجة الكهربائية » ونحو ذلك .

وهو يكون أيضاً فى العلوم ، فعلم الطبيعة والكيمياء والرياضيات اليوم غيره بالأمس . وهو غداً غيره اليوم ، ويكون أيضاً فى المعانى ، فالشاعر الجيد مَن ابتكر بخياله معانى جيدة لم يسبق إليها ، وقد يوفق فى ذلك إلى عدد محدود ، وقد قالوا إن أبا تمام ابتكر نحو عشرين معنى جديداً ، وهو بهذا مكثر . فإن أبا الطيب المتنبى ابتكر نحو خمسة معانٍ ، وهكذا وهكذا .

ومما يعاب على الشرقيين أنهم أقل ابتكاراً من الغربيين ، وأنهم أكثر تقليداً منهم ، وذلك فى أكثر فروع العلم والفن ، ففى الأدب مثلا لا تزال موضوعاتهم هى المديح ونحوه من موضوعات الأدب الجاهلى ، والأوزان لا تزال هى الأوزان التى جمعها الخليل بن أحمد ، وحصرها فى ستة عشر وزنا ، والفقه قد أقفل أصحابه باب الاجتهاد ، والفلسفة هى فلسفة اليونان تقريبا ، والآلات والأدوات التى نستعملها فى بيوتنا هى المخترعات الأوربية ، وقل أن نجد مخترعا جديداً .

والمصلحون إذا أتوا بجديد نكل بهم أشد تنكيل ، وعذبوا أشد عذاب ، وملئت بهم و بأتباعهم السجون ، كما فعل بمدحت باشا ، والسيد جمال الدين ، وخير الدين التونسى ، وغيرهم . فما السر فى ذلك ؟

يظهر أن السر فى ذلك يرجع إلى أمور كثيرة . منها : أن الجو الحار الذى يعيشون فيه يبعث على الخمود ، والخمود يبعث على الكسل ، والكسل عدو الابتكار ؛ ولذلك لما تغيرت البيئة على المهاجرين إلى أمريكا جددوا فى الأدب

مثلا بعض الشيء ، كما فعل جبران خليل جبران ، و إيليا أبو ماضى ، وأمثالهما . واعترضوا على هـذا بأن الأندلسيين حكموا قرونا وكانت بيئتهم أبرد غالباً ، ومع ذلك كانو عالة على الشرق يقلدونهم و يحتذون حذوهم . فوجب أن يكون هناك سبب غير هـذا . وقد يكون السبب أنه غلب على المسلمين منهج المحدّثين من عهد المتوكل على الله إلى اليوم ، ومنهج المحدثين منهج اعتماد على النقل أكثر من الاعتماد على العقل ، فخيَّم هذا المنهج على عقول المسلمين فى كل فرع من فروع العلم ، حتى كانت حجتهم فى صحة نظرية أنها وردت فى بعض الكتب . ومنها أنه لم يرزق المسلمون بشخصيات جبارة تحتذى ، كما رزق الغرب . أمثال ڤولتير ولوثر ، ولو رزقوا مثل هؤلاء لَقُلِّدوا ، ولكننا نتساءل أيضاً لماذا لم يرزقوا بأمثال هؤلاء الجبابرة ؟

والجواب : أنه قد يكون هذا محض مصادفة . وكان فى الإمكان أن لا يكون لوثر ولا يكون ڤولتير ، وأيضاً قد يصح أن يكون قد وُجد فى تاريخ المسلمين أمثال ڤولتير ولوثر ، ولكن خنقتهم بيئتهم وخنقهم الأمراء المستبدون ، فلم يتسع لهم المجال ، ولو كانوا لتغير وجه التاريخ ، خصوصاً وأن العادة جرت فى الشرق ألا يشجع المبتكر ولكن يخذَّل و يسخر منه ، كما فعل بالأنبياء من قبل ، « فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » . ونحن نرى أن الشيء إذا أتى به غربى شجّع وقلد وهلّل له ، و إذا أتى به شرقىّ خذل واستهزئ به ورُفض ! فهل آن الأوان للقيام من هذه الكبوة والنهضة بعد العثرة ؟ إن كل الدلائل تدل على ذلك .

فالعصبية القومية قد تجعل الشرقيين يتعصبون لشرقيتهم فيشجعون من نبغ منهم ، والوعى القومى وقد تنبه يجعلهم أحسن تقديراً ، وأكثر اعتدالا ، وأقل جموداً ، وأكثر تقويماً للحقائق ، ووزنا لها بالميزان الصحيح ، ومتى سلكوا هذه السبيل ولو قليلا اندفعوا فيها . و بنى الخَلَف على أعمال السلف . فكان لنا من ذلك أدب جديد ، وفقه جديد ، وعلم جديد ؛ يناسب بيئتنا وعقليتنا .

كم كنت حزيناً يوم قابلنى رجلان ألمانيان مستشرقان ، فسألنى أحدهما : من هو الصوفى المصرى الذى يمكننى أن ألقاه وأفهم منه تصوفه ، وسألنى الآخر : من هو الفيلسوف المصرى الذى ألقاه وأفهم منه فلسفته . فكان الجواب مع الأسف بالنفى ، فهل أعيش ليمكننى أن أجيب على هذين السؤالين بالإيجاب ؟ ؟

إننا قد بلغنا فى التقليد حدًّا معيباً ، فمن أتى برأى قيل له : من أين أتيت به ، والعلماء المصريون والأدباء الشرقيون ، منهم من يقلد قدماء الشرق حَذْوَ القشرة بالقشرة ، ومنهم من يقلد الغرب كل التقليد ، حتى إن كل واحد منهم قبل أن يَسنَّ قانوناً أو قبل أن ينظم قصيدة أو قبل أن ينحت نحتاً ، يحوك فى نفسه السؤال الآتى : « ماذا فعل مَن قبلى فى هذا الموضوع ، وماذا قال ، وأى جهة اتجه ؟ » كأن الله لم يخلق له عقلا ...

إن الشرقيين فى الحقيقة لا يقلون ذكاء ولا خبرة ولا ديناً عن الغربيين ، فما الذى أصابهم ؟ وكان مقتضى الذكاء أن يكون بجانبه الابتكار ، ولكن لعل ضغط الكنيسة على الغربيين جعلهم ينفرون فيبتكرون ، وتسامح الإسلام مع المسلمين جعلهم ينامون ، وكثيراً ما قالوا إن الضغط يولد الانفجار ، والكرة من المطاط ، إذا ضربتها فضغطتها ارتفعت بمقدار انضغاطها .

والله على كل شىء قدير .

البرنامج اليومى للسعادة

إذا صحوت من نومك ، غسلت وجهك وأفطرت ، وإنى لأتمنى أن يكون لكل إنسان فطور روحى يهتم بالمحافظة عليه قدر اهتمامه بالفطور المعدى .. فليست الروح أقل شأناً من المعدة . فلماذا نحافظ على مطالب المعدة ونحفل بها ولا نحفل بمطالب الروح ؟!

إن إفطارك كل يوم ، يزيد جسمك قوة . . وإفطارك الروحى يزيدك قوة وسعادة . ونجاحك فى الحياة اليومية وسعادتك فيها يتوقفان على هذا الغذاء الروحى لأن السعادة تعتمد على إرادتك وموقف عقلك أكثر مما تعتمد على الحوادث نفسها . فيجب أن نعدل أنفسنا حسب الأحداث التى تحدث كل يوم لنبعد عنا الشقاء .

إن إرادتى تستطيع أن تبعد التسممات التى تسممها الأفكار للعقل ، والإرادة هى التى تستطيع أيضاً أن تضع حداً للخوف ولهياج الأعصاب اللذين يضايقان الإنسان . والإرادة هى التى تستطيع أن تقف الغضب وتضع حداً للكبر ، والإرادة هى التى تلطف السلوك مع الذين تعاملهم وتقضى على الخلافات التى بينك و بين عملائك . . فإذا الذى بينك و بينهم صداقة حميمة ، وروحك القوية التى تغذيها دائماً بالوسائل الروحية هى التى تمنعك من غش الناس وخداعهم ، وروحك الصحيحة هى التى تتناغم مع معاملات الناس فتسعدهم وتسعد نفسك ، وهى التى تجعل حياتك مع أسرتك وجيرانك وعملائك ناعمة لطيفة ، كأنها الماكينة المزيتة و بدونها تكون ماكينة جعجاعة لأنها من غير زيت .

ومن هذا الغذاء الروحى صرفك كل يوم نحو نصف ساعة فى آخر اليوم

تحاسب فيه نفسك ماذا صنعت ، وكيف تتجنب الأغلاط التي كانت .

* * *

إن كثيرين مغمورون إما بالعمل المتواصل فى جمع العلم أو جمع المال ، ولكنهم مع ذلك عبيد مطامعهم . وخير من ذلك كله أن يتفرغوا بعض الوقت إلى أنفسهم ، فذلك يضمن لهم سعادة أكثر من عملهم ومالهم . إن سكون الإنسان إلى نفسه غذاء روحى خير من العمل المتواصل وخير من جمع المال .

وهذا الغذاء الروحى إذا تغذيته صباح مساء ، حملك على أن تعفو عن المسىء وأن تنظر إلى إساءته كأنها نتيجة طبيعية لبيئته وحالته ، وتقدر أنك لو كنت مكانه لك مزاجه ولك بيئته لفعلت فعلته .

والغذاء الروحى يخفف من مطامعك ، ويجعلك ترضى عما حدث فى يومك فى مأكلك ومشربك وعملك وما قابلت من أناس ، ويجعلك تختم يومك عند محاسبتها بأنه كان يوما سعيداً يضاف إلى حلقة الحياة السعيدة .

ويخطئ من ظن أن المال وحده يسبب السعادة ، فإن كان المال عاملا من عوامل السعادة يساوى عشرة فى المائة ، فالحالة النفسية تسبب من السعادة التسعين فى المائة الباقية ، وكم من الناس نراهم يجدون وراء الربح وقد بلغوا منه مبلغا عظيما ، ومع ذلك هم أشقياء بروحهم ونفسهم !

ويحكون أن سليمان عليه السلام أوتيت له كنوز الأرض ، وبنيت له قصور فخمة ، ومع ذلك كتب يقول إن هذا كله عبث ، ولا قيمة إلا لسعادة الروح .

وربما كان قلب الطفل أسعد حالا من كثير من الناس ، فإنه يبتهج لطلوع الشمس ، ويبتهج للعبه الصغيرة يلعبها ، ويبتهج للألعاب الرياضية ، ويعجب من الطير تطير فى السماء ، ويفرح للمناظر الطبيعية الجميلة ، من منظر بحر ، ومنظر

جبل ، فإذا نحن كبرنا فقدنا هذه العواطف الجميلة ، وجفت نفوسنا لعدم غذائها ، وإذا حضرتنا الوفاة تبين لنا أننا كنا نعيش فى أوهام .

* * *

ولا شىء يغذى الروح أحسن من الحب بمعناه الواسع ، فحب الخير للناس ، وحب المناظر الجميلة ، وحب كل شىء جميل ، وحب إسعاد الناس ما أمكن ، كل هذا غذاء . .

إن بعض الناس منحوا من الملكات ما يجدون معه فى كل شىء غذاء لروحهم ، فى الزهر ونضرته ، والماء وجريانه ، والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها والليل إذا غشاها . .

وبعض الناس يرى أن هذا خيال فاسد لا يهمهم إلا المال وجمعه ، أو الشهوات وإرواؤها ، أولئك قد عميت قلوبهم كما عميت فى بعض الناس أبصارهم .

إن الحياة الروحية تجعل لكل شىء طعما جديداً غير طعمه المادى ، فتجعل للعلم طعما ، وللمناظر طعما ، وللعواطف طعما ، لا يدركه إلا من ذاقه ، وهو بهذا الطعم يجد فى الوحدة أحياناً لذة قد لا تقل عن لذة الاجتماع بالناس ، لأن نفسه الروحانية ليست فارغة فراغ النفس المادية .

ومن الأسف أن العالم اليوم قد كسب كثيراً بمخترعاته وصناعاته ، ولكنه أيضاً خسر كثيراً فى روحانيته ومعنوياته . ولو رقى قليلا فى روحانيته ما كان هذا الصراع العنيف بين الأمم ، ولا كانت حروب قاسية ولا قنابل ذرية غاشمة ...

إن العالم لا يصح إلا إذا تعادلت فيه يده وقلبه وعقله ، فإذا اختل توازنه فيها زاد شقاؤه ، وهو اليوم صناع اليدين ، قوى العقل ، ضعيف القلب ، وهذا ما سبب شقاءه . وليس له علاج إلا أن يبحث عن منهج تتعادل به هذه القوى الثلاث ثم يسير عليه .

أمى !

كانت أمى منوفية ، وامتاز المنوفيات ببدانة الجسم وقوته وفراعته ، وكذلك كانت . ولم يكن بها من عيب إلا قصر نظرها ، وهو ما ورثته منها . وكانت أمية . ولم تكن القراءة قد فشت فى البنات ، لأن الناس كانوا يسيئون الظن بهن ، ويعتقدون أنهن إذا علمّن كاتبن عشاقهن برسالات الغرام . فبقاؤهن على الأمية أحصن لهن . ومن قديم ينصحون لهن أن يلزمن بيوتهن . وإذا تعلمن فإنما يتعلمن الطبخ والنسج . ومن تشجع من الناس علمهن القراءة ليعرفن قراءة القرآن ويروين الحديث . وهكذا نصح أبو العلاء المعرى النساء فقال :

علموهـن الغزل والنسج والرد ن وخـلوا كتابة وقراءة

فصلاة الفتاة بالحمـد والإخـ لاص يجزى عن يونس وبراءة

ونصح القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » بعدم تعليم المرأة . فكم من الفرق بين زمان أمى وزماننا اليوم . فإذا رأت أمى المرأة اليوم تخرج من غير حجاب إلى الجامعة ، وترطن بالإنجليزية والفرنسية ، وحتى باللاتينية ، وتزاحم الأبناء فى الهندسة والطب والحقوق والآداب لعجبت كل العجب .

ولذلك كانت حارتنا على كثرة ما فيها من بيوت ، ومن طبقات مختلفة ، غنية وفقيرة ومتوسطة ، ليس بها امرأة تقرأ أو تكتب . وهن إذا اختلفن ، فإنما يختلفن بالعقل الفطرى والخلق الفطرى . فإذا جاء خطاب من أحد أقاربها ، استدعت من يقرؤه لها . وإذا احتاجت إلى قراءة كتاب للتسلية أو نحو ذلك ، انتظرت أخى حتى يحضر من الأزهر ، وينتهى من صلاة العشاء ... فتتحلق هى وأقاربها ممن فى البيت ليقرأ لهن ألف ليلة وليلة .

* * *

وكانت أول بنت فى الحارة تعلمت القراءة والكتابة هى أختى . فقد كان مذهب أبى أن يعلم أبناءه و بناته وأقاربه ذكوراً و إناثا القراءة ، ثم يحفظهم جميعاً القرآن . ولذلك بعد أن علمها بنفسه أرسلها إلى أول مدرسة للبنات بالسيوفية . أما سائر بنات الحارة ، فبنات الفقراء منهن لا يتعلمن مطلقاً ، و بنات الأغنياء والمتوسطين كن يرسلن إلى « المعلمة » ، والمعلمة هذه امرأة تجيد الخياطة وتستأجر بيتاً وسطاً تخصص صالته لبنات الحى ، تعلمهن الخياطة وتنقلهن فيها من فن إلى فن . وتستمر البنت كذلك حتى تصل إلى سن البلوغ ، أو على الأصح سن الزواج ، فتحجب أيضاً عن المعلمة ، وتمكث حتى يرزقها الله بالزواج .

هكذا كانت أمى ... فهى تجيد الطهى وتجيد الخياطة على أبسط أشكالها . وهى محجبة لا تستطيع أن تخرج إلا بملاءة و برقع ، ولا تخرج كذلك إلا لزيارة أهلها أو أقربائها . و إذا كانت فى البيت لا يصح لها أن تنظر من شباك ، ولا أن تجالس أحداً من الغرباء . و إذا جاء السقاء إلى البيت ليملأ الزير ، كلمته من وراء حجاب .

وأذكر أن سقاء جاء مرة وهى لم تفطن إليه ، فلم تدخل أمى إلى حجرتها وكلمته فى عدد القرب ، ورأى أبى هذا المنظر ، فنازعها وخاصمها وشتمها حتى اضطرت إلى أن تغضب فى بيت أهلها بأولادها . واستمر ذلك نحو سنتين !

* * *

وهى تأتى ما تأتى تبعاً للتقاليد والعرف الجارى ، لا لشىء آخر . تربينا تبعاً للتقاليد ، فإذا مرض أحدنا فكل امرأة تأتى تصف وصفة بلدية ، قد تناسب المريض وقد لا تناسبه . حتى تكون من ذلك كله طب يسمى « طب الركة » ليس مؤسساً على علم ولا تجربة صحيحة ، إنما هى مصادفات حدثت فكانت طباً .

وأذكر أنى مرضت بالحمى مرة فلم يدع لى بطبيب . و إنما وقانى الله شرها لامتناعى عن الأكل بحكم الطبيعة ، وعدم الخروج عن البيت بحكم العجز . وكان

المريض مرضاً معديا يزار و يسلم عليه باليد ، و يجلس النساء حوله يتحدثن ، فلا عزل له ولا وقاية ولا نحو ذلك . ولذلك كثرت الوفيات فى ذلك العهد كثرة مزعجة ، يضاف إلى ذلك إيمان بالقدر لا حد له . فمن مات مات لانتهاء أجله ، ومن حيي ، حيي لطول عمره .

ولم أعرف أن لهن لهواً خاصاً ، فلا سينما ولا تمثيل . و إنما لهوهن الوحيد عرس يقام فى الحارة ، فتأتى نساء مغنيات يغنين للنساء و يرقصن على الطبلة . أو زار يقام فى الحارة ، فيرقصن فيه رقصاً من نوع آخر . وهذا كل لهوهن ، وهذا كان السبب فى إطالة أيام العرس ، وتنويع اللهو فيه ، حتى يفرج عنهن .

وكان بجوار بيتنا حمام يخصص فيه بعض الأيام للرجال ، و بعض الأيام للنساء . فكانت أمى تذهب إليه أحياناً فى أيام النساء ، و يسمح لهن فيه بأخذ الأطفال الصغار معهن . ورتبت أمى فقيهاً أعمى ساكناً فى حارتنا يأتى كل يوم صباحاً ، ليقرأ ما تيسر من القرآن . وهو الذى حل الراديو محله اليوم .

وكنا فى حالة لا تسمح لنا بطباخ ولا خدم . فكانت أمى تقوم بكل ما يلزمنا من طهى وغسل وكنس وغير ذلك . يعاونها فى ذلك أختنا الكبيرة . و يقضى لها حوائجها من الخارج أخونا الكبير . فكانت بذلك عماداً لتدبير المنزل . ولم يكن ذلك مرهقاً لأنه أكل بسيط يحضر تحضيراً بسيطاً . فليس بضرورى أن يكون لحماً كل يوم ولا أصنافاً متعددة . وليس عندنا فرش كثير يستدعى فى تنظيفه تعباً كثيراً .

* * *

وأما أخلاقها فكان أظهر شىء فيها الوداعة بمقدار كبير ، حتى كانت لوداعتها محبوبة من أهل الحارة . يتخذ نساؤها بيتنا محطاً لهن ، يكثرن فيه من

الزيارة . و إلى هذه الوداعة السذاجة ، فهى تصدق أى بائع إذا حلف ، وتصدق الحديث إذا حكى لها ، ولو لم يقبلة العقل الناقد .

وهى حسنة الحديث من قصص وحكايات ، تملأ بذلك وقت زوارها وسمر أطفالها . وقد ورثت ذلك عن أمها ، فكانت بذلك جعبة أخبار وقصص وأمثال . واعتدنا أن لا ننام إلا على خبر من أخبارها أو قصة من قصصها . وتعادل مزاجها مع مزاج أبى . فهى لينة رحيمة ، وأبى قاس شديد . ولذلك كنا نهرع إليها عند شدة أبينا . وقد تحلت بمقدار من الصبر كبير ، فتحملت أبى على شدته وكثرة خصامه ، مما لا تستطيعه المرأة العصرية اليوم .

وكانت أمى تعيش فى بيت أبوى السلطة ، فكان الأب فيه كل شىء . هو الذى يمسك ميزانية البيت ، وهو الذى يشرف على أخلاقه . وهو الذى يستشار فيما نأكل وفيما لا نأكل ، وهو الذى يشترى لنا ما نأكل وما نلبس . وهو الذى يسمح لأمى بالخروج وعدم الخروج . وهو الذى يحب نوعا من الحديث دون نوع . وعلى الجملة كان هو كل شىء فى البيت . لا رأى بجانب رأيه ، ولا أمر بجانب أمره . وهو الذى يقتصد أو ينفق . يجمع فى يديه قوة الكسب وقوة الإنفاق . وقد حملها على الرضا أن أغلب البيوت فى عصرها كان على هذا النمط . فهى تنظر حولها فلا تجد إلا مثيلاتها ، خلا بيتاً واحداً كان ربه رجلا عجوزاً ماتت زوجته العجوز فتزوج فتاة صبية كانت هى سيدة البيت . وهى التى تأمر وتنهى . وهو لكبر سنه يسمع ويطيع . والسلطة الأبوية فى تاريخ الأسرة معروفة مشهورة . مرت عليها كل البيوت تقريباً . وهذا يطبع الأبناء عادة بطابع الدكتاتورية . فهم يرثون من آبائهم السلطة المطلقة إذا كونوا لأنفسهم أسراً جديدة .

ولذلك كانت هناك حرب عوان بين النساء لاسترداد سلطتهن ، و بين الرجال لرغبتهم فى السلطان . كانت هذه الحرب أشبه ما تكون بثورة ، انتصرت فيها المرأة انتصاراً عظيما على الرجل . وانقلبت الحال فى كثير من الأسر من رجل يحكم البيت إلى امرأة تحكمه .

وكان من مزايا أمى عدم جشعها فى المال . فليست تحرص على أن تكون لها ثروة كبيرة . ولذلك لما أنست إلى ووثقت أنى أقوم بكل نفقاتها لم تطمع فى إرثها من أبى ، وتنازلت عنه لأولادها عن رضا واختيار . وعمرت حتى بلغت الثمانين .

كتاب

عثرت فى هذه الأيام على كتاب قيم ألفه أبو بكر بن العربى ، وهو غير محيى الدين بن العربى ، وقد قرأته فأعجبت به واستفدت منه فوائد كثيرة ، وهذا الكتاب اسمه (العواصم من القواصم) ، ولعله أخذ هذا الاسم من أبى حيان التوحيدى ، إذ سمى أحد كتبه (الهوامل والشوامل) .

واستدللت من هذا الكتاب على أنه فى النصف الثانى من القرن الخامس كان بعض العلماء الناضجين يحارون فى أمرهم أين الحق وما منهج الوصول إليه . أهو التصوف أم الفلسفة أم التشيع أم الاعتزال ؟... الخ . ودعاهم إلى ذلك ما كان فى عصرهم من كثرة الجدل حول هذه المسائل كلها مما أدى أحياناً إلى القتال ؛ وقد حار هذه الحيرة فى زمنه الغزالى أيضاً وابن فورك وغيرها ، وقد دعته هذه الفكرة إلى أن يرحل من بلده أشبيلية بالأندلس إلى سائر الأقطار العربية ليلتقى بجبابرة العلماء و يباحثهم و يعرف أين الحق .

وفى أثناء رحلته التقى بالغزالى فى دمشق ، وكان قد تصوف منذ خمس سنوات ، فسأله وناقشه وسمع عليه بعض كتبه جرياً على الطريقة المتبعة فى زمنه .

وكان مما قاله الغزالى فى شرح طريقته أن القلب إذا تطهر عن علاقة البدن المحسوس وتجرد للمعقول انكشفت له الحقائق ، وهذه أمور لا تدرك إلا بالتجربة لها عند أربابها ، وذلك أن القلب جوهر صقيل مستمد لتجلى المعلومات فيه عند زوال الحجب عنه ، كالمرآة تتراءى فيها المحسوسات عند زوال الحجب من صدأ وغيره .

وقد كتب له الغزالى هذا بخطه ، ولكن كان ابن العربى مستقل الفكر ، فلم يرضه هذا الكلام من الغزالى ، ورد عليه رداً بديعاً بأنه لا يصح قطع العلاقة

بين الروح والبدن ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة يباشرون أمور الدنيا كما يباشرون أمور الدين ، ولا يقطعون بين الروح والبدن .

ومن الفوائد التى استقيتها من هذا الكتاب تاريخ المذاهب المختلفة . ثم نصه على كتاب إخوان الصفا ، وقوله قولا يغاير ما عرفنا من قبل ، فقد كان اعتمادنا فى معرفة مؤلفيها على ما رواه أبو حيان التوحيدى فى كتابه الإمتاع والمؤانسة وتعديده لأسمائهم ، أما ابن العربى فقد قال إن مؤلفيها أربعة من القضاة لقبوا أنفسهم إخوان الصفا ، وجمعوا خمسين رسالة فى كل علم رسالة ، ومن الأسف أنه لم يسم لنا أسماء هؤلاء القضاة الأربعة ، ولو سماهم لجلى لنا كثيراً من الغوامض .

ومن رأيه أن محاولة الجمع بين الدين والفلسفة — كما فعل إخوان الصفا فى رسائلهم ، وكما فعل ابن رشد وابن سينا فى بيانهم أن الفلسفة لا تنافى الدين — محاولة فاشلة ، إذ لكل من الدين والفلسفة مسلك خاص ، هذه تعتمد على العقل المحض ، وذاك يعتمد على القلب المحض ، وهذه تعتمد على المنطق والحجج العقلية ، وذاك يعتمد على النظر فى الكون والإصغاء إلى القلب ، فمحاولة الجمع بينهما لا تؤدى إلى نجاح .

ومن ألطف ما فى الكتاب استقلاله فى تفسير بعض الحوادث التاريخية واعتقاده أن المؤرخين يروون بعض الحق ويضيفون إليه كثيراً من الباطل ، لا فرق فى ذلك بين المسعودى وابن قتيبة وغيرهم ، فعنده مثلا أن السبب فى نكبة البرامكة أن نزعتهم مجوسية يبثونها بين المسلمين ، ومن وسائلهم أنهم كانوا يطلقون البخور الكثير فى المساجد بعد أن كانت تطيب بالخلوق ، قصداً منهم إلى إشعال النار فى المباخر تعظيما لها كعادتهم المجوسية ، ومن وسائلهم أيضاً عقدهم مجلساً منتظما يحضره من ينتحل علم الكلام من أصحابهم ، وقد اختاروا لهذا المجلس أربعة عشر عضواً ، ثمانية من المعتزلة كأبى هذيل العلاف والنظام و بشر بن المعتمر وعلى رأسهم الموبذان قاضى المجوس ، و يتحادثون فى أشياء قد لا تكون لها علاقة

بالدين كتعريف العشق وأسبابه ، وأشياء فلسفية عويصة كمناقشتهم فى هل الله قادر على ما لو وقع منه كان ظالماً ونحو ذلك ، ومن رجالاتهم ابن المقفع ، والجاحظ وابن الراوندى وأمثالهم . ومن وسائلهم ترجمة الكتب اليونانية الفلسفية ودسهم فيها أشياء لا تتفق والدين . وهذا هو السبب فى أن هارون الرشيد قضى عليهم وقتلهم .

وكرأيه المستقبل فى صحة خلافة معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد ، وبناء عليه فخروج الحسين ثورة على الدولة الشرعية ليس له حق فيها ، وأنه إنما قتل بشرع جده عليه السلام .

وهكذا إلى غيره من الآراء الجريئة المبثوثة فى الكتاب . ثم بعد هذه الرحلة الكبيرة والاستفادة منها رجع إلى بلاده مطمئنا إلى ما اعتقده من الحق وما وصل إليه عن طريق بحثه المستقل .

استقبله أهل بلده استقبالا حسنا وأكرموا عودته وولوه القضاء ، ففعل ما كان ينتظر منه : صرامة فى الحق وشدة على الظالمين ولو كانوا من الأمراء والأعيان ، وحزم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ومن أعماله أن سور أشبيلية احتاج إلى بنيان جهة منه تهدمت ، ولم يكن بالخزينة مال ، ففرض على الناس التبرع بجلود ضحاياهم فى عيد الأضحى وبيعها لبناء السور ، فقدموها كارهين ، ثم ثاروا عليه ونهبوا داره وطلبوا عزله من القضاء . وقد رويت عنه أحكام قضائية تدور كلها حول ذلك ، واضطر أخيرا إلى الخروج من بلده ، فقبض عليه الموحدون فى مراكش وحبسوه نحو سنة ، ثم سرحوه فمات بعد قليل سنة ٥٤٣ وحمل ميتا إلى فاس فدفن بها . رحمه الله .

عيدان الذرة

وقفت على حقل مزروع ذرة فرأيت عددا قليلا من العيدان قد نما وترعرع وفاق غيره فى الطول وكثرة ما يحمله من الكيزان . ورأيت كذلك عددا قليلا من العيدان قصير القامة ، ضعيف البنية ، لا يحمل من الكيزان إلا قليلا ، أما أغلب الحقل فعيدان متوسطة لم تبلغ درجة الأولى فى النضج ولا الثانية فى الضعف .

أليس كذلك الإنسان ؟

حفنة قليلة من الناس يعدون نوابغ وعظماء أو ما شئت فسمهم ، وحفنة قليلة من الضعفاء ، ضعف عقلهم وضعفت بنيتهم ولم يصلحو للحياة إلا بشق الأنفس ، وأما السواد الأعظم من الناس فأوساط لم يبلغوا ما بلغه الأولون ولا انحطوا كما انحط الآخرون .

وتراهم كذلك فى كل جمعية بشرية ، فى المدن الكبيرة والمدن الصغيرة والقرى . وبمقتضى نبوغ النابغين ، حملوا أكبر العبء وكانت فى يدهم السيطرة وبمقتضى حقارة الحقيرين كان فيهم الذل والفقر والمسكنة ، أما الباقون فهم جمهرة الناس .

وترى هذا فى كل مرافق الحياة ، فى الفنون والأدب والموسيقى والتصوير ، إن كان هذا عمل الطبيعة فكم من السخف أن ننادى بالمساواة لأنها ضد الطبيعة ، ولو سويت بين الناس فى الرزق يوما لاحتال الأقوياء على الضعفاء فسلبوهم مالهم

بقدرتهم وذكائهم ، وعادت الدنيا كما كانت غنى وفقر وسعادة وشقاء .

قد تكون المساواة فى الحقوق معقولة : مساواة أمام القضاء وفى حق الحياة وفى حق الحرية ، أما مساواة فى الكسب والأجور والقدرة على الأعمال فمستحيل أن تكون ، وإذا كانت فمستحيل أن تستمر .

والمهارة الكبرى فى أن يكتشف أصحاب الأعمال مقدرة العمال ثم يضعوا كلا فى موضعه ، وأولياء الأمور أفراد الأمة فيضعوا كلا فى موضعه المناسب . لذلك نادى علماء التربية بأن يقسموا التعليم أنواعا : تعليما زراعيا وتجاريا وصناعيا ونظريا ثم يفحصوا حالة كل طالب فيعرفوا ميوله واستعداده ، ثم يوجهونه إلى ما يلائمه ، وبذلك تنمو ثروة البلاد ، فمن الناس من كفاءته فى يده ومنهم من كفاءته فى قلبه ومنهم من كفاءته فى عقله ، فلو سيرت كلا فى اتجاهه لنجح ، ولذلك ترى فى الحياة الواقعية كثيرين خابوا فى أول حياتهم لأنهم اتجهوا عكس استعدادهم ، ثم نجحوا لما حولوا اتجاههم حسب كفايتهم .

ولو أنصف الناس فمدحوا أى عامل على إتقانه فى عمله لا على نوع عمله ، فقد كان من الطبيعى أن يمدح الكناس على إتقانه فى كنسه كما يمدح الأديب على إتقانه فى أدبه ، والعالم على إتقانه فى عمله ، لأن كلا من الكناس والعالم والأديب يعمل حسب ما خلق له ، ولا فضل فى الطبيعة بين أحد وأحد ، ولكن الناس مُدحوا على نوع العمل لا على طبيعة العمل .

* * *

ثم من حين إلى حين تجد فى حقل الذرة عودا قد نما نموا شاذا لم تكن تراه منذ سنين ، فكذلك الشأن فى الإنسان يطلع على الأمة من حين لآخر فرد أو

أفراد نبغوا نبوغا عجيبا لم يكن للأمة عهد به منذ سنين ، وهؤلاء هم زعماء الأمة في سياستها أو علمها أو فنها .

ثم تبحث عن مسببات هذا النبوغ فتجد عجبا ، ليست الحبة التي نبت منها العود الكبير أكبر حبة ، ولا طينتها أحسن طينة ، ولا أم النابغة أحسن أم ، ولا أبوه أحسن أب ، ولا بيئته أحسن بيئة ، ولكن صدق الله العظيم إذ يقول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ساسة العالم منافقون ..

كان ابن سعدان وزير آل بويه يسأل أبا حيان التوحيدى هل يصلح الفلاسفة أن يكون بيدهم زمام السياسة ؟ وهل ينجحون ؟ ... ودعاه إلى الشك فى هذا خوفه من أن فلسفة الفلاسفة تحرمهم قوة العزم والحزم والبت فى الأمور ، والسياسة عمادها سرعة البت . وخشى أن الفلاسفة يكثرون من تقليب الأمور على وجوهها لسعة تفكيرهم ورؤية الأشياء من جميع جوانبها ، ولذلك قالوا : أقوى الناس إرادة أضعفهم تفكيراً لأنه لا يرى الأمور إلا من وجه واحد ، أما واسع التفكير فضعيف الإرادة لأنه يرى الأمور من جميع وجوهها . وربما كان ابن سعدان خير مثل للوزير لأنه تفلسف فى وزارته فكان مصيره القتل .

والحق أن العالم محتاج إلى قادة جدد ، لأنه قد سار على نمط واحد حتى مل . . وسار الزعماء على طريقة واحدة حتى ملوا . فهموا السياسة أنها نفاق ورياء وتملّق لأصحاب رؤوس الأموال ، وتحقيق مصالح الأمة مهما اكتسحوا فى طريقهم من الأمم . وقد تطور العالم وسار شوطاً بعيداً نحو الإنسانية ، وصار يكره نغمة النفاق والرياء ويكره النظر الضيق إلى مصالح الأمة وحدها ، وهو يريد سياسة واسعة النظر لا تنظر إلى الأمة نفسها ولكن تنظر إلى الإنسانية كلها ... ولا تنافق ولا ترائى ولا تستخدم أساليب مقنعة وتسمى الأشياء بغير أسمائها ، فتسمى الاحتلال استعماراً ، ثم تسميه انتدابا ، وتسمى كبت الأحرار محافظة على النظام العام ، وتسمى تحمس المستعمرين لدينهم تعصباً بغيضاً ونحو ذلك .

***

هذا النظر الجديد من العالم يحتاج إلى قادة جدد لم يتعفنوا تعفن من قبلهم ولم يجمدوا على القديم جمود من قبلهم ... بل يكونون مرنين يواجهون المشاكل كما

هى ويحاولونها على حسب ما تقتضيه الإنسانية كلها ، ولا يستغلون المستعمر ، ولكن يأخذون بيده حتى ينهض . والقادة القدماء لا يصلحون لذلك ، فهم أبناء مدرسة قديمة يأخذ آخرهم عن أولهم ، وقد طبعوا على عقليات واحدة ، وأشربوا نظاماً واحداً ، فلا بد أن ينحوا عن القيادة ، ليستطيع العالم النهوض على أساس الإنسانية ، ولتفتح لهم مدارس تقوم مقام المدارس القديمة يكون أساسها منهجاً جديداً يساير العالم فى تقدمه .

ولقد كانت مبادئ الرئيس ويلسون والرئيس روزفلت وهيئة الأمم مبادئ قويمة ، ولكن خنقتها الزعامة القديمة . فما أعلن ويلسون مبادئه حتى ضحك منه كليمنصو ولويد جورج وأمثالهما ممن ربوا على النظام القديم ، ولم يألفوا النظام الجديد ، فضاعت كل هذه المجهودات هباء ، وكان ينقصها حفنة من الرجال تؤيدها وتحمى حماها ، لا كما فعل كليمنصو ولويد جورج من تسليط المعاول عليها والضحك على ويلسون بألفاظ جديدة تحمل المعانى القديمة حتى ماتت . إنما نريد رجالا من صنف آخر تسيرهم المصلحة العامة لا المصلحة الشخصية ، ويكونون صدى للشعوب وقادة يتقدمون إلى الأمام ، لا سواقا يكونون فى الخلف .

إن الشعوب الآن بعد أن اكتوت بنار الحرب وفهمت المخاطر من القنابل الذرية والصواريخ الهدامة لا تريد الحرب بأى ثمن ، وإنما تريد تفاهم القادة وتجنيبهم لويلات حرب جديدة ، أما هؤلاء القادة الممسكون بزمام الأمور اليوم فيتبعون النظام القديم ويريدون حربا لا يكتوون هم بنارها ولكن تكتوى شعوبهم بها ، وهذا خطل فى الرأى .

نريد قادة يرون شعور العالم شعوراً إنسانياً عاما فيتقدمون ويسبقون الشعوب فى الدعوة إليه . نريد قادة لا يشجعون القنبلة الذرية والاختراعات الحربية ، ولكن يشجعون استخدام قوانين الذرة فى الصناعات السلمية . وهؤلاء القادة لا يمكن أن يكونوا إلا إذا ربوا تربية أخرى على منهج آخر ، عماده المصلحة

العامة وإحلال الإنسانية محل الوطنية ... فإن فشلوا فى ذلك فعيب الناس لا عيبهم ، والعادة أن الفكرة الجديدة تحتاج إلى زمن طويل حتى تثبت فى الأذهان وتنبث فى المشاعر . ولهــذا يختنق الزعماء المصلحون أمثال ويلسون وروزفلت ومن قبلهما إبراهام لنكولن . وربما كان سبب فشلهم أنهم كانوا أسبق لزمنهم . أما اليوم فزمنهم هو هذا لأن الشعوب آمنت بما كانوا يدعون إليه .

***

لقد كان هؤلاء الزعماء متقدمين يوم كانت شعوبهم متأخرة ، أما اليوم فالشعوب متقدمة ، وزعماؤها متأخرون . وإذا تقدمت الشعوب وجب أن يغير « طقم » الزعماء حتى يتناسب مع الشعوب . وأظن أن هذا ما سيكون قريباً لأن الزمن عودنا أن قوة الشعوب لا تغالب ، فإما أن يتنحى الزعماء الحاضرون عن مراكزهم ويخلوا أماكنهم لغيرهم ، وإما أن يكتسحهم التيار فيذهبوا إلى غير رجعة ويحل غيرهم محلهم ، ولا يزال الحديث صحيحاً : كما تكونوا يول عليكم . فالشعوب وهى التى كانت تسمى فيما مضى رعية تجددت واحتاجت إلى راع جديد ، حتى أنها لتكره اسم الراعى لأنه رمز إلى الأغنام والناس لم يعودوا غنما بل شعروا بإنسانيتهم ، فخير أن يسمى القواد زعماء بدلا من تسميتهم رعاة .

ولقد بدأ هتلر فى ألمانيا وموسولينى فى إيطاليا بدءا حسنا ، إذ خرجا على النظام القديم حتى فى الاقتصاديات وأعمال البنوك ، لأنهما وجدا مبادئها قد تعفنت ... فتحررا من مبادئ عفا عليها الزمن لولا أن الحظ لم يسعفهما . إن القادة اليوم متأخرون عن زمنهم ، ونريد قادة يتقدمون زمنهم . والقادة اليوم ضعيفو الثقافة لا يفهمون إلا خرافات فى شكل حقائق ، ونريد قادة يفهمون الحقائق لا الخرافات ويميزون بين حقيقة وتقليد ، ولا تعميهم الأساليب القديمة واللغة القديمة والألفاظ القديمة التى تحجرت وأكل الزمان عليها وشرب .

كان الإسلام يقول : يبعث الله على كل مائة سنة من يجدد له أمر دينه ، وذلك لأن القائد القديم لا يصلح بعد مائة سنة — وقد تقدمت الآراء والأفكار — فيبعث الله قائدا جديدا يماشى هذه الأفكار . والقادة اليوم يسلكون طريق قادة اليونان والرومان ذراعا بذراع وشبرا بشبر و يستعملون ألفاظهم وأساليبهم ... فنحن أحوج ما نكون إلى مجددين .

لقد تجمعت قوات انجلترا بأساطيلها ورجالها لمحاربة الهند وسلكت طريقها المألوف ، فقتلت الألوف وعذبت الناس وملأت السجون ... ولكن جاءها قائد جديد بنمط جديد لا يملك إلا ثوبه ، ولا يأكل إلا من لبن عنزة ، ويدعو إلى المقاومة السلبية لا المقاومة الإيجابية ، ويدعو إلى الإنسانية و يطلب الرحمة لمن قاتله ، و يغزو بنظرته حيث يغزو الإنجليز بمدافعهم ، و يدعو إلى المساواة بين المنبوذين . وأخيرا تغلب هذا القائد الجديد على القادة القدماء وانتصرت الهند واستقلت . وكان هذا درسا للعالم يملى عليهم أن القادة الجدد خير من القادة القدامى .

وسلحت الدول الأور بية المبشرين بكل ما لديها من وسائل ، وخير مثل لذلك جنوب السودان . فقاومهم الإسلام ببساطته وسماحته ، ولا قوة له ولا سلاح ... فانتصر عليهم لأنه يعتنق مبدأ جديدا و يعتنقون مبدأ قديما . وضج المبشرون من قلة من يعتنقون المسيحية من الوثنيين مع كثرة المال وكثرة العدد وحماية الحكومات لرجال التبشير ، ونجاح الإسلام ولا تبشير ولا قوة .. وهذا أيضاً يرينا أن المبادئ القديمة المتعفنة لا تصلح للعالم اليوم ، فقد تغير العالم فيجب أن يتغير القادة . وما كان يضحك به على العالم وهو طفل لا يصلح لأن يضحك به عليه وهو شاب . وثوب الصغير فى المهد لا يصلح أن يكون ثوبا للرجل الكبير الكهل .

و يشترط فى القائد الجديد أن تكون له المرونة الكافية لا يحتقر القديم لقدمه ، ولا يعتز بالجديد لجدته ، إنما هو رجل طالب للحق حيث كان . قد يأخذ من القديم ولا يأنف ، وقد يأخذ من الجديد ولا يجمد .

أدب المستقبل

لكل عصر مزاجه و بيئته التي تؤثر في أدبه ، ومن أجل هذا لا يمكن لعصرنا أن يخرج كتابا مثل كتاب الأغانى يعتمد على الرواية والسند ، وعلى الأخبار المتفرقة ، لأن هذا كان نتيجة لمزاج زمانه ، فهو يقلد كتب الحديث فى اعتمادها على السند وروايتها للجزئيات . ونحن لا يغلب علينا هذا النمط من التأليف ، ومحال أن نؤلف على هذا النحو . ومن أجل هذا أيضاً كان أكثر من تعلم اللغة الأجنبية بجانب اللغة العربية يفضلون أن يقرأوا الكتب الإفرنجية ، لأنها تتعرض لموضوعات العصر ، بأساليب العصر .

و يحق لنا أن نتساءل : ما مستقبل الأدب ، وخصوصا الذى سيسود ؟ لقد جاءت الحرب العالمية الأولى ثم الثانية ، فأثرتا فى الناس وحياتهم الاجتماعية أثراً بالغا ، وكان لا بد أن يتبع ذلك التغير ، تغير فى الاتجاه الأدبى .

ونحن نلاحظ أن الأدب يسير سيرة البندول ، أحيانا إلى اليمين ، وأحيانا إلى اليسار ، كالحياة . فقد أعقب الحرب العالمية الأولى نوع من اليأس وخيبة الأمل ، وشك فى القيم ، وامتهان لها ، وسخرية عابسة لا تؤمن بشىء .

وأنتج ذلك أدبا فيه حيوية واستهتار بالحياة ، كان فى نفوس الناس إيمانا عميقا بأن الحياة لا تستأهل الحرص عليها ، خصوصا أن الجيلين اللذين اشتركا فى الحرب الأولى كانا يؤمنان بالمثل العليا ، وأن الحرب ستسلم فى النهاية إلى سلم رائع ، يسود فيه الحق والعدالة والخير . فلما رأيا أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، صدمهما الواقع ، وأنتج الأدباء فى ذلك العصر أدبا نظروا فيه إلى أحداث العالم نظرة سوداء . ولذلك لما دخلوا الحرب الثانية دخلوا وهم مرتابون فى النتيجة ، قياسا على ما رأوا فى الحرب الأولى .

وكان أكثر الروايات التى أخرجوها فى هذه الفترة تدل على الشك والارتياب ، وشعورهم العميق بالحاجة إلى القيم التى أهملت ، وردّ اعتبارها إليها ، وتقويمها من جديد ، ولذلك كان الشباب الذى تخرج فى الحرب الثانية وما بعدها ، أنضج عقلا ، وأكمل رجولة . فكسبوا بذلك قدرة على المناداة بالإصلاح . وكان صوتهم مسموعا ، ومكانتهم ملحوظة .

وهذه الحركة من الشبان تدل على أنهم سيكونون أصدق نظرا ، وأحسن عملا .

ومن المظاهر التى نلحظها بعد الحرب الثانية ، الميل إلى الإيمان ، ويظهر أن هذا هو طابع الكتب المستقبلة ، بدليل ما نلاحظ من أن الكتب الدينية قد زادت انتشاراً ، وزال كسادها . وسبب ذلك قسوة الحرب . والحاجة إلى ركن ركين يعتمد عليه الناس . وتبع ذلك تحطيم النفاق والرياء والاحتيال ، وتصوير العواطف الواقعية تصويرا جريئا صادقا واضحا لا لبس فيه ولا غموض . ومن المظاهر التى نتوقع أن تسود قلة التفات الأدباء إلى أنفسهم وأفرادهم ، وكثرة التفاتهم إلى مجتمعهم ، والإعراض عن النظرية التى كانت سائدة ، وهى أن الفن للفن ، وأن الأدب ينبغى أن يكون حرا طليقا لا يقيده شىء ، بل يسود الأدباء والفنانين نزعة البوهيمية ، وإلا ما كانوا فنانين . وحل محلها نظرية « الأدب فى خدمة المجتمع » ومن مظاهر ذلك كثرة الروايات والكتب التى تعالج مشاكل المجتمع . ورأينا أن أدب الفردية والحيرة والاضطراب يسير إلى الزوال . وعظم إحساس الأديب بمسئوليته . ولا شك أن هذا سيبدو أثره واضحا فى كتب المستقبل . فالأديب سوف لا يغنى لنفسه ، وإنما يغنى للناس . وسيختفى أيضاً نتيجة لسيادة الديمقراطية الصناعية تفخيم الأسلوب والزينة اللفظية ، والعناية بأنواع البديع والزخرف . وستسود البساطة ، والرغبة فى إفهام الناس من أقرب سبيل . وسيرتبط

الأدب بالنظام الاجتماعى ، ليؤدى فيه وظيفته الحقة ، وبذلك سيدخل الأدب فيما نعتقد فى عصر من عصوره الزاهية .

لقد كان الأدب والفن فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وكان يغمرها موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب . أما فى المستقبل فسيعودان إلى النور ، وسيرتفعان إلى القمة .

إننا الآن فى موقف يفوق كثيراً موقف الأدباء الأقدمين . لقد كانوا يعيشون من فتات الملوك ، وكان الأدب أكثره مديحا ، وكان طابعه الملق والنفاق ، فتزلزلت عروش الملوك ، ولم يعد الأدباء المداحون يجدون ملوكا يمدحونهم . وظهرت قوة الشعب فوق قوة الملوك . وسيزداد ذلك على الأيام .

لقد أصبحنا أكثر حرية ، وأوسع انطلاقا ، وسيكون مَن بعدنا خيراً منا ، وسيشعر الأدباء بمسئوليتهم أمام مجتمعهم ، فيتعلمون كيف يكتبون لخدمة مجتمعهم .

لقد كانت القصة فى ربع لقرن الأخير مملوءة باليأس ، وبالعوامل التى تحطم القيم الإنسانية إلا فى القليل النادر .

أما فى المستقبل فستردّ إلى الأشياء قيمها ، ويسودها الروح الإنسانى ، وسيسودها الحلم اللذيذ .

لقد جرت العادة فى تقسيم الأدب إلى نوعين : نوع يقصد منه التسلية والمتعة فقط ، ونوع يهدف إلى توسيع فهمنا للحياة ، وتقويتنا على احتمالها ، وعندى أن كتب المستقبل سيكون أقلها من النوع الأول وأكثرها من النوع الثانى .

لقد جرينا زمنا طويلا على أن نعتمد على أدبنا ، فإذا اقتبسنا من غيرنا ، فاقتباس قليل . أما فى المستقبل وقد كسرت الحواجز بين الأمم ، وكثر الاتصال بينها ، فسوف يستفيد كل أدب من أدب غيره ؛ فيستفيد الشرق من أدب الغرب ، ويستفيد الغرب من أدب الشرق ، مثل التبادل المادى .

سيختفى الأدب الذى هو أشبه شىء بالتقارير ، والذى يعتمد على الوصف المادى ، وسيغلب الوصف المبنى على التأمل الخصب ، والحيوية التى يعرض لها الأديب وسيقربون من المثل الأعلى للأدب ، وهو أن يكون واضحاً قوياً موجزاً ، وسيختفى اللعب بالألفاظ ، والغموض ، وستكره الشعوب الأدباء الثرثارين ، والأدباء المنافقين ، والأدباء المزوقين ، والأدباء الماجنين .

ويغلب على ظنى أن الأدب فى السنوات القريبة ، سيهدف إلى تقويم النفس الإنسانية تقويماً كبيراً ، ويعيد إليها مكانتها ، وبذلك ينتهى امتهان الأدب لكرامة الإنسان : سواء بالانهماك فى الملذات ، أو عدم الاعتداد بالنفس البشرية ، أو الضعة لأولى القوة .

لئن كان الأدب فى السنين الأخيرة الماضية ، محطماً لقيم الإنسانية فإن الأديب فى المستقبل القريب سيكون أكثر أملا ، وأكثر تقويماً للإنسانية .

لقد رأينا أن الأدب كان يتجه إلى التقليل من قيمة العظماء السابقين والشك فى وجودهم أو عظمتهم ، وإنشاء القصص الساخرة بالناس وبالمجتمع ، ولكن ينتظر أن يزول كل ذلك . فإن كبار الكتّاب هم أصدقاء الإنسان ، وأحباء الحياة ، وسيكون الأديب مشبعا بروح الحماسة محاولا بناء العزائم لا هدمها ، وسيحسّن للناس الحياة ، ويدعو إلى أن فيها خيراً كثيرا ، قد يفوق الشر .

إن الأديب كان يهتم كثيراً بنفسه ، وقلما يهتم بالناس ، ولذلك ضعف شعوره بالمسئولية . أما فى المستقبل فسيشعر الأديب بأنه مسئول عن الحياة الاجتماعية التى يعيش فيها ينادى برفع الظلم ، ويأسف لسوء الحال ، ويحارب الشكاكين الذين لا يؤمنون بالله ولا بالوطن ، ولا بأى شىء .

لقد عشنا طويلا ، نحن وإخواننا فى الشرق ، فى ذلة وفقر ، لا نرى ملجأ إلا الملوك والأمراء ، نتملقهم ، ونأكل من أيديهم . أما السلطة اليوم فللشعوب ،

والعهد عهد الديمقراطية ، لا الأرستقراطية ، والمنادون بالإصلاح عادة هم الأدباء ، يرون أنهم لم يؤدوا رسالتهم إذا عكفوا على شهواتهم ، وغنوا لأنفسهم ، وقبعوا فى كسر بيتهم . فما لم يسايروا الشعب آماله ، يموتون جوعا ، وينبذهم المجتمع نبذ النواة .

بل لعل الأديب مسئول عن مجتمعه ، أكثر من مسئولية الحاكم لأن الأديب أقدر على الاتصال بنفس الشعب ، وأقدر على تحريك مشاعره . وهو يحس بمقدار خدمته للشعب ، وإحساسه بالمسئولية أمام الشعب .

لو استعرضنا الأدباء العرب الأقدمين لرأينا قليلا منهم من تحمل المسئولية ، وهل تحمَّلها أبو نواس وهو الغارق فى شهوته ، وأبو تمام والبحترى ، وهما يشعران أكثر ما يكون الملوك والأمراء ، أو المتنبي وهو يجرى وراء مال أو ضيعة ، أو ابن سكّرة والحجاج ، وهما ماجنان لا تهمهما إلا النكتة ، يضحكان بها الناس ، أو الشيخ على الليثى ، والسيد على أبو النصر وهما يسيران فى فلك الخديو إسماعيل حيثما سار ، أو غيرهم أو غيرهم ...

لقد انقضى ذلك العهد ، وأصبحنا فى عهد يتحمّل فيه الأديب مسئولية مجتمعه ، أكثر مما يتحملها الحاكم والموظف والجندى ، ذلك لأن قيم الأشياء انقلبت على مرِّ الزمان رأساً على عقب .

سيقدر التاريخ الأدباء تقديراً آخر غير التقدير الماضى . لقد كان التقدير الماضى مبنيا على فخامة أسلوب ، وجمال تعبير ، وقدرة على البديع ، أما فى المستقبل فسيكون تقدير الأديب : ماذا صنع لأمته ، وكيف هداها إلى الخير ، وإلى أى حد رفع صوته ضد الظلم والفساد ؟

الربيع الباكر

أشعر أن العالم فى هذه الأيام أجمل منه فى أى وقت آخر .

إنا نرى الله تعالى دائماً خالقاً رازقاً ، ونراه أيضاً فى هذه الأيام فناناً .

وهذه الأيام جديرة أن تنظر فيها إلى فنه كما تنظر دائماً إلى فيضه وخيره . فقد انقلبت الطبيعة من رمادية داكنة ، وأحطاب عارية ، إلى خضرة كاسية تمتع النظر ، وتريح النفس .

وتتجمل الأغصان بأوراقها الناضرة التى ترهص بأن تكون فروعا ، وفى هذه الأيام تكتسى الأشجار وكانت عارية ، وتتألف البراعم وكانت غائبة ، وتتفتح الأزهار وكانت غامضة .

وفى هذه الأيام تصحو الدنيا وكانت نائمة ، وتأخذ فى الغزل السريع الجميل وكانت هاجعة .

هى تذكرنا بالشباب الجميل وقد فقدناه ، وبالعيش الجديد بعد أن نسيناه . إن الطبيعة تعرض علينا فيلماً جميلا ، كما تعرض علينا صورة رائعة مختلفة الألوان زينت بإطار بديع .

أنك تقرأ فيها الملائكة الطاهرة ، والجن الساحر . وأين التطريز العجيب ، تطرزه الفتيات الجميلات من هذا التطريز الأنيق ؟

إن كان لى أن أنصحك ، فأقول لك : اخرج وتأمل . تأمل جذوع الأشجار الضخمة كالأعمدة ، وتأمل « البانيسيه » الملون المنقوش نقشاً يعجز عنه أى فنان .

إن الطبيعة فى هذه الأيام تغنى سيمفونية رائعة ، لئن كان لله مظاهر قوية فى الزلازل والصواعق ، فله مظاهر وادعة وجمال فى الطبيعة فى هذه الأيام .

إن من صفة الله الـكلام ، و يظهر كلامه فى أمره وخلقه ، ولـكنه فى هذه الأيام يضغط فى بعض حروفه فتكون الطبيعة جميلة .

إن الأرض فى هذه الأيام فخمة ساحرة فيها روائح الجنة ، ثم الطيور وما أدراك ما هى ؟ تغرد طويلا بعد أن سكتت ، وتغنى كثيراً بعد أن صمتت ، وتمرح بعد أن بكت ، ولا يفهم غناءها إلا من شجى شجوها .

لئن قلت لك فيما مضى اخرج وانظر ، فإنى أقول لك الآن اخرج واسمع ، وكم فى الطبيعة من مناظر بديعة وأصوات جميلة . فى كل منهما متاع للسمع والبصر .

إن فيها بلسما للجريح ، وطربا للنفس ، وجمالا فى العين ؛ إنها تبعث إلينا أطفالها الأربعة ، الشمس والماء والهواء والتراب ، فتستقبلنا فى هدوء وتحيي فينا النفوس ، وتبعث فينا الدفء . وهى فى هذه الأيام تنعشنا بعد الخمود ، وتحيينا بعد الموت .

هى فى هذه الأيام تجمل كل قبيح بأوراقها الخضر ، وتكسو كل عريان بأثوابها النضر .

ثم هى توحى بأسرارها لمن أحسن الإصغاء لها وتأمل فى مناظرها ، وسمع لأنغامها ، ومن وفق إلى ذلك رأى عجبا من الأسرار وغزارة فى الإيحاء .

ومن عجيب الأمر أنك تعى أسرارها ، ولا تستطيع أن تخبر بها ، أو أن تكتبها أو أن تعلمها .

إنها أعمق من اللغة ، وأدق من الأمواج .

وكل ما تستطيع أن تقوله لمن يسألك عنها ، اذهب وانظر إليها كما نظرت ، واسمع لها كما سمعت ، توحى إليك بأسرارها ، كما أوحت إلى .

إن اللحم والدم فينا لا يستطيعان أن يدركا أسرارها ، ولـكن روحنا تستطيع أن تدرك روحها .

إن من قوانين الطبيعة الموت والحياة ، وقد أرتنا الموت فى الشتاء ، فأرتنا الحياة فى الربيع .

إن فيها لشعراً ، أين منه شعر أكبر الشعراء ، وإن فيها لفنّا أين منه فن أكبر الفنانين .

لا تجعل حياتك دائما عبدة للنهائى والمحدود ، وخصص جزءاً من وقتك ، تستمتع فيه باللانهائى واللامحدود .

إن من صهره الحب لم يتقيد بالمقاييس ، ولا بالاقتصاديات ، بل يرى أنه كلما أسرف جنى .

إن معيشتك أحيانا فى اللانهاية واللامحدود تبعدك عن الأنانية والقومية ، وتوسع أفقك حتى أكثر من الإنسانية .

أساس الإسلام

من أروع ما فى الإسلام وصفه لله ، فالله هو رب العالمين ، عالم الجماد ، وعالم النبات ، وعالم الحيوان ، وعالم الإنسان ، وعالم المجموعة الشمسية ، وعالم غير المجموعة الشمسية مما نعلم وما لا نعلم ، وهو واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. هو الذى خلق الخلق أولا ، ثم هو الذى يمده بالحياة دائماً ، وهو الذى يدبر نظامه ويسيره إلى غايته ، فعلاقته بمخلوقاته لا تنقطع ، ولو انقطعت لحظة لفسدت السموات والأرض ومن فيهما ، وهذا هو الذى يميز العقيدة الإسلامية عما يعتقده الأوربيون اليوم ، فهم يعتقدون أن الله خلق الخلق وتركه يدبر نفسه كما شاء ويدبرونه هم فى دنياهم كما يشاءون ، فهم الذين يقررون الفضائل والرذائل ، وهم الذين يسنون قوانينهم وشرائعهم حسبما يتراءى لهم ، فإذا ذكروا الله فى أوقات الشدة — كأوقات الأزمات الحرجة فى الحرب — فكل أمة تدعى أنه معها ، وتستنجده فى النصرة على عدوها ، كأن الله تعالى خادمها لا المسيطر على العالم كله يصرفه ويقضى فيه حسب سنته التى رسمها . فميزة العقيدة الإسلامية أنها تصفه بالخلق ، وتصفه بأنه يرعى العالم دائما ويهديه سبله دائما ، وتطلب من الإنسان أن يوثق علاقته بربه ، فيرعى أوامره ونواهيه فى كل تصرفاته ، ويطلب منه الهداية ، ويؤسس نظرته إلى الأخلاق على ما أمر الله به أو نهى عنه ، ويشكل حياته الفردية والاجتماعية حسب تعاليمه ، ويجدّ فى اكتشاف إرادة الله فيتبعها ، ويدقق فى فهم إشاراته فيعمل على وفقها ؛ ويجعل صلته بالله أقوى صلة ، وحبه لله أقوى حب ، والخوف منه أكبر خوف ، يؤمن ألا شيء فى الوجود يستطيع أن يبقى لحظة من غير إمداده ، هو أول الخلق وآخره ، بمعنى أنه السبب فى خلقه ، والغاية التى ينتهى إليها وجوده ، وهو الذى وضع للناس القواعد الأخلاقية الأساسية لسيرهم ،

وربط الأمر والنهى بما ينفعهم ويضرهم ، فأمر بما ينفع ونهى عما يضر ، وهو الذى يحاسبهم على تصرفاتهم فى دنياهم يوم يلقون ربهم « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » يقرب إليه المطيعين ، ويبعد عنه العاصين ، يريد من الإنسان أن يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ، وأن يسعى ويجد فى الحياة مراعياً أوامره ونواهيه ، لا يترهب ، ولكن يسعى ويعمل ، ولا يغمض عينه عن الدنيا التى يعيش فيها ، كما لا يغمض عينه عن الأخرى التى يرى فيها ربه . وقد كتب الله على نفسه أن يمد بالمعونة من استعانه فى شئونه ورعاه فى حياته ، وأن يخذل من صد عنه ، وعصى أمره ، بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

* * *

هذه العقيدة ، عقيدة وحدانية الله وعظمته وقدرته على هذا النحو ، من شأنها أن ترفع نفس معتنقها ، فمن الذى يؤمن بإله هذه أوصافه ، ثم يذل لمخلوق أو يتنزل إلى سفساف الأمور ؟ ومن الذى يؤمن بإله هذه صفاته ، ثم لا يتحرى الفضيلة فى حياته ويتجنب الرذيلة فى سلوكه . إن عقيدة الوحدانية تجعل الإنسان على أحسن صلة بالناس وبالحيوان وبكل الخلق ، لأنه وإياهم نتاج صانع واحد ، ومدبر واحد ، فاتصاله بهم وبكل موجودات العالم اتصال أخوة . تجعله لا يذلّ للغنى ولا للحاكم ، ولا لذى السلطان ، لأنه لا سلطان إلا لله ، والفروق بين الإنسان والإنسان فروق فى العرض لا فى الجوهر ، وفى الأوصاف الزائلة للأشياء لا فى الخالدة فيها ، والله لا يقوِّم الناس بغناهم وجاههم ، ولكن بقلوبهم وأعمالهم . تجعله لا يحتقر الفقير ولا الضعيف ولا المرءوس لأنه أخوه أيضاً ، وشريكه فى الحياة ، وشريكه فى العبودية لله ، فهو عزيز النفس فى غير كبر ، أبىّ فى غير عتوّ ، متواضع فى غير ضعة ، ناظر إلى كل شىء نظرة عطف ورحمة ، لا يرضى بالهوان لأنه ينتسب إلى الله العظيم ، ولا يرضى أن يَظْلم أو يُظْلم ، لأنه ينتمى إلى الله العادل ، يعمل ويكد فى الحياة ويبتغى أن يكون فى أعلى مقام ، بفضل عقيدته

فى الله التى هى أَحسن العقائد ، ويجب أَن تكون أمته خير أمة أُخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . يطيع الله فيما أَمر به ، وينتهى عما نهى عنه ، ويُعمل عقله حيث لا أَمر ولا نهى ، لأن العقل منحة الله ، والله أَمر باستخدامه والاستهداء به .

***

إن كان هذا فما الذى جعل المسلمين فى أنحاء العالم فى الذيل لا فى الصدر ، وفى المؤخرة لا فى المقدمة ، وكان مقتضى العقل أن تجعلهم هذه العقيدة فى طليعة أهل العالم ، وحاملى لوائهم وهداتهم ، والسابقين إلى الخيرات ، والآمرين لا المؤتمرين ، والقائدين الأعزة لا المقتادين الأذلة ؟

سؤال صعب : والجواب الصحيح أن العقيدة الصحيحة تقوّم بذاتها لا بمعتنقها ، فقد ينحرف أهلها عنها ، أو يحتفظون بشكلها لا بجوهرها ، ولو آمن بها أتباعها حق الإيمان لصحّ أن يكونوا مقياساً كما كان معتنقوها الأولون ، ولكن مع الأسف فقَدَ المسلمون روح العقيدة وحرارتها وحياتها ، وتمسكوا بظاهرها ، والظواهر لا عبرة بها ولا قيمة لها ، والحق أن العالم الآن مسلمه ومسيحيه ويهوديه يعيش من غير عقيدة صحيحة ، أو من غير توفيق بين العمل والعقيدة ، أو بعبارة أخرى هم يعملون من غير أن يكون الباعث على عملهم العقيدة ، ومن غير أن ينظروا فى أعمالهم هل هى مطابقة لعقيدتهم أولا فالعالم صنفان : صنف من الأمم يعيش من غير دين ، أو بدين يؤمن بالله ، ولكن يجعل إلٰهه طرفه من الطرف فى مكان مغلق يستمتع بالنظر إليه من حين إلى حين ولكنه لا يُدخله فى حياته ولا فى تصرفاته ؛ وصنف يعتنق الدين بصفاته الصحيحة التى ذكرنا ، ولكنه يعتنقه نظريا لا عملياً ، فالنظم الاجتماعية عند الجميع فى العالم والنظم السياسية ، قائمة على نظرات آلية ميكانيكية ليس مبعثها الاعتقاد بالله واتباع أوامره ، بدليل أن السياسى المتدين والسياسى الملحد يتفاهمان كل الفهم على التصرف فى الأمور ،

والاجتماعى المتدين والاجتماعى الملحد سواء فى النظر إلى الأمور على وفق المصالح من غير نظر إلى روح الدين .

وقد فقد الدين والعقيدة فى الله ساحة الحياة العملية ، وأصبح المتدينون على اختلاف أديانهم لهم دين ميتافيزيقى يعيشون فيه أحياناً بتفكيرهم أو خيالهم ، ولهم حياة عملية منفصلة عن الدين بتاتاً تسيّرها الأغراض والمادة ، ويخدم كل ذلك العقل ، ولا يلاحظ فيها أى ملاحظة ، خالق الخلق ، وأوامره ، وإشاراته ، ولا ينبض فيها القلب بأى معنى من معانى العطف والرحمة والطاعة .

والفرق بين المؤمن والكافر اليوم أن المؤمن مؤمن نظريا ، كافر عمليا ، والكافر كافر نظريا وعمليا ، ولذلك سيبقى العالم مضطربا حائرا فاسداً حتى يجد روحه وقلبه ، وقد تفوق العالم المسيحى على العالم الإسلامى اليوم لأنه كان أعرف بوسائل الأعمال ووسائل الحياة ، وأكثر استكشافا لقوانين المادة ، وقوانين القوة المادية لا لأنه أرقى دينا وأعظم روحا ، فالعالم كله اليوم مخطئ إذا نحن نظرنا إليه نظرة روحية ، وهو شقى بتقدمه المادىّ ، وتقدمه العقلىّ من غير أن تسندهما قوة الروح ، وليس ينقص المسلمين إصلاح فى عقيدتهم ، ولا روحانية فى دينهم ، ولكن ينقصهم أمران : الأول أن يكون الدين روحا لا شكلا ، وقلبا لا جوارح ، وحرارة لا مظهراً ، ونبضا لا جمودا ، وأن تكون « لا إله إلا الله » . و « الحمد لله رب العالمين » . معنى لا لفظا ، وصادرة من أعماق القلب لا من طرف اللسان ، وأن يكون معنى « لا إله إلا الله » أن ليس عرض من أعراض الدنيا إلها ، فالمال والجاه والسلطان ليست آلهة تعبد ، ولا قوة يُخضع لها ، وإنما الخضوع للحق وحده لأن الله هو الحق ، ومعنى أن الله رب العالمين : أن ليس فى العالم رب يطاع وتسمع أوامره ونواهيه إلا هو — جلّ شأنه — ؛ والثانى : ارتباط عملهم بعقيدتهم ، وإيجاد العلاقة الوثيقة بين ما يعملون وما يعتقدون ، فليس

للعقيدة من قيمة إذا حفظت فى خزانة لا تفتح ، أو قدست وأهملت ، أو لُفَّت فى ثياب من حرير ثم تركت ، فكما أن لا قيمة للمال إلا ما انتفع به ولا لأى عرض من أعراض الحياة إلا إذا استغل للمصلحة ؛ فأهم من ذلك كله العقيدة : إذا لم يُبْنَ عليها العمل كانت نجما جميلا فى السماء ، أو لوحة جميلة فى المعرض ، أو خيالا بديعاً فى أخيلة الشعراء ، أو صورة فنيه من صور الأدباء . إنما العقيدة المصلحة هى العقيدة يتبعها العمل ، وتبعث النور فى طريق الحياة ، وتهدى إلى الصراط المستقيم .

عينية ابن سينا

اشتهرت هذه العينية بأنها لابن سينا ، والناقد الأدبى يقطع بأنها ليست له ، لأنه إذا تذوّق ما لابن سينا من شعر وأراجيز ، وتذوّق هذه العينية يرى أنها أرق بكثير من شعر ابن سيينا . فابن سينا غامض اللفظ فى شعره وفلسفته ، سمج التعبير ، يعتمد فى لغته على المعاجم ، وهى و إن دلت على المعنى الصحيح للكلمات فإن وراءها ذوقا يميز بين جيدها ورديئها وما يحسن استعماله وما لا يحسن ، وابن سينا أبعد عن ذلك سواء فى فلسفته أو شعره أو قصصه .

فهذه القصيدة فى نظرنا أشبه ما تكون بشعر ابن الشبل البغدادى صاحب قصيدة :

بربك أيها الفلك المدار   أقصد ذا المسير أم اضطرار

وهى إلى تعبيره أقرب ، ولذلك نسبها بعضهم له . وقد كان جميل الشعر حسن السبك للألفاظ دقيق الاختيار .

والعينية هذه تدور حول حالة النفس قبل اتصالها بالبدن و بعد اتصالها به وبعد مفارقتها له ، فهو يرى كفلسفة القرون الوسطى أن النفس كانت قبل البدن بعهد طويل ، تتمتع بكل ما تتمتع به العناصر الروحية المجردة ، ثم تحل بالأجسام حين يخلق الجسم فى الرحم ، فتحلّ به وهى كارهة ، ولكنها إذا طالت مدتها ألفته ، ثم إذا هى فارقته بالموت فارقته وهى كارهة . والجسد يجرى من النفس مجرى الثوب من البدن فإن الجسد يحرّك الثوب بواسطة أعضائه الظاهرة ، والنفس تحرك البدن بواسطة قوى خفيفة مناسبة ، فهى التى تحرّك العين واليد والرجل وغيرها ، فإذا فارقته عدم الحركة . وكلمة الإنسان تطلق عليهما معا ، وتطلق على النفس حقيقة وعلى الجسم وحده مجازا ، كما يسمى ضوء الشمس شمسا . وهذه

النفس لا تتجزأ بذاتها ، و إنما تتجزأ بأعراضها . وليست النفس فى البدن كالماء فى الإناء إذا أفرغ الماء بقى الإناء كما هو حين حلوله به ، والجسم لا يكون كما هو عند مفارقة النفس ؛ ولا النفس كالحلاوة فى العسل ، لأن الحلاوة عرضية ولأن النفس رئيسة للبدن والبدن مرؤس ، وليست الحلاوة رئيسة للعسل ، و إنما هى بمنزلة شعاع الشمس كما قلنا وهى حيَّة بذاتها .

والكون كله مظاهر للنفس ، فلكل شىء فى الكون نفس وهو مظهرها ، وهى مفطورة على صورة الفاطر جل وعلا ، ولذلك جاء فى الحديث : (إن الله خلق آدم على صورته) .

وهذه خلاصة تلك الفلسفة ، وتتمتها أن النفس قبل اتصالها بالبدن كانت عالمة بكل شىء . فلما اتصلت بالجسم نسيت ما كانت تعلمه . والتعليم إنما هو تذكير بما كانت تعلم لا خَلْق للعلم ، و بذلك كان يقول سقراط . وكان يقول : إنه استطاع أن يُعلم عبدا له أدق نظريات الهندسة بمساعدات بسيطة ، ولو كان التعليم خلقا ما استطاع ذلك ، ور بما أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى : « و إذ أخذ ر بك من بنى آدم من ظهورهم ذر يتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بر بكم قالوا بلى » .

فذلك قوله :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

والتعبير بالهبوط تعبير جميل ، مما يدل على ذوق جميل ، فهى خيرٌ من نزل أو سقط أو غيرهما من الكلمات التى تفيد معناها ، لأنها تدل على أن مهبطها دار عناء و بلاء ، والورقاء الحمامة الرمادية . هذا فى الأصل ، ثم أطلقوها على كل حمامة وهو يكنى بالحمامة عن النفس ، أى النفس الكلية ، فهو يقول : إن النفس هبطت من المحل الأرفع إلى الحضيض الأخس الأوضع ، والمراد بالمحل الأرفع عالم العقول المجردة ، التى تفيض منه النفوس على الأبدان ، عند استعداد البدن للفيضان .

ثم قال :

محجوبة عن كل مقلةٍ ناظرٍ   وهى التى سفرت ولم تتبرقع

يقول : إن النفس قد حجبت عن أن يراها راء ، أو بعبارة أخرى ، قد حجبت عن الحواس ، لا تدركها ، وهى مع ذلك تدرك بالعقول ، وتدل عليها الأفعال .

فالعقل يدرك إذا تجرد من الجسم ، كالذى قال أبو يزيد البسطامى : « انسلختُ من جسدى فرأيت من أنا » .

ويقول الحلاج :

اقتلونى يا ثقاتى   إن فى قتلى حياتى

وحياتى فى مماتى   ومماتى فى حياتى

ثم يقول :

وصلَتْ على كُرْه إليك وربما   كرهت فراقك وهى ذات توجع

فتعلق النفس بالبدن شديد ، وهى تكره فراقه إلا إذا حصلت كمالها ، والسر فى كره المفارقة أنها باللذات الحسية من مأكل ومشرب وترؤسها على الحواس ، فهى قد هبطت كارهة ، وخرجت كارهة .

ثم يقول :

أنفت وما أنست فلما واصلت   ألفت مجاورة الخراب البلقع

أى أن النفس استنكفت واستكبرت عن أن تتصل بالجسم ، واستعلت عليه بحجة أنها من الموجودات الشريفة العالية ، فكيف تتآلف مع الأجسام التى هى من الظلمات ، ولكن لما حلت فى الجسم ألفت به من طول الملازمة له . ويريد بالخرب البلقع البدن ، لكونه قابلا للفساد والبطلان ،

ثم يقول :

وأظنها نسيت عهودا بالحمى   ومنازلا لفراقها لم تقنع

ومعنى البيت أنه يتعجب من شدة اتصالها بالبدن وركونها إليه ، واشتداد

محبتها له ، مع أنه من غير جنسها ، ولما حلت بالبدن نسيت أيام كانت مجردة متصلة بالعالم العلوى ، وعند تعلقها بالبدن لم تقتصر على نسيانها لعالمها ، بل زاد على ذلك عشقها للمادة الآيلة للفناء ، وشغفها بها ، فرضيت بالأدنى ، واستغنت به عن الأعلى .

ثم يقول :

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها　　من ميم مركزها لذات الأجرع

يقول : إن النفس لما انفصلت من ميم مركزها أى من أعلى عالمها ، وعبّر بميم المركز لأن الميم حرف من حروفه ، أو مبدأ لفظه ، كما قال هاء الهبوط والمراد به الجسم . وذات الأجرع استعارة لجسد الإنسان .

ثم يقول :

علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت　　بين المعالم والطلول الخُضّع

أى تشبثت بالبدن الذى عبر عنه بثاء الثقيل ، وسماه ثاء الثقيل لأن الثاء أول حروفه .

ثم يقول :

تبكى إذا ذكرت عهودا بالحمى　　بمدامع تهمى ولم تتقطع

الحمى البقعة التى يحوزها الإنسان بقوته ، ويمنع غيره من التعدى عليها ، وتهمى تسيل . وذلك أن النفس من حين إلى حين تحن إلى ما كانت عليه قبل اتصالها بالبدن يوم كانت فى عالم المجردات ، فتحزن ويعظم وجدها وبكاؤها .

ثم يقول :

وتظل ساجعة على الدِّمن التى　　درست بتكرار الرياح الأربع

يقال سجعت الحمامة ، إذا رددت صوتها على وجه واحد . والدمن ما بقى من آثار الديار ورسومها ، ويقصد بها هنا أجزاء البدن . والدروس ذهاب الأثر .

يقول إن النفس تبكى البدن وتحزن عليه إذا فارقته ، كما حزنت عند حلولها فيه .

حتى إذا قرب الرحيل إلى الحمى　　ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

وغـدت مفارقة لـكل مخلف عنها أليف الترب غير مشـيع
هجعت وقد كشف الغطاء وأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع

أى أن النفس لما قاربت مفارقتها للبدن ، وقطعت العلائق الجسمانية بالموت ، وغدت مفارقة للبدن وتوابعه ، وقطع العلائق والأسباب بينها و بينه ، هجعت أى نامت ، وكشف عنها الغطاء ، فأبصرت ما لم تـكن تبصر من قبل ، ورأت بعين بصيرتها مالم تكن تدركه بالعيون فى اليقظة .

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام ، فإذا ماتوا تنبهوا » .

وغدت تغرد فوق ذروة شاهق والعلم يرفع كلَّ من لم يرفع

والتغريد التطريب بالصوت . أى أن النفس بعد مفارقتها للبدن علمت ما لم تكن تعلم ، وسرت بخلاصها من بدنها الذى كان يمنعها عن العلم .

فلأى شىء أهبطت من شامخ عال إلى قعر الحضيض الأوضع ؟

يسأل عن الحكمة الباعثة لتعليق النفس بالبدن ومرور هذه الدورة من هبوط واتصال بالبدن ، ثم انفصال عنه ثم عودتها إلى ما كانت عليه .

إن كان أهبطها الإله لحـكمة طويت على الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسـمع
وتعود عالمة بكل خفـية فى العالمين فخرقها لم يرقع

أى أنها لو كانت هبطت لحـكمة خفيت عنا ، فهبوطها كان لازما لتعلم ما لم تكن تعلم ، وتعود عالمة بالأسرار الخفية فى عالم الغيب والشهادة ، وقد كانت تعلم عالم الغيب فقط .

وهى التى قطع الزمان طريقها حتى لقـد غربت بغير المطلع

يقول : إنما كان مراد النفس من الهبوط تحصيل مأربها من علم عالم الشهادة ، وتنفصل عن البدن بصفة لم تكن وقت التعلق ، وذلك أنها فى حين التعلق كانت ساذجة لاتعرف الكمال ولا النعيم ، فعرفته حين اتصلت بالجسم .

فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

أى أن النفس فى سيرتها هذه كأنها برق خاطف ، تألق حيناً قليلا حتى كأنه لم يلمع .

وهنا تنتهى القصيدة . وصف للنفس واتصالها بالجسم كارهة ، ودخولها فى البدن كارهة ، وخروجها عنه كارهة . فلم كان هذا الدخول وهذا الخروج ؟ يقول : إن دخولها فى الجسم كان سبباً فى علمها ما لم تعلم من العالم الأرضى بعد العالم السماوى . وتعديل رأيها فى معنى الكمال . فهو قد وصف أدوار النفس ومراحلها من هبوط فاتصال فصعود ، فانكشاف لما لم يكن يعلم ، فحيرة فى رحلتها هذه ، فإجابته بأنها قد اكتشفت بهذه الرحلة علماً فوق علمها وإدراكا فوق إدراكها . وهذه حكمة الخلق من حياة وموت .

فكرة فلسفية لطيفة فى شعر لطيف . وقد كان البحث فى النفس والوجود والعدم مثاراً لكلام طويل ، وحيرة شديدة ، وقد تعرض له ابن الشبل البغدادى أيضاً فى قصيدته : « بربك أيها الفلك المدار ... الخ » ، وحار هذه الحيرة ، وتساءل هذا السؤال ، فهى تصور لنا مرحلة من مراحل المسلمين فى التفكير .

ومن الأسف أنه إلى الآن لم تنكشف حقيقة هذه النظرية الغامضة ، وبقيت غامضة اليوم كما كانت غامضة بالأمس ، ولم تتقدم المعرفة الإنسانية لتحكم أصحيح هذا أم خطأ ، وذلك لأن هذا لا يحل بالعلم ، إذ ليس هذا من دائرته ، وإنما هو من دائرة الدين ، والله أعلم .

النظام المالى فى الإسلام

النظام المالى فى كل أمة أساس عظيم لحياتها الاجتماعية ، فإن رأيت أمة متقدمة فى المدنية والحضارة ، وفى العلوم والفنون ، وفى المخترعات ووسائل النقل والمواصلات ، وعلو مستوى المعيشة بين أفرادها ، فاعلم أن ذلك ناتج من حسن نظامها المالى . وإن رأيت الفقر المدقع منتشراً بين جمهورها ، وهى منحطة فى زراعتها وعلومها وفنونها ، فاعلم أن ذلك يرجع أولا إلى سوء نظامها الاقتصادى ؛ ولذلك قوّمت المدنية الغربية الأمور الاقتصادية تقويماً كبيراً ، بل جعلتها أساساً يؤثر فى نظامها السياسى ، ونظامها الاجتماعى ، ووُجِد المتخصصون فى المسائل الاقتصادية والتعمق فى بحثها ، وإفرادها بعلم يسمى « علم الاقتصاد » ، له الشأن الأول بين العلوم .

من أجل هذا كان من رأى كثير من المصلحين فى الشرق ، أن يوجهوا عنايتهم إلى حالته الاقتصادية ، وأن يقدموا ذلك على الإصلاح الإجتماعى والسياسى ، فلو أصلحت ، أصلحت الحياة الاجتماعية والسياسية ، ودليلهم على ذلك أن الشرق متأخر فى زراعته ، فليست مبنية على العلم بل هى مبنية على التقليد القديم والأوضاع الموروثة ؛ وإذا سلط العلم على الزراعة أمكن أن ينتج الشرق من زراعته أضعاف ما ينتج الآن ، وكذلك الشأن فى معادنه المدفونة فى أرضه وصناعته البدائية وما إلى ذلك ، فالشرق غنى ولكن لايجد الرأس المفكر والهمة الحازمة والشركات الممولة واليد العاملة ، ولو أنه أتيح له كل ذلك لكثرت أمواله وزاد غناه ، فنشأ عن ذلك محو الفقر المدقع ، وارتفع مستوى المعيشة ، ثم نتج عن ذلك انتشار العلم وانتشار وسائل المدنية ، ورقى الصناعة ، بل لنشأ عن ذلك أيضا إصلاح السياسة . فالرأى العام الفقير الجاهل ليس له من القوة ما للرأى

العام الغني المثقف . وفى قولهم هذا كثير من الصحة ، فإنى أعتقد أن الأعداء الثلاثة وهى : الفقر والجهل والمرض تزول كلها بزوال الفقر ، والفقر يزول بتنظيم الحياة الاقتصادية .

* * *

والأرض التى خلقها الله تكفلت بتقديم الضروريات لجميع أبنائها إذا عقلوا ، وقد كان الإنسان الأول مكفى الحاجة قليل الجهد فى الحصول على ضروريات حياته ، فهو يعتمد على ما يجده من أثمار الأشجار أو من الصيد ، ويلبس مما ينتجه الحيوان ، ويسكن الكهوف ، ولا يحس أى إحساس بأزمة مالية . ولكن شاء الله أن يخلق الإنسان طموحا إلى تحسين حاله ، راغباً بطبيعته فى الحياة الاجتماعية ، مضطراً إلى القرار ما أمكن بحكم تربية أولاده الذين يتطلبون فى تربيتهم زمناً أطول مما تقتضيه تربية الحيوان ، إلى غير ذلك ، فزرَعَ الأرض وكلما تقدم الزمن زادت مطالب حياته ، وتأنق فى مسكنه وملبسه ومأكله . وكان بحكم الطبيعة أن تفاوت الناس فى القدرة على الكسب ، فذكى وغبى ، وماهر وأخرق ، وبعيد النظر وسفيه ، وفيلسوف ومغفل ، إلى غير ذلك ، فكان من ذلك اختلاف الثروات ، ومن يعيش عيشة سعيدة ، ومن يعيش عيشة شقية ، ومن يجد فوق حاجته ، ومن لا يجد حاجته ، وكلما تقدمت المدنية زادت هذه الأمور تعقيداً ، وفُكر فى الحلول لها ، ووضعت المقترحات والنظم الإقتصادية لحلها وتنظيمها .

وكان أكبر العقبات الفروق الكبيرة فى الثروة ، واستبداد الغنى بالفقير ، والقادر بالعاجز ، وصاحب رأس المال بالعامل ، وعلى هذه الحلول والمذاهب الاقتصادية انقسمت الأمم الأوربية إلى رأسمالية وشيوعية وفاشية ، ولكن مع الأسف ليس حلٌ منها أراح الناس ولا حلَّ المشاكل . وأسباب فشلها كثيرة ، منها : أن النظام الاقتصادى نظر إليه كأنه مستقل بنفسه ، كأن الانسان حيوان

اقتصادى فقط ، ليس له خلق ولا عقل ولا روح ، فالذين يكتبون فى الاقتصاد يوجهون كل همهم إلى المسائل الاقتصادية مجردة عن النظارات الأخلاقية والإنسانية ، ويحاولون حل مسائلهم من هذه الزاوية وحدها ، فمثلهم مثل المهندس الذى يضع كل همه فى إصلاح الحائط المائل من غير أن يلتفت أى التفات إلى بناء البيت كله ، أو كالطبيب الذى يداوى المعدة من غير أن ينظر إلى علاقة المعدة بالجسم كله ، فالإنسان منتج ومستهلك من حيث الاقتصاد ، ولكن له بجانب ذلك ناحية خلقية ، وناحية اجتماعية وناحية روحية ، وكلها تنتج الإنسان كإنسان ، فالنظر إليه من ناحية واحدة نظر لايجدى ، من أجل هذا كان سلوك الناس الخلقى ضربة مميتة للحياة الاقتصادية ، فالأغنياء الذين تكدست عندهم الثروة لم ينظروا إلا إلى أنفسهم ، فتوسعوا فى وسائل الملاذ ، وبحثوا كل يوم عن مصدر جديد للذة ، وتفننوا كل التفنن فى أثاث البيت ومطعمه وأدوات زينته تفنناً عز عن الوصف من غير التفاتة إلى إخوانهم الفقراء الذين لا يجدون ضرورات العيش ، فنشأ عن ذلك الصراع الشديد بين طبقات الفقراء وطبقات الأغنياء ، وكراهية كل لكل .

وقد حاولت الشيوعية أن تنظم هذه العلاقة وتقرب هذه المسافة ، فنجحت فى هذا ، ولكن وقعت فى الخطأ الذى وقع فيه غيرها من المذاهب الاقتصادية ، فتصورت الإنسان كأن ليس له دين ولا عواطف ولا حرية شخصية ، وإنما هو حيوان لا يسبح إلا فى الدائرة المالية . وفيها عيب آخر وهو أن استبداد أصحاب رؤوس الأموال المتعددين تركز فى النظام الشيوعى فى يد الحكومة وأعوانها فأصبحت هى الوحيدة صاحبة رأس المال ، وكان لها من التحكم فى الأفراد وسلب حريتهم ما لم يستطعه أصحاب رؤوس المال المتعددون ، إذ كان فى تعدد الرأسماليين منفذ للعمال ، إذ ينتقلون من صاحب رأسمال قاسى إلى أقل منه قسوة ، وهم أنفسهم

يتبارون فى التودد للعمال ، استجلاباً للانضمام إليهم والعمل معهم ، وليس ذلك موجوداً فى الشيوعية .

* * *

نظام الاسلام المالى قد بنى على أسس أخرى من أهمها ربط الحياه الاقتصادية بالحياة الخلقية ، بالحياة الاجتماعية ، بالحياة الدينية . فلم ينظر إلى الإنسان على أنه مجرد حيوان اقتصادى ، بل شرّع الأمور المالية بحيث يمتزج الاقتصاد بالقانون بالأخلاق ، فإذا كان الربا من الناحية الاقتصادية مباحا ، كالبيع إذا كان الربا فى حدود معتدلة ، فإن الأخلاق لا ترضى عنه من حيث سوء العلاقة بين معطى المال بالربا وآخذه ، ولذلك حرمه الاسلام غير ناظر إلى الناحية الاقتصادية وحدها . ثم هو وضع التعاليم الأخلاقية التى تكرّه الإنسان فى اختزان الذهب والفضة من غير أن يعين إخوانه الفقراء من الناس كأن يقول : « إن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

وقد حارب الإسلام مشكلة المشاكل وهى الإفراط فى الغنى ، والإفراط فى الفقر بوسائل شتى منها ما ذكرنا من تحبيب الناس بعضهم فى بعض ، وعطف الغنى على الفقير ، والنظر إلى الجانب الخلقى بجانب النظر إلى الجانب المالى ، ووردت فى ذلك الآيات الكثيرة والأحاديث الكثيرة التى تشعر الإنسان بأخيه الإنسان وتحببه إليه وتحننه عليه .

ومن ذلك أيضاً أنه حرم الإفراط فى الملاذ وطلب الاعتدال فيها ، ناظراً إلى أن الغنى إذا لم يفرط فى ملاذه ولم يجد منافذ للانفاق الكثير فى شهواته ، ولم يجد المال نافعاً فى الانغماس فى نعيمه ، تحول بالضرورة إلى النظر إلى الفقراء ومساعدتهم ومعونتهم ، فمثلا حرم على الرجال لبس الحرير والتحلى بالذهب ، وكره الأناقة فى المساكن والملابس ، وحبب إلى المؤمنين التخشن حتى لا يفقدوا رجولتهم ، وحرم الخمر والميسر والزنا ، وكلها من قبل الإفراط فى اللذات ، حتى لا يستتبع ذلك الجشع فى طلب المال ، والحرص على اكتنازه .

ثم فرض الزكاة ويعجبني تسمية الإسلام الزكاة بهذا الاسم ، فهو اسم خير من كلمة الضريبة ونحوها من كلمات لأنها ترمز إلى أن إخراج الزكاة تطهير للمال الباقي ، فكأن المال المكنوز نجس لا تطهره إلا الزكاة « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . وهذا القدر من الزكاة وهو ٢٫٥٪ قد يكون قدراً ضئيلا ولكنه هو القدر القانوني ، وبجانب ذلك ، القدر الكبير الأخلاقي وهو الإحسان ، وهذا لا حد له ، وإنما هو موكول إلى ضمير الشخص وخلقه وعطفه وميوله الدينية والخلقية التي يحاول الإسلام أن يغرسها وينميها باستمرار .

ومن ذلك أيضاً نظام الإرث ، فكثير من النظم الأوربية حصرت الإرث في الابن الكبير أو نحو ذلك ، فكانت الثروة مجموعة تنتقل من شخص إلى شخص وهي بعينها لا ينقص منها شيء ، أما نظام الإسلام فوزعها وجعل لكل من الأولاد ذكوراً وإناثاً نصيباً منها ، وكذلك للأب والأم والزوج والزوجة ، إلى غير ذلك ، فكان هذا عاملا كبيراً في انقسام الثروة وتوزيعها على عدد كبير من الناس ، وتقريباً للمسافات البعيدة بين الغنى المفرط والفقر المفرط .

* * *

فلو تصورنا مجتمعاً سادت فيه هذه التعاليم ، وخضع فيه النظام الاقتصادي للسلوك الأخلاقي ، وحُرّم فيه على الأغنياء أن يسرفوا في الملاذ والملاهي ، وفرض عليهم جزء قانوني من المال يصرف في وجوه البر ، والأخذ بيد الفقير ، إلى مال لا حد له يصرفه الغني لمساعدة الفقير يسمى إحسانا ، إلى توزيع الثروة توزيعاً كبيراً بين أفراد متعددين ، لكان مجتمعاً قد تبرأ من حقد الفقراء على الأغنياء ، وعسف الأغنياء بالفقراء ، ولكان مجتمعاً تتقارب طبقاته ، فلا فقير مدقع ولا غني جشع ، ولكان مجتمعاً قد حل أهم المشاكل التي عجز الاقتصاد وحده عن أن يحلها ، ولكن مع الأسف ، مبادىء سليمة لم تجد من يطبقها ، وآراء قويمة أهملت وسار المسلمون أنفسهم على ضدها .

الحق أن الإسلام خير من أهله .

الحياة الروحية

يغرق العالم اليوم من أطراف أصابعه إلى أعلى مفرقه فى الماديات ، فالمال عنده كل شىء ، ولا قيمة للروحانيات ، وكل شىء يقوم بالمال ومضاعفاته ومشتقاته . والحروب إنما تقام للمال ، والتعليم إنما يتجه للمال ، و يعد ما يدر مالا خير ، وما يفقد مالا شر . حتى أنك لو قدمت وردة جميلة لصديق أو صديقة نظر إلى ذلك باعتبار أن الوردة بكم تقدر . أما ما حول ذلك من جمال الوردة ، وعاطفة الحب أو الصداقة ، ومقدار سرور المهدى إليه الوردة ، والباعث عليه من المهدى ، فلا يقوم لأنه روحانى ، وهكذا انقلبت كل المعانى إلى مادية . وعملت المادية فى إعلان الحرب و إعلان السلم ، حتى أخشى أن تكون المساجد والكنائس أصبحت هى الأخرى مادية ، كما أخشى أن يكون كبار الأدباء فى العالم قد انقلبوا أيضاً ماديين تبعاً لعصرهم . فالمجلة يكتب فيها أو لا يكتب باعتبار الأجر ، والمقالات أو الكتب تقدر بعدد الصفحات أو تقدر باعتبار شهرة قائلها وكاتبها ، وكل هذا انحدار فى المادية . والكاتب السليط اللسان القادر على الهجاء ، يقدر أكثر مما يقدر الأديب العف اللسان ، العاجز تمام العجز عن السباب ، والكتاب الذى يلذع أو يثير الشهوة ، أو يثير الحسد ، أو يهيج النفوس أو هو مملوء بالشتائم أو يعلم السباب ، خير من الكتاب المؤدب المتورع عن الهمز واللمز إلى غير ذلك . و بلغ الحد أن صار كثير من الكتاب يخجلون من الكتابة فى الروحانية و يفخرون بكتابتهم فى المادية ، ولا يفرقون بين معان روحانية ومعان خرافية ، وكان مثلهم كقول أبى العلاء :

إذا قلت المحال رفعت صوتى و إن قلت الصحيح أطلت همى

ولا تكاد تجد فى العالم روحانياً يجهر بروحانيته إلا نادراً . ويخيل إلىّ أن حياة الناس اليومية قسمان : مادية وروحانية . هما كجسم الإنسان ونفسه ، وكثير يفهمون أن الروحانية لا تكون إلا بعد الموت فى الحياة الأخرى . ولكنى أعتقد أن الروحانية فى الدنيا والأخرى معاً ، وكل عمل فى الحياة له جانبان ، والأنبياء والصالحون والصوفيون يعيشون بين الماديين عيشة روحانية قوية كاملة .

وقد يعمل إثنان عملا واحداً ، وباعث أحدهما باعث روحانى ، وباعث الآخر مادى ، بل قد يتقارب اثنان فى أرواحهما على البعد ، ويتباعد اثنان فى أرواحهما على القرب ، فالمسافة ليست عاملا فى هذا الموضوع . وصدق النبى فى عظم تقديره للنية ، وقوله : « إنما الأعمال بالنيات » ، فكانت نتيجة ذلك تقويم العمل بالباعث لا بالنتيجة .

والعالم مملوء بما يغذى الروح ، كما هو مملوء بما يغذى المادة ، فيغذى المادة شهواتها وطمعها ، وانتقامها ، وغلبتها وانقلابها ، إلى كثير من أمثال ذلك كما يغذى الروح دينه ، ومظاهر نبله ، والأعمال الجليلة التى يقوم بها ، وما يراه من انهزام المادة وشراهتها وضراوتها ، وأنها بالنسبة له كالقزم بالنسبة للعملاق . ألم يكن ماشهدناه فى العهد الماضى من فساد نتيجة لتقويم المادية تقويماً أكبر من حقيقتها . فما المال ، وما سبائك الذهب ، وما الأطيان تعد بآلاف الأفدنة ، وما الجوهرات العديدة ، وما السعى الدائب فى تحقيق مصلحة خاصة ؛ فى نظير مال يدفع ، وما الذل للظالم ، وتمهيد السبيل له لرتبة ينالها ، أو مال يحصل عليه ؟

إن الروحانى إذا سما ، ونظر إلى العالم من طائرة ، سخر من العالم المادى وتكالب الناس عليه . يحكى أن غنياً كبيراً وعد أن يعطى فلاحه الصغير أرضاً بمقدار ما يجرى ، على أن يرجع قبل غروب الشمس ، فجرى وكلما جرى ازداد

طمعاً فى الأرض التى بعدها ، فجرى أكثر مما جرى ، حتى إذا قاربت الشمس الغروب بدأ يعود ، واستحثه قرب الغروب على سرعة العدو ، فمن كثرة عدوه انبتّ . فلا مال اقتنى ، ولا هو أبقى على نفسه . والحكاية تمثل حياة أكثر الناس ، يصرفون أكبر همهم إلى الاقتناء ، ويتعبون فى ذلك بما لا يقدر ، ثم تكون النتيجة حفرة ضيقة ، يرقد فيها من غير جزاء ولا شكور .

ستة أيام فى حياتى

تمر الأيام مروراً عادياً فى حياة الإنسان والأمم ، ولكن تحدث فجأة حوادث فى بعض الأيام يكون لها الأثر الكبير فى حياة الأمم والأفراد . . . وقد تكون الحادثة صغيرة لا يؤبه لها ولكنها تصبح ذات أثر فعال . ولو سئلت ما هى الستة الأيام التى كان لها أكبر الأثر فى نفسك ، لأجبت :

اليوم الأول

ذلك يوم أن فارقت الكتاتيب الابتدائية ، فقد أحسست أننى فارقت الفوضى إلى النظام ، والحياة اللافنية إلى حياة فنية ، والتعليم الهمجى إلى تعليم منظم . وشعرت أنه رد إلىّ اعتبارى ، فبعد أن كنت ألبس الجلابية والطاقية والمركوب أصبحت كأولاد الذوات ألبس البدلة والجزمة والطربوش . وصرت أدخل حارتى رافع الرأس تياها على أولاد الحارة .

و بعد قليل صرت أرطن بالفرنسية كأولاد الذوات ، ولكن أبى رحمه الله أراد ألا أنسى حياتى الشرقية بتاتاً ، فكان يحفظنى القرآن و يذكرنى دائماً بالحياة القديمة . وقد تعلمت فى هذه المدرسة كثيراً وخصوصاً مما خالطت من تلاميذ وما سمعت من أساتذة . ومن وقت لآخر كان يُبذر فى أعماق نفسى بذوراً ، ظلت هى العامل الأكبر طول حياتى .

اليوم الثانى

أما اليوم الثانى فيوم دخلت مدرسة القضاء ، إذ كنت قبلها أسير فى الحياة على غير هدى ، وليس لى هدف فى الحياة ... فلما دخلت هذه المدرسة تحدد هدفى أن أكون قاضياً شرعياً ، واستفدت كذلك فوائد لا تحصى من علم وخلق ، فقد كانت مدرسة القضاء أحب المدارس إلى سعد زغلول ، فاختار لها خيرة المدرسين

وكانت تدرس العلوم الدينية التقليدية والعلوم الحديثة ، فكنت أدرس الفقه والتفسير وبجانبهما الطبيعة والكيمياء ومقدمة القوانين . وكان من أكبر ما أثر فى ، اتصالى بعاطف باشا بركات ناظر المدرسة ، فقد كان رجلا عادلا حازماً شجاعا صريحاً لا يخشى فى الحق لومة لائم ، وساعدنى على الاقتباس منه أنه اختارنى لأكون معيداً له فى دروس الأخلاق ، وكان يدرسها من الكتب الإنجليزية ... فحبب إلى أن أتعلم اللغة الإنجليزية لأطلع على ما كتبه الإنجليز فى الأخلاق ، وكان اتصالى به فى الأخلاق يتيح لى فرصة الاختلاط به فى الدروس وفى البيت وفى العزبة ، وكان خارج الدرس يكلمنى فى كل شىء ، فى الدين وفى أخلاق الناس فى مصر وفى تجاربه فى الحياة ، مما ألقى لى ضوءاً لم أكن أعهده من قبل . وظل يلقى على حمل دروس الأخلاق شيئاً فشيئاً حتى استقللت بها . ولذلك لما مات حزنت عليه حزنى على أبى ، إذ كان هو أبى الروحى .

اليوم الثالث

وأما يومى الثالث فهو يوم الزواج ... ولقد كان حادثاً كبيراً غير مجرى حياتى ، وكان الزواج فى أيامنا مبنياً على المصادفة أكثر مما هو اليوم ، فالزوج لا يرى الزوجة قبل الزواج وفقا للتقاليد المرعية ، ولا يعرف عنها إلا ما قالته الأقارب من النساء من ذكر أوصاف لا تقدم ولا تؤخر . وبعد أن كنت أحمل مسئولية نفسى فقط ، أصبحت أحمل مسؤلية البيت ومسئولية الزوجة والأولاد ، وكل ذلك قد أكسبنى تجارب كثيرة فى الحياة .

اليوم الرابع

واليوم الرابع يوم أن عرفت امرأة انجليزية عجوزاً وأخرى شابة ... كانتا تعلمانى الإنجليزية ، وظللت مع الأولى أربع سنوات بذلت فيها الجهد لتعليمى

الانجليزية ، فكانت تدعو الانجليز من رجال ونساء لتعويدى سماع اللغـة واضطرارى إلى إطلاق لسانى فى القول ، وكانت تقص على ما لقيت فى انجلترا وباريس وبرلين وواشنطن ، وكان آخر ماقرأت معها كتاب جمهورية أفلاطون ، فكانت تقارن بين نظرياته وما دخل عليها من تعديل فى المدنية الحديثة .

أما الثانية فكانت شابة متزوجة غنية قوية فى العواطف قوة الأولى فى العقل . ولما تعلمت الانجليزية تفتحت أمامى آفاق واسعة لم يكن لى عهـد بها من قبل ، وصرت أعتمد عليها بجانب ما أعتمد على الـكتب العربيـة ، مما كان له أثر بعيـد فى ، مقالاتى وكتبى وتحضير دروسى ، ولا أدرى ماذا كنت أكون لو لم أتعلمها ...

اليوم الخامس

وكان اليوم الخامس يوم أتيحت لى الظروف لأول مرة أن أسافر إلى أوربا فى مؤتمر المستشرقين ، فقد اطلعت على عالم جديد فى نظمه الاجتماعية وفى معاهده العلمية ، واستطعت أن أوازن بين الشرق والغرب ، وأن أضع يدى على مزايا كل وعيوبه ... وكأننى رزقت عيناً ثانية بعد أن كان لى عين واحدة . عين تقع على الشرق وعين تقع على الغرب ، وعقل يوازن بينهما فى سرعة البرق . وأعترف انه ما عرضت على مسألة عويصة إلا نظرت فيها بهاتين العينين .

اليوم السادس

واليوم السادس يوم انتخبت عميداً فى كلية الآداب ، ولم أكن أتوقع ذلك مطلقاً ... فأنا رجل تربيت فى الأزهر وما يشبه الأزهر من مدرسـة القضاء ، ولم أكن أعرف النظم الجامعية إلا يوم التحقت بجامعة القاهرة . ولم أتعلم كزملائى فى جامعات أوربا وأعرف نظمها . وفى مجلس كليـة الآداب فطاحل من رجال

الجامعات الأوربية من انجليز وفرنسيين وألمان ، هـذا عدا ما كان من فطاحل الأساتذة المصريين ... فكان غريباً أن يترك كل هؤلاء وأنتخب أنا عميـداً . ولذلك استعظمت هذا الأمر واضطربت فى أول حياتى كعميد ، ولـكن تذكرت قول الشيخ محمد عبده : « إن الرجل الصغير يرى أنه أصغر من الوظيفة ، والرجل الـكبير يرى أنه أكبر من الوظيفة » ، فأوحيت إلى نفسى باستمرار اننى أكبر من أن أكون عميـداً ، ودلتنى الحوادث أن العميد أصغر من أستاذ . ولذلك قلت يوم سئلت بعد ذلك : « هل تحب أن تعود عميداً ؟ » فأجبت : « إنى أكبر من عميد وأصغر من أستاذ » .

وقد استفدت من عمادتى فوائد كثيرة ... فخبرت أحوال الطلبـة وأحوال الأساتذة ، ومكنتنى العمادة من أن أتصل بأعضاء مجلس الجامعة ... وكلهم من كبار أساتذة الجامعة ، فأصغيت إلى جدلهم ووقفت على مدى نظرهم .

هذه فيما أعتقد أشهر الأيام فى حياتى ، وربما كان هناك غيرها له أثر أكبر منها ، ولـكنه يعمل فى عقلى الباطن وينعكس فى عملى الظاهر ، ولـكن لم ألتفت إليه ولم ألق إليه بالا ... فقد تكون حادثة جزئية صغيرة أو جملة قرأتها فى كتاب قراءة عابرة لم ألتفت إليها كثيراً وقعت فجأة فى عقلى الباطن فأخذت تكبر وتتوالد على مدى السنين وتعمل عملها الـكبير فى حياتى على غير شعور منى .

اعـترافاتى

اعتاد الـكتاب أن يقصروا الاعترافات على المسائل الجنسية التى اعتاد الإنسان أن يسرها ولا يجهر بها إلا لخواص أصدقائه ، ولعل المسئول عن حصر الـكلمة بهذا المعنى « جان جاك روسو » وأمثاله ممن قيدوا هذه الاعترافات ، والقسس الذين يصغون إلى هـذه الاعترافات . أما الـكلمة نفسها فواسـعة شاملة ، تشمل هذا النوع وتشمل غيره من الفضائل التى اكتسبها الإنسان فى حياته بعنف ومشقة .

و بعد هذا نذكر شيئاً من الاعترافات على المعنى المشهور فنقول :

إننى رزقت عاطفة تهتز للجمال أيا كان سواء كان جمالا طبيعياً أو جمالا صناعياً ، أو جمالاً فنياً . واذكر من هذا القبيل أنى وأنا صغير سمعت رجلا ينشد على الدف فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، فتبعته من حارة إلى حارة حتى بعد العشاء ، مع علمى بأن التأخر إلى هذا الوقت يستتبعه الضرب من أبى حتما .

ولى إلى الآن حاسة قوية فى سماع الموسيقى وخاصة النغمات الحزينة .

وأذكر أيضاً أنى وأنا صبى عشقت صبية جميلة بنت جار لنا ، فتعلمت من حبها ضنى الحب وعذابه ولوعته ... وكل ما فعلت أن كنت أنتهز الفرصة فأجلس إليها أمام دار أبيها ، فلما اكتشف ذلك أبوها حجبها وحرمت من لقياها .

وعشقت مرة مدرسة لى انجليزية كنت أتبادل معها الدروس العربيـة والإنجليزية ، وأحببتها حباً يائساً ... لأنها كانت متزوجة وسعيدة بزواجها ، ولـكن جمالها وجمال عينيها جعلنى أتمنى يوم درسها وأعده عيداً . ولولا أن الدين والعلم كبتانى لـكنت إمام المحبين .

* * *

وعلى المعنى الواسع من معنى الاعترافات عاهدت الله من صغرى أن أنصر الحق حيث كان ، وقد لقيت فى سبيل نصرته عناء لا يقدر فى المجالس والمجتمعات ، وخاصة فى مجلس الجامعة . فقد كنت أصطدم أحياناً بأكبر الرجال عقلا ، وأوسعهم شهرة وأعظمهم قدرة ، وأوذيت فى سبيل ذلك كل الإيذاء حتى لقد كنت أتوقع فى كثير من الأحيان أن أجد خبر إحالتى على المعاش ، كلما حزب الأمر وجد الجد . ومع ذلك لم أعدل عن هذه الطريقة ، وكنت مشربا فيها بروح القاضى العادل .

ومرة حرمت وظيفة كبيرة كنت مرشحاً لها بسبب من هـذه الأسباب ، ذلك أنى رشحت أستاذاً للشريعة بكلية الحقوق ، ثم عاقنى عنها الانغماس فى المبادئ السـياسية على مذهب سعد ، فلما علم عنى ذلك حرمت من الوظيفة ، فقلت لا بأس ، وعوضنى الله عنها أستاذاً بكلية الآداب ، ولـكن بعد وقت طويل .

* * *

وأعترف أنى أحب الخير للناس خصوصاً من أعرفهم ، وأفرح لنجاحهم أو رقيهم . ولـكنى مع هذا الحب غيور ... فبجانب هـذا الفرح أغضب إذا أنا حرمت من مثل ما نالوا خصوصاً إذا كنت أعتقد أنى لست أقل منهم علماً وذكاء ، وأذكر أنى بكيت طويلا عندما كان ترتيبى الثانى فى مدرسة القضاء الشرعى . . لعلمى أنى لست أقل من الذى كان الأول ، إلا أنه أجد منى فى العمل وأكثر فى التحصيل ، ولا تزال هذه عادتى إلى اليوم ... فإذا سمعت محاضرة فى الجامعة أو فى المجمع أو فى غير ذلك فرحت بها وحمدت قائلها ، ولـكنى غرت لأنى لم أقل مثلها . كذلك إذا ألف أحداً كتاباً جيداً حمدته وأطريته ، ولم أترك مجلساً من المجالس إلا ذكرته ، ولـكن حز فى نفسى أنى لم أؤلف مثله .

* * *

وقد علمتنى الأحداث أن المدافع عن الحق لا بد أن ينال يوماً جزاءه ، فقد يعذب وقد يهان وقد ينتقم منه . . ولكن أخيراً يعترف بفضله ، و يمجد لموقفه على شرط واحد ، وهو أن يكون معتدلا فى طلبه للحق ، وأن يطالبه من غير تجريح لخصومه ، وأن يطلبه فى لباقة ومهارة . فان أخل بهذا الشرط ، فالذنب ذنبه ليس ذنب الحق ؛ وذنب وسائله لا ذنب الحق نفسه .

كما علمتنى التجارب أن الناس إزاء هذا أصناف ثلاثة : قليلون جداً ينصرون الحق و يتشجعون فى الجهر به والدفاع عنه ، وقليلون أيضاً مجرمون يقفون فى وجه الحق لأسباب تافهة ، ومصالح شخصية كاذبة عاجلة ، وأكثر الناس يحبون الحق و يحبون نصرته ، ولكن ينتظرون أحداً يجهر به ليكونوا أتباعه ، فإذا جهر به تبعوه ؛ وهم إلى نصرة الحق أقرب منهم إلى نصرة الباطل ؛ و إلى نصرة المدافع عن الحق ، ولو كان صغيرا ، أقرب من أن ينصروا الباطل أو المبطل ولو كان كبيرا .

ومن هذا النوع الشامل اعترافى بأنى جبان بقدر شجاعتى فى قول الحق . . أخاف التعذيب ، وأخاف السجن ، وأخاف الشنق ، ور بما كان هذا هو السبب فى أنى أفضل العلم على السياسة ، فالعلم طريق غير محفوف بالأشواك ، والسياسة طريق وعر محفوف بالأشواك ور بما كان هذا أيضاً هو السبب فى أنى تخلفت عن زملائى السياسيين حيث تقدموا إلى أن كانوا رؤساء وزارة ، وقد كنت زميل المرحومين أحمد ماهر باشا ومحمود باشا فهمى النقراشى ، ولكن خفت من القنابل إذ لم يخافا وخفت من السجن إذ لم يخافا ، وتقدما وتقاعدت ، و برزا واختفيت .

ولعل هذا أيضاً هو السبب فى أنى لما كنت أحد أعضاء المائدة المستديرة فى مؤتمر فلسطين فى لندن ١٩٤٦ خطب مستر بيفن خطبة طو يلة فخضرت عندى معان للرد عليه . . خلت أنها جيدة ، ولكن عاقنى عن الرد عليه خوفى من أن تكون آرائى فى السياسة فجة ، وخوفى من ضعفى فى اللغة الإنجليزية . . فسكت وصمت ، وتكلم غيرى . ولم تكن معانيه خيراً من معانى التى كنت انتو يت أن أقولها .

ومن ذلك خوفى الشديد على عرضى وشرفى أن يمسهما سوء ، وعلى العكس من ذلك عدم خوفى من نقد آرائى وكتبى ؛ وأذكر أنى كتبت مرة مقالات فى جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى ؛ فخصص الأستاذ زكى مبارك مقالات للرد عليها كل أسبوع نحو ثلاثة أشهر ، فلم يؤلمنى نقد آرائى ، ولكن مرة زل قلمه فتعرض لخلقى وشرفى ، فغضبت من ذلك غضباً شديدا . بل ربما استحثثت الناس على نقد آرائى وأفكارى ، علما بأن تقريظ هذه الآراء والأفكار ونقدها على حد سواء فى خدمة الفكرة والرأى . بل قد يفيد النقد أكثر مما يفيد التقريظ ، والحق لا يظهر إلا بعرض الآراء المخالفة كلها ، كالمصباح لا تتجلى قوته إلا بقدر ما يجليه من الظلام .

المعتزلة والمحدّثون

كان للمعتزلة منهج خاص أشبه ما يكون بمنهج من يسميهم الفرنج العقليين ، عمادهم الشك أولا ، والتجربة ثانياً ، والحكم أخيراً . وللجاحظ فى كتابه « الحيوان » مبحث طريف عن الشك .

وكانوا وفق هذا المنهج لا يقبلون الحديث إلا إذا أقره العقل،و يؤولون الآيات حسب ما يتفق والعقل ، كما فعل الزمخشرى فى الكشاف ، ولا يؤمنون برؤية الإنسان للجن لأن الله تعالى يقول « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » ويهزءون بمن يخاف من الجن ، ولا يؤمنون بالخرافات والأوهام ، ويؤسسون دعوتهم إلى الإسلام حسب مقتضيات العقل وفلسفة اليونان ، ولهم فى ذلك باع طويل ، ولا يؤمنون بأقوال أرسطو لأنه أرسطو ، بل نرى فى الحيوان أن الجاحظ يفضل أحياناً قول أعرابى جاهلى بدوى على قول أرسطو الفيلسوف الكبير .

هكذا كان منهجهم ، وهو منهج لا يناسب إلا الخاصة ، ولذلك لم يعتنق الاعتزال إلا خاصة المثقفين ، أما العوام فكانوا يكرهونه .

وجرهم هذا المنهج إلى تشريح الصحابة والتابعين كما يشرح سائر الناس ، فهم فى نظرهم عرضة للخطأ كما يخطىء الناس ، فلم يتورعوا عن أن ينقدوا أبا بكر وعمر وعثمان ، ولم يمنعهم أن يفضلوا بعضهم على بعض ، ومن أجل هذا كانوا أقرب إلى الشيعة من المحدثين ، بل كان بعض المعتزلة شيعة .

ويقابل هذا المنهج ، منهج المحدثين ، وهو منهج يعتمد على الرواية لا على الدراية ، ولذلك كان نقدهم للحديث نقد سند لا متن ، ومتى صح السند صح المتن ولو خالف العقل ، وقل أن نجد حديثاً نُقد من ناحية المتن عندهم ، وإذا عُرض

عليهم أمر رجعوا إلى الحديث ولو كان ظاهره لايتفق والعقل ، كما يتجلى ذلك فى مذهب الحنابلة .

وكان من سوء الحظ أن تدخل المعتزلة فى السياسة ولم يقتصروا على الدين ، والسياسة دائماً شائكة ، فنصرهم على ذلك المأمون والواثق والمعتصم ، وامتحنوا الناس وأكرهوهم على الاعتزال ، فكرههم العامة واستبطلوا الإمام ابن حنبل الذى وقف فى وجههم ، فلما جاء المتوكل انتصر للرأى العام ضدهم ، وانتصر للامام أحمد بن حنبل على الجاحظ وابن أبى دؤاد وأمثالها ، ونكل بهم تنكيلا شديداً ، فبعد أن كان يتظاهر الرجل بأنه معتزلى ، كان الرجل يعتزل ويختفى ، حتى عد جريئاً كل الجراءة الزمخشرى الذى كان يتظاهر بالاعتزال ، ويؤلف فيه ، ولم يكن له كل هذا الفضل ، لأنه أتى بعد هدوء الفورة التى حدثت ضد الاعتزال .

* * *

ا فلنتصور الآن ماذا كان يكون لو سار المسلمون على منهج الاعتزال إلى اليوم ؟ أظن أن مذهب الشك والتجربة واليقين بعدهما كان يكون قد ربى وترعرع ونضج فى غضون الألف السنة التى مرت عليه ، وكنا نفضل الأوربيين فى فخفختهم وطنطنتهم بالشك والتجربة التى ينسبونها إلى بيكون مع أنه لم يعمل أكثر من بسط مذهب المعتزلة .

وكان هذا الشك وهذه التجربة مما يؤدى حتما إلى الاختراع ، وبدل تأخر الاختراع إلى ما بعد بيكون وديكارت ، كان يتقدم مئات من السنين ، وكان العالم قد وصل إلى ما لم يصل إليه اليوم ، وكان وصوله على يد المسلمين لا على يد الغربيين ، وكان لا يموت خلق الابتكار فى الشرق ويقتصر على الغرب ، فقد عهدنا المسلمين بفضل منهج المحدثين يقتصرون على جمع متفرق أو تفريق متجمع ،

وقل أن نجد مبتكراً كابن خلدون الذى كانت له مدرسة خاصة ، تلاميذها الغربيون لا الشرقيون .

فالحق أن خسارة المسلمين بإزالة المعتزلة من الوجود ، كانت خسارة كبرى لا تعوض .

ثم بدأ المسلمون ينهجون منهج الحضارة الغربية تقليداً من الخارج لا بعثا من الداخل ، وشتان ما بينهما ، فالتقليد للخارج بث فيهم ما يسميه علماء النفس مركب النقص ، فهم يرون أنهم عالة على الغربيين فى منهجهم ، ولو كان من أنفسهم لاعتزوا به وافتخروا ، ولكن ما قُدِّر لا بد أن يكون ، ولله فى خلقه شئون .

الإسلام والمدنية الحديثة

مما يؤسف له أن المسلمين لم يتابعوا النهضة الأوربية منذ نشأتها ، ولم يكونوا يعرفون عنها شيئاً ، إذ كانت البلاد الإسلامية مغلقة على نفسها ، لا تتصل اتصالا وثيقا بالعالم الأوروبي إلا عن طريق تجارة ضئيلة ، أو أحداث سياسية قليلة ، أما ما يجرى فى أوروبا منذ نهضتها من حركة علمية وصناعية ، ونهضة قومية ، وثورات لمطالبة الشعوب بحقوقها ، ونحو ذلك ، فلم يكن المسلمون يعرفون عنه شيئاً ، ولو أنهم عرفوا ذلك وجاروا الغربيين فى نهضتهم لكان لهم شأن آخر .

إنما عرف المسلمون المدنية الغربية عن طريق سيئ جداً ، وهو طريق الفتح والاستعمار ، وعرفوا المدنية الغربية من صوت المدافع تفتك بهم ، وتغزو بلادهم ، فلا عجب إن كانوا قد قابلوها بكثير من الكره والبغض ، وكان ذلك طبيعياً ، ولو أن هذه المدنية تقدمت فى شكل تقدم إنسانى يصح أن يحتذى ، لقابلها المسلمون بكل أنواع الارتياح وسعة الصدر ، ولفتحوا قلوبهم كلها للاستفادة منها .

إنما أتتهم فى شكل حديد ونار ، واكتساح واستغلال ، ففزعوا منها ، وصدوا عنها .

نعم ، إنهم استفادوا منها كثيراً ، فاستخدموا مخترعاتها ، واقتبسوا كثيراً من معارفها وعلومها وصناعاتها ونحو ذلك ، ولكن كل هذا لا يساوى ما خسروه بسببها ، لقد فقدوا بها حريتهم واستقلالهم وسيادتهم .

لقد كان طابع المدنية الحديثة طابعاً قوميا ، فكل أمة ترى الخير فى مصلحتها الخاصة بها ، ولا تعترف بأى مصلحة لغيرها ، وتزعم أنها أحق بالسيادة على الأمم الأخرى المستضعفة ، وخدمَ العلمُ والأدب والتربية هذه النزعة القومية حتى بلغت

القمة ، ونشأ عن ذلك مقياس أخلاق جديد ، وهو أن ما كان فى مصلحة الأمة فخير مهما ضر الآخرين ، وما ضر الأمة فشر مهما نفع الآخرين ، وساد فى كل أمة أوربية الشعور بالكره لغيرها والخوف من غيرها ، فانجلترا تكره ألمانيا وتخافها ، وألمانيا تكره انجلترا وتخافها ، وهكذا العلاقات بين الدول ، فإن كان هناك مسالمة وتودد فأمر ظاهرى فقط ، ورياء ونفاق لا حب وإخلاص ، وظل هذا هو الشأن فى المدنية الحديثة من عهد أن تكونت القومية إلى اليوم .

* * *

وكل أمة أوروبية قوية تعبد المجد ؛ ومعنى المجد حب العظمة والسيطرة والاعتزاز بالقوة ، وكان من أثر هذا المجد عند كل أمة كبيرة رغبتها فى أن تسيطر على أكبر رقعة من الأرض تستطيع السيطرة عليها ، وفى أن يكون لها مستعمرات أو ممتلكات واسعة فسيحة ، وهذا المجد القومى غير المجد الخلقى ، فالمجد الخلقى هو العمل على وفق القوانين الأخلاقية العالمية من عدل ووفاء وإحسان ونحو ذلك ، أما المجد القومى فهو سيطرة واستغلال وتسخير للأمم الضعيفة لمصلحة الأمم الكبيرة ، ولو اضطرها ذلك إلى إسالة الدماء البريئة ، وإذلال الأعزة ، ورفع شأن الأذلة . وهذا ليس من الأخلاق فى شىء . والسياسى الماهر فى المدنية الحديثة من هو استطاع أن يذل الأمم المحكومة ويكبت صوتها ، ويعلى من شأن أمته ويظهر سيطرتها .

ولما تغلبت الوطنية وحب المجد على أمم أوربا وأمريكا تنافست فى السيطرة طلبا لهذه العزة الكاذبة ، فتسابقوا جميعاً للاستعمار ، وكان الاستعمار فى نظرهم هو إخضاع الأمم المستعمَرة وإذلالها ما أمكن ، واستغلال مواردها ، وفتحها سوقا لتجارتها ومنافعها . ولا عبرة عندها بخلق أو فضيلة ، حتى لو رأت الأمة الفاتحة أن تجارة الخمر ، أو الأفيون ، أو المخدرات عموما ، أو الرقيق الأبيض ، أو نحو ذلك

مما يفيد استعمارها ؛ لو لم تتورع عنه لأنها لا تقصد إلى سمو فى الخلق ، ولا نبل فى الفضيلة ، وإنما كل ما تقصد هو العزة القومية ، والمجد الكاذب ، بالمعنى الذى ذكرنا .

وليس هنالك أى شعور إنسانى ، من الأخذ بيد الضعيف ، وتعليمه علما نافعا ، وترقيته ، حتى ينهض بنفسه أو نحو ذلك ، فهذا المعنى الإنسانى معدوم فى نظر الاستعمار الغربى .

على هذه الأسس ، استُعمرت البلاد الإسلامية ، وتقسمتها انكلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وغيرها ، وكانت كلها سواء فى هذين الأساسين ، وهما تقويم المسائل حسب القومية ، لا حسب الإنسانية ، والعمل للمجد القومى والمنفعة القومية ، بإذلال الأمم المفتوحة ، واستغلالها وإضعافها ، فليست تقدم لها علما إلا علما ضعيفا لإخراج موظفين يخدمون الاستعمار ، وليس هنالك استغلال ثروة إلا لمصلحة الفاتح دون مصلحة المفتوح .

وهكذا أضعفت المدنية الأقطار الإسلامية ، واستنزفت أموالها ودماءها وأخلاقها من غير مراعاة لأى شعور إنسانى ، أو إخاء إنسانى ، أو عطف كبير على صغير ، أو مساعدة قوى لضعيف ، وليس هناك من فرق بين هذه الأمم إلا فى الأسلوب ، لا فى الجوهر والحقيقة .

ومما يستدعى العجب ، أن المدنية الحديثة كرهت الإسلام والمسلمين أشد كراهة ، بل إن كراهيتها للإسلام والمسلمين أشد من كراهيتها لسائر الأديان الأخرى ، من يهودية وغيرها ، بل أشد من كراهيتها للوثنية ؛ فهى تكره المسلمين أشد مما تكره البوذيين وسائر الوثنيين ، وتظهر هذه الكراهية فى سوء المعاملة وحب الانتقام ، وظلم ما يصدر عنها من أحكام ؛ وإذا كان هناك نزاع بين مسلمين وغير مسلمين وتدخلت المدنية الحديثة فإنما تتدخل للإيقاع بالمسلمين والتنكيل بهم ، يتجلى ذلك فى حكم الإنجليز للهند وتمييزهم فى المعاملة بين المسلمين

والهندوكيين ، وفى المظهر الحديث فى النزاع القائم بين المسلمين واليهود إلى كثير من أمثال ذلك .

وعلة هذا تستوقف النظر ؛ فليست المسألة مسألة خصومة بين الإسلام والمسيحية ، ولو كان الأمر كذلك ، لكان المعقول أن يكون الإسلام أقرب إلى المسيحية من أى دين آخر ، وعلى الأقل أقرب إلى المسيحية من المسيحية إلى الوثنية ، فليس الأمر أمر دين فحسب ، ولكن يظهر أن هذه الخصومة والكراهية ترجع الى أسباب أعمق من ذلك ، منها ما خلفته الحروب الصليبية من الخصومة ، فقد أراد الصليبيون أن يستولوا على الأقطار الإسلامية ، و بذلوا فى ذلك من الجهود الجبارة ما يعرفه التاريخ ، واستعملوا للتغلب على المسلمين كل الوسائل الصادقة والكاذبة ، فجمعوا كل قوتهم المادية ، ونشر القساوسة كل ما استطاعوا من تضليل وكذب ، وافتراء على الإسلام ، حتى صوروا الإسلام وصاحبه أبشع صورة وأفظعها . فلما لم ينجحوا مع ما بذلوا من كل هـذه الجهود عادوا وهم يحملون الحقد والضغينة على الإسلام والمسلمين ، وأورث السلف هذا للخلف .

هذا سبب ، وهناك سبب آخر ، وهو أن الإسلام أنجح الأديان فى منافسة النصرانية بين الشعوب الوثنية ، على الرغم من ضعف التبشر فى الإسلام ، وقلة ما يبذل من جهد فى نشره ، ومع قوة التبشير فى المسيحية ، وما يبذل فى سبيل ذلك من جهود وأموال ، فهذا التنافس بين الإسلام القوى والمسيحية سبب كراهية ونفورا ، لأن الكراهية والنفور ، تشتد بين الأقوياء أكثر مما تشتد بين قوى وضعيف .

ومن الأسباب أيضاً أن الإسلام يبث فى معتنقيه العزة ، وأن تكون كلمة أهله هى العليا ، وكلمة غيره هى السفلى ، و يحث على مقاومة حكم الغير ، وعدم الخضوع للأجنبى ، وهذا ما يغيظ الاستعمار كل الغيظ ، وهل أتاك حديث زعيم فرنسى يحمل على تعليم العلوم باللغة العربية فى بلاد المغرب ، لأن اللغة العربية وسيلة

للإسلام ، والإسلام يناهض الاستعمار ، فإذا علمنا بالعربية فقد مكّنا من مناهضة حكم الأجنبى .

هذه الأسباب وغيرها هى التى حملت المدنية الحديثة على مناهضة الإسلام والمسلمين ، والتنكيل بهم ، و إقفال طريق الرقى أمامهم ، وكان الواجب أن يشعر المسلمون بذلك كل الشعور ، فيزيدوا قوتهم ، و يبذلوا كل جهدهم فى تكوين أنفسهم و إعلاء كلمتهم واستقلالهم بأنفسهم ، وادخار القوة لمكافحة القوة .

لقد فَتح الإسلام كما فَتحت المدنية الحديثة ، ولكن كان أساس فتحه نشر العدل والأخذ بيد المفتوحين ، والرقى بهم فى سلوكهم وأخلاقهم ودينهم ، وأن لأهل الذمة من الحقوق ما للمسلمين ، ولكن الفتح الغربى فتح جباية واستغلال ، لا فتح سمو فى الأخلاق ، ولا نشر لمبادئ إنسانية ، ولا أخوة عالمية ، لا شىء من ذلك ، إنما هو فتح لأسواق تجارية ، واستعباد من القوى للضعيف ، ومن العالم للجاهل .

فليفتح المسلمون أعينهم ليروا كل هذا وليبنوا خططهم على أن لا أمل إلا فى أنفسهم ، و إلا ببذل كل جهد فى تقويتهم ماديا وروحانيا ، و إلا بجمع كلمتهم ووحدتهم وهدم تفرقهم وتعاونهم التام للعمل أمام الخصم الذى يسعى للتنكيل بهم ، ووضع العراقيل فى سبيل تقدمهم ، والله يوفقهم .

الجامعة الإسلامية

١ يعنون بها الرابطة التي تربط بين المسلمين في مختلف الأقطار من فرس وترك وعرب . وقد كانت كلمة مفزعة لأوربا في القرن الماضي ، وليس صحيحاً ما قاله المرحوم سعد باشا زغلول « إن صفراً وصفراً يساوى صفراً » بل الصحيح أن « ناقص خمسة في ناقص خمسة يساوى زائد خمسة وعشرين » . فكل دولة وحدها قد لا تساوى شيئاً ولكنها جميعاً تستطيع الوقوف أمام الاستعمار الأوربي ، وإذا كان الأوربيون يتكتلون على الباطل لمحق المسلمين ، فأولى أن يتكتل المسلمون على الحق لدفع كارثة الاستعمار .

وقد كان أول من نادى بها في العصر الحديث السيد جمال الدين الأفغاني ، وخلفه الشيخ محمد عبده والسيد عبد الرحمن الكواكبي ، غير أن طريقة السيد جمال الدين كانت قوية عنيفة ، إذ كان يريد الثورة على الملوك والأمراء في الداخل ، وإشعال نار الشعوب ضد الخارج . أما الشيخ محمد عبده فكان في ذلك هيناً ليناً يريد الجامعة الإسلامية من طريق التربية والتعليم . والسيد عبد الرحمن الكواكبي كان أقرب إلى السيد جمال الدين ، وكان أشد في محاربة الأمراء ، وألف في ذلك العهد كتاب « طبائع الاستبداد ضد السلطان عبد الحميد » ، كما ألف أم القرى لرسم خطة الجامعة الإسلامية ، ولم تطق أوربا صبراً على جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها السيد جمال الدين في باريس ، فأغلقتها بعد صدور العدد الثامن عشر ، وكان السلطان عبد الحميد يحارب هذه النزعة أولا ، ثم أراد أن يحتضنها وأهلها أخيراً ، لما تبين له هو نفسه من نفعها . وكان الشيخ على يوسف يبشر بهذه الدعوة في جريدة المؤيد ، إذ كان ينشر فيها أخبار العالم الإسلامي والآراء في تكتله ، وكذلك مجلة المنار إذ كانت تعبّر عن آراء الشيخ محمد عبده ، والسيد رضا ، ثم

خفتت الدعوة بوفاة السلطان عبد الحميد الذى كان يحميها .

وأيما كان فقد أحس الأوربيون بخطر هذه الدعوة ، وحاربوها بكل قوتهم : بصحفهم ومؤتمراتهم وكل قوة لديهم ، لما تبين لهم من قوتها وخطرها إذا تحققت ، واستنجد بعض الأوربيين الشعوب المسيحية طالبين إعانة سنوية ، والنهضة بالمبشرين ، وتعيين المبشرين الكبار فى الجهات التى يوجد فيها مسلمون ، ونشر الرسائل ، وإنشاء مجلة لمقاومة فكرة الجامعة الإسلامية ، ونشر جريدة لبيان الأفكار التى تطبع مؤيدة للجامعة الإسلامية ، وهكذا . وكان من نتيجة ذلك أن اجتهد رئيس المبشرين وهو المستر « زويمر » فى عقد مؤتمر للنظر فى هذه الحالة ، فانعقد المؤتمر فى سبتمبر سنة ١٩١١ م . وكان هذا الموضوع ، موضوع الجامعة الإسلامية وكيفية مقاومتها ، من أهم موضوعاته ، وخصص لجنتان منه لهذا الغرض . وقد افتتح الرئيس زويمر المؤتمر بأن بدأ يدعوه للبحث فى الوسائل التى يمكن بها مقاومة الإسلام ، وكان يتبع المؤتمر غرفتان عرضت فيهما الغرائب المتعلقة بالإسلام مع مطبوعات جمعية التوراة التبشيرية ، واشترك فى هذا المؤتمر ١٦٨ مندوباً و١١٣ مدعواً عن أربع وخمسين جمعية تبشيرية ، وعلى رأس المؤتمرين القسيس زويمر الذى تصفه جريدة فرنسية بأنه لا يهزم ، وبأنه درس الإسلام فى شعوبه ، ومُنع الصحفيون الإنجليز والأمريكان من شهود هذا المؤتمر ، ولم توزع عليهم النشرات إلا بعد تنقيحها ، وقد قال الرئيس فى مجلة العالم الإسلامى : إن الإسلام تمخض فى السنوات الخمس الأخيرة التى أعقبت مؤتمر مصر ، عن حوادث خارقة لم يسبق لها نظير ، ففيها حدث الانقلاب الفارسى ، والانقلاب العثمانى ، وفيها انتبهت مصر لحركتها الحاضرة ، وعنى المسلمون بمد السكة الحديدية ، وتأسست فى الهند مجالس شورية ، ودخلت الأمور الإسلامية فى قالب يلائم العصر ، ازداد به التمسك بمبادئ الإسلام ، وانتشر الإسلام فى أفريقيا والهند الغربية والجزائر الجنوبية .

وكل هذه الحوادث ، تحتم على الكنيسة أن تعمل بحزم وجدّ ، وتنظر

فى أمر التبشير والمبشرين بكل عناية ، وعلى ذلك فسيوضع برنامج للأمور الآتية :

١ — درس الحالة الحاضرة . إنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين والتعليم النسائى . إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها .

وقد حز فى نفس الرئيس ما صارت إليه حالة المسلمين وارتقاؤهم ، وكان مما قاله : إن لفظة العالم الإسلامى ليست شيئا اخترعه المبشرون ، وإنما هو حقيقة موجودة ، كلمة دقيقة تدل على موقف حقيقى ، وقال : إن عدد المسلمين يزيد قليلا على مائتى مليون ، والتبشير فيهم يحتاج إلى نفقات طائلة ، خصوصاً وأن الإسلام ينتشر بسرعة ، والمبشرون المنتشرون على ضفتى النيل وشرقى أفريقيا وبلاد النيجر والكنغو ، يشكون مر الشكوى من انتشار الإسلام بسرعة فى هذه الأنحاء ، ومع أن انتشار الإسلام فى الهند يجد موانع من مجهودات جمعيات التبشير الهولندية والألمانية ، فهو يتوطد هنالك لأن المسلمين أخذوا يستبدلون بالتقاليد القديمة عقائد ثابتة قوية . وانتقل الرئيس إلى وصف الانقلابات التى حدثت فى البلاد الإسلامية ، وحمد الله عليها ، وأثنى على احتلال الجيش الفرنسى لمقاطعة « واداى » فى إفريقيا ، وقال :

إنه لم يبق الآن إلا ٣٧ مليون و١٢٨ ألف و٨٠٠ — آحاد ، تحت سلطة حكومة إسلامية ، وقال : إن الإسلام بدأ يتنبه لحقيقة موقفه ويشعر بحاجته إلى تلافى الخطر ، وهو يتمخض عن ثلاث حركات إصلاحية ، الأولى : إصلاح الطرق الصوفية ، والثانية : تقريب الأفكار من الجامعة الإسلامية ، والثالثة : إفراغ العقائد والتقاليد القديمة فى قالب معقول . وأشار إلى قول الدكتور و . شيد : إن الإسلام يتحكك فى كل قطر بالمدنية العصرية ومبادئها ، وقال : إنه ليس فى الإمكان التقدم الاجتماعى والعقلى إذا خلوا من كل صبغة دينية . وانتقل زويمر بعد ذلك إلى استنهاض الكنائس لمقاومة المسلمين ، ونشر التبشير بينهم ، وختم

القسيس كلامه بقوله : إذا نظرنا إلى البلاد التى يحكمها هذا الدين الكبير المخاصم لنا ، و إلى البلاد التى يتهددها بحكمه ، يظهر لنا أن كل واحدة من هذه البلاد هى رمز لعنصر من المعضلة الكبرى ؛ فمراكش فى الإسلام مثال للانحطاط ، وفارس مثال للانحلال ، وجزيرة العرب مثال للركود ، ومصر مثال لمجهودات الإصلاحات ، والصين مثال للإهمال ، وجاوة مثال للتغير والانقلاب ، والهند مركز للتحكك بالإسلام ، و إفريقيا الوسطى مكان للخطر الإسلامى ، وهذه كلها مشاكل يحتاج الإسلام معها قبل كل شىء إلى المسيح .

***

ومن المؤسف أن حاجة المسلمين إلى الجامعة الإسلامية هى اليوم كما كانت ولم تتقدم كثيراً ، ولم تكف أوربا عن مناهضتها ، وكل حادثة من الحوادث الكبار تؤيد الرأى القائل بأن المسلمين لا تقوم لهم قائمة إلا بهذه الجامعة ، وآخر حادثة كانت هى حرب فلسطين ، فإن العالم العربى لم يتحد على مقاومة اليهود ، كما اتحدت انجلترا وأمريكا على مناصرتهم ، فضلا عن عدم اتحاد العالم الإسلامى ، ولو ظل الأمر على هذا النحو فلم يتعظوا بهذا ولم يلموا شملهم ، فستضيع كل يوم بلاد إسلامية جديدة ، فهل يتعلم المسلمون اليوم هذا الدرس ، بما أصابهم من فشل ! أو سيبقون كما هم حتى يلدغوا من جحر واحد مرتين وثلاثا لا قدر الله ؟

إن الجواب عن هذا السؤال ملفوف بحجاب المستقبل .

النهضات الفكرية فى الإسلام

— ١ —

يسرنى أن أتحدث إلى حضراتكم فى سلسلة أحاديث عن النهضات الفكرية فى الإسلام . وأبدأ اليوم بحديث عن الإسلام نفسه كنهضة ، لأن الإسلام غيّر عقلية العرب التى كانوا يعيشون بها فى الجاهلية ، فعد مجيئه من غير شك نهضة فكرية . ذلك أن الإسلام لما أتى بتعاليم ومبادئ غير المبادئ التى كانوا يعيشون عليها فى الجاهلية من نواح كثيرة . وأصف لحضراتكم وصفاً موجزاً لحياة العرب فى الجاهلية ثم حياتهم فى الإسلام .

لقد كانت حياتهم فى الجاهلية حياة غارات وحروب مستمرة ، وقد كانت الحرب نفسها مورداً من موارد كسب العيش ، فإذا احتاجت قبيلة إلى مورد عيش حاربت الأخرى وسلبتها ، لا ترعى فى ذلك عدلا ولا نظاما ، فجاء الإسلام فغير هذا المعنى وسمى نفسه الإسلام من مادة السلام ، وجاء فى القرآن :

« وعِبَادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

وربما كانت هذه الآية هى المفتاح الذى نصل به إلى معرفة السبب فى تسمية عهده بالإسلام ثم كان فهمهم للعدل والظلم فهماً غريباً . لقد سئل شيخ قبيلة ما العدل وما الظلم ؟ فقال : العــدل أن أغير على إبل جارى فآخذها ، والظلم أن يغير جارى على إبلى فيأخذها . وذلك ناشىء من أن العدل والظلم كانا تابعين للأرستقراطية الجاهلية ، فرئيس القبيلة أو العظيم كائناً من كان فى قبيلته كان له الحق أن يفعل ما يشاء من غير أن يؤاخذه أحد على ظلمه ، وأما الفقير المسكين

فلا حق له ولا عدل معه ، ولذلك كان بعض الناس فى الجاهلية قد تنبهت ضمائرهم قبيل الإسلام وأرادوا أن يضعوا حداً لهذا الظلم الصارخ الذى لا ينال فيه الفقير المسكين أى حق ، و ينال فيه العزيز فى قومه كل حق ، بل ينال فيه ما ليس له فيه حق . لذلك يحدثنا التاريخ أنه قبيل البعثة نشأ حلف فى مكة اسمه حلف الفضول ، سببه أنهم رأوا أن بعض الناس فى مكة يبيع بضاعته لعظماء فلا يدفعون لأصحابها ثمنها . من ذلك أن رجلا من ذبيب قدم مكة ببضاعته فاشتراها منه العاصى بن وائل وكان عظيما فى قومه ، فلم يدفع له ثمنها ، فاستعدى عليه بعض الناس وطلب مساعدتهم فلم يعينوه . ومن ذلك أن بعض هؤلاء العظماء كانوا يستجملون بعض الفتيات فى الأسواق فيخطفونهن ثم لا يردونهن إلى أهلهن ، كما روى أن رجلا من خثعم قدم مكة ومعه بنت له فاغتصبها وجيه من وجهاء العرب . كل هـذه الحوادث وأمثالها حركت نفوس بعض الناس ، فتحالفوا أن يكونوا يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقاً ، فكان حلف الفضول بذلك الوضع محكمة عدل بدائية يلجأ إليها كل من اغتصب منه حق .

وقد حدث هذا الحلف فى عهد النبى (صلعم) قبيل بعثته . وفى الحديث أن رسول الله (صلعم) قال : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لى به حُمْر النعَم ، ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت .

فلما جاء الإسلام أكد هذه النزعة وطالب بالعدل على أدق معنى وأوسعه ، فالغنى والفقير أمام العدل سواء ، وصاحب الجاه وعديم الجاه سواء . بل أكد معنى آخر أدق وهو أنه يجب على الإسلام العدل مع من أحب أو كره .

يقول الله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، أى لا يحملنكم بغضكم لقوم على ألا تعدلوا معهم ، بل يجب ألا تحسبوا حسابا للحب أو الكره أمام العدل . فالعدل واجب مع من أحببت أو كرهت . كما طلب العدل فى الحرب أو السلام على السواء ، و بين الأقارب والأباعد على

السواء ، فكان فى ذلك مخالفة لحياة الجاهلية كل المخالفة .

على كل حال كان من أهم أعمال الإسلام وضعه قائمة بقيم جديدة للأشياء غير القيم التى كانت لها فى الجاهلية ، وهل الفرق بين أمة راقية وأمة غير راقية إلا قائمة القيم ؟ فالأمة الراقية تضع فى أولها أحسن الأشياء وأغلاها وأعزها ، وفى أسفل القائمة أتفهها وأدونها ، والأمة غير الراقية تضع فى أول القائمة أتفه الأشياء ولا تضع أعزها أو تضعها فى آخرها .

لقد كان فى أول القائمة الجاهلية الانتقام والأخذ بالثأر ، وكان أحسن خلق عندهم المروءة ، وهى كلمة لاحد لها وتشمل الشجاعة التى لاحد لها ، حتى لو استنجد رجل بآخر فهـذا الشهم ينجده مطلقاً من غير سؤال هل هو محق أو مخطىء ، ولذلك كانوا يقولون دائما « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » . فلما جاء الإسلام غير معنى هذه الجملة بأنه يجب على الإنسان أن ينصر المظلوم وأن ينصر الظالم ، أن ينصر المظلوم بإعانته على تحصيل حقه ، وأن ينصر الظالم بردعه عن ظلمه .

كان العرب فى جاهليتهم يتمدحون بخصلتين يعدانهما خير الفضائل ، وهى الشهامة التى لاحد لها والكرم إلى حد الإسراف ، ويعدون من خير الفضائل الإخلاص التام للقبيلة والقسوة فى الانتقام . فجاء الإسلام وغير هذا كله ، فجعل المبدأ الأول الخضوع لله والانقياد لأوامره ، وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين .

ولئن كان العربى الجاهلى يجعل نصب عينيه الشره وجمع المال وأخذ نفائس الأشياء إذا غنمت قبيلته ، والتفاخر بالتكاثر والكبر والعظمة ، فالإسلام أمر بالقناعة وعدم التكاثر بالأموال وتجنب الكبر والعظمة ، وجعل للحياة مُثلا عليا جديدة ربما يجمعها قوله تعالى : « ليس البر أن تُولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة

وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

فنحن إذا قارنا بين المثل الأعلى فى الإسلام والمثل الأعلى فى الجاهلية وجدنا الفرق كبيراً بينهما ، حتى لقد يصح أن نسمى ما أتى به الإسلام نهضة فكرية .
وربما وضح الفرق أيضاً بين الجاهلية والإسلام الحديث الذى حدث به جعفر ابن أبى طالب النجاشى حين هاجر هو ومن معه إلى الحبشة من ظلم أهل مكة فسأله النجاشى عن حاله فقال : « كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن قول الزور وأكل مال اليتيم ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ومنعونا عن ديننا ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك » .

وهو يلفت نظرنا إلى أن من أهم الفروق بين الحياة الجاهلية والحياة الإسلامية نوع العبادة ، فعبادة الجاهلية عبادة أحجار وأوثان ، وعبادة الإسلام عبادة إله واحد . وفرق كبير من ناحية النهضة الفكرية بين عبادة هذا وعبادة ذاك . عبادة الأحجار والأوثان تذل النفس وتضعها وتشل العقل وتدسه فى التراب ، وعبادة الله وحده رب العالمين وخالق السموات والأرضين ترفع النفس وتعزها حتى أمام الملوك والأمراء لأنهم مثله عبيدالله ، وهو وحده مدبرأمرهم ومسيرهم ، فمن اعتقد بإله واحد خالق كل شىء ومدبر كل شىء عزت نفسه ولم ير أحداً سيداً عليه غير الله ، وأن الخلق مهما عظموا تساووا معه فى عبوديتهم لله .

كل هذه الأمور نهضت بالعرب وغيرت نفسيتهم ، و بعد أن كانوا ينظرون إلى الفرس والروم نظرة خضوع وذلة أصبحوا ينظرون إليهم على أنهم خير منهم ، إذ يقول الله تعالى لهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

لذلك ارتفع شأنهم أمام أنفسهم ، وعلت روحهم المعنوية ، واستطاعوا أن يحاربوا فارس والروم ويخضعوهم لهم ، وما كانوا يستطيعون ذلك لو بقوا على روحهم الجاهلية . فقد قضوا فى جاهليتهم أجيالا وأجيالا وهم فى استكانة وامتهان أمام عظمة الفرس والروم ، إن حاربوا فإنما يحارب بعضهم بعضاً ، وإن نهبوا فإنما ينهب بعضهم من بعض . أما أمام غيرهم فأذلاء جبناء . ثم نهضوا بالإسلام نهضتهم فتكونوا أمة واحدة ، وارتفعت نفوسهم فأصبحوا أمة تخشاها الأمم .

لقد جاء الإسلام فجعلهم يؤمنون بالجنة والنار ، فمن قتل فى الحرب قتل شهيداً ، ومن عاش عاش عزيزاً ، فبث ذلك فى نفوسهم روحا غريبة يرويها التاريخ ، فكان إذا جد الجد باعوا أرواحهم بيع السماح ولم يذلوا ولم يستكينوا وضحوا بأموالهم ، وبأنفسهم إذا دعت الحال .

ولم يكن هذا الانتقال من حياة جاهلية إلى حياة إسلامية بالأمر اليسير السهل ، فالناس عبيد ما ألفوا ، كارهون لكل دعوة جديدة ، ولذلك نرى فى التاريخ ما وجده النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من صعوبات ، وما نالوا من عذاب بسبب جهادهم فى نقلهم الناس من عقلية قديمة إلى عقلية جديدة ، فاحتملوا فى ذلك من العذاب ما لا يوصف . ووقفوا وقوف الأبطال ، حتى يروى عن ابن عباس أنه قال : « والله إن كان المشركون لا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى لا يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به » .

وهكذا كل نهضة فى التاريخ تكون مصحوبة بقوم يتحمسون لها ، وقوم

رجعيين يعرقلون سيرها؛ وقد جرت العادة أن البقاء للأصلح، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

من أجل هذا كله، عددنا تحول العرب من جاهلية إلى إسلام، «نهضة فكرية» كبيرة، بل هي أكبر نهضة فكرية في حياة العرب، أما ما جاء بعدها من نهضات، ففرع لها، وناشىء عنها. وسنتتبع سير العرب في تاريخهم، وما كان لهم من نهضات أعلت شأنهم، وأعزت جانبهم.

— ٣ —

حدثتكم فى الحديث الماضى عن الإسلام نفسه كنهضة فكرية . واليوم أحدثكم عن نهضة أخرى فى الإسلام . تلك هى نهضة العرب بسبب الفتوح .

لقد كان العرب فى جزيرتهم يكادون يكونون منعزلين عن العالم الذى حولهم ، فإذا وصل إليهم شىء من المدنية التى حولهم فأشعة ضعيفة جداً .

فمثلا كان يحدّ ساحل الجنوب الغربى من البحر الأحمر قوم تسرّبوا إليه من ساحل الجزيرة المقابل سُمّوا بالأحباش لأن أصلهم من الحبشة ، وكانت الحبشة ذات مدنية وإن كانت ضعيفة . وكان ينازع الحبشة فى السيادة على اليمن الفرس ، فتسربت منهم إلى العرب بعض مدنيتهم عن طريق اليمن أحياناً ، وعن طريق العرب الذين كانوا يسكنون الحيرة فى العراق أحياناً .

ويحدثنا التاريخ أن سلمان الفارسى كان عارفا بأساليب الحرب الفارسية ، وهو الذى أشار على النبى صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق حول المدينة فى غزوة الخندق ، واقتنع النبى بفكرته ، وأسرع الصحابة إلى تنفيذها . إنما كانت الاستفادة الكبرى من المدنيات العظيمة يوم فتحوا فارس وقسما كبيراً من بلاد الروم ، وكان أكثر ذلك فى خلافة عمر ، فدعاهم هذا الفتح إلى سكنى هذه البلاد ، بعضهم فى فارس ، وبعضهم فى الشام وفى فلسطين ، وبعضهم فى مصر . فرأوا إذ ذاك مدنية كبيرة ، وعرفوا ما لم يكونوا يعرفون ، وكان مثلهم مثل أسرة تسكن كوخا صغيراً ، انتقلوا منه إلى قصر فخم عظيم ، أو كعامل يشتغل على مغزل يدوىّ عهد إليه الوقوف على ماكينة ميكانيكية كبيرة . غاية الأمر أن لهم خصالا ممتازة : فهم ذوو روحانية عالية ، وذوو استعداد للتطور مع الزمان والأحداث ، وقفوا إذ ذاك موقفاً فى غاية الصعوبة ، وهو كيف تدار هذه الممالك الفخمة الضخمة خصوصاً أن لكل بلد عادات وتقاليد لم يكونوا يعرفونها . فلهم نظم فى الحرب والرىّ وفى

الضرائب . وعلى العموم فى المسائل التشريعية والاجتماعية والاقتصادية .

لقد كانت جزيرة العرب ذات ماء قليل إن عثروا عليه ففى غدير ، أو فى بئر حقير ، أو قناة صغيرة ، فما بالك إذا رأوا دجلة والفرات والنيل وبردى ، تلك المياه احتاجت إلى نظم للرى وقوانين كثيرة . وكذلك الشأن فى الأموال والتنظيم الإدارى والاجتماعى والقضائى ، كانت من غير شك هذه أكبر المشكلات . ومن حسن الحظ أنها حدثت أول ما حدثت فى عهد عمر بن الخطاب ، فكانت تنقل إليه كل كبيرة وصغيرة ، وهو يفكر فيها بالشورى مع كبار من حوله ، ويرى فيها رأيه .

قد كان راعى غنم ، فأصبح راعى أمم ، والواقع أنهم حلّوا هذه المشكلة حلاًّ لطيفاً ، فأولا أقروا الأمم على عاداتها وتقاليدها ، ما لم يكن فى تلك العادات ما يخالف الإسلام ، والثانى أنهم درسوها وعرفوها ، والثالث أنهم كانوا يعرفون كليات أصول الإسلام وروحه فيطبقونها على البلاد المفتوحة ، وبذلك استفادوا وأفادوا . وواجهتهم مشكلات كثيرة من هذا القبيل كانوا يحلونها على هذه الأسس .

فمثلا اعترضتهم مشكلة الأراضى فى البلاد المفتوحة : هل يملكها العرب الفاتحون ؟ فكان رأى عمر ، وشايعه على ذلك بعض الصحابة ، أن هذه الأراضى تترك لأهلها . وليس للعرب الفاتحين حق ملكية شىء فيها . إنما المفتوحون يؤدون الجزية والخراج ليس إلا . وألزم عمر الفاتحين أن ينزلوا فى معسكرات خاصة ، كالجابية وحمص فى الشام ، واللّدوا والرملة فى فلسطين ، والفسطاط فى مصر ، واختطّوا الكوفة والبصرة فى العراق .

وأسسوا الجيوش فى فارس على النمط الفارسى وفى بلاد الروم على النمط الرومانى .

وعلى الجملة كان تسيير دفة هذه البلاد أصعب من فتحها . فإن حكمها بالظلم

والانحراف عن الحق مدعاة لثورة أهل البلاد وانتقاضها . فكان حسن الحظ تشديد عمر في معاملة أهل البلاد المفتوحة بمنتهى العدل . فترك كل ذى دين حراً أن يتدين كما يشاء ، كما أمروا بالوفاء بالعهود وعدم نقضها ، وسموا أهل ذمة ، أى أنهم فى ذمة المسلمين . وقد كتب عمر إلى عمرو بن العاص واليه على مصر :

« واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك ، وأن معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله بهم ، وأوصى بالقبط خيراً . واحذر يا عمرو أن يكون رسول الله لك خصما ، وقد ابتليت بولاية هذه الأمة وآنست من نفسى ضعفاً ، وانتشرت رعيتى ، ورق عظمى ، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفرط . والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أُسأل عنه يوم القيامة » . على الجملة عاملوهم بالعدل ، فأطلقوا لهم حرية الدين وإقامة الشعائر وأمّنوهم على المال والأرض وحرية المتاجرة ، وشاركوهم فى الأعمال ، ولولا ذلك ما استقروا عاما واحداً يحكمون هذه البلاد . وكما وضع أمام عينه العدل مع المفتوحين نظر إلى العرب الفاتحين فرعاهم ورأف بهم ، لأن لهم فضل الجهاد فى الفتح . فمما أوصى به سعد بن أبى وقاص : « إنى قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتى ، وعوّد نفسك ومن معك الخير ، ولا تزهد فى التحبب إلى الناس ، فإن الله إذا أحب عبداً حبّبه » .

كما أوصاه بالرأفة بالحار بين والمفتوحين . كما كان شديد المراقبة لعماله ، كثير السؤال عن مسيرتهم وأخبارهم ، وأقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم . وعيّن محمد بن مسلمة قاصًّا ، أى محققاً لأخبارهم ومقتصًّا لآثارهم . فإذا شكا أحد من الرعية أحداً من العمال أرسل من يحقق فى أمره . كما واجه الفاتحون أموراً إدارية نظّموها على نظام مقتبس من نظام البلاد المفتوحة وحسبما تقتضيه عقليتهم .

لم يكن لهم تاريخ مضبوط ، فوضعوا التاريخ لضبط الحوادث ، ولم يكن لهم نظام للبريد ، فوضعوا نظاماً للبريد ، ولم يكن لهم دواوين لحصر الجنود ولا لحصر ما يُجبى من الأموال ، فوضعت الدواوين مقتبسة من النظام الفارسى كما يدل

عليه اسم الديوان نفسه . وعلى الجملة فقد خالط العرب الفاتحون هذه الأمم المفتوحة ، ورأوا ذلك الملك العريض ، ورأوا نظم الحضارة ورفاهيتها وانقلبوا من عرب بدو ، إلى عرب متحضرين على آخر طراز ، وأبدوا استعداداً فطريا هائلا للتأقلم ، يحماون فى قلوبهم دينهم وتعاليم رسولهم ، ودعاهم التأقلم إلى أن يسايروا الحضارة التى شاهدوها . فإذا كانت آلات القتال العربية لا تصلح ، فليستخدموا آلات القتال الفارسية والرومية . وإذا كانت معيشة البدو تقتضى الفقر والتقشف ، فقد تمدنوا وأخذوا بنصيب وافر من الراحة والنعيم .

يروى أن رستم زعيم الفرس لما هزم يوم القادسية قال : « أكل عمر كبدى أحرق الله كبده ، علّم هؤلاء حتى علموا » . وفى الحق أنهم علموا كثيراً . علموا من كل ما وقع عليه نظرهم من عمارة وريّ ونظام إدارى واقتصادى واجتماعى ؛ فانتقلوا بذلك نقلة كبيرة . وكما علموا كل ذلك علّموا البلاد المفتوحة شيئين هامين ، وهما : لغتهم ودينهم . فكان التعلّم متبادلا .

يتعلم العرب كل مظاهر الحضارة ، ويتعلم المحكومون اللغة والدين ، وكانت المملكة الإسلامية كلها بوتقة تغلى فيها كل هذه التعاليم ، فكلٌّ يأخذ ويعطى ، ويعلِّم ويتعلم . ومن أجل هذه النهضة رأينا العرب فى العصور التالية غير العرب فى جزيرتهم ، يديرون على أحدث طراز ، وينعمون بالعيش على أحسن طراز .

هذه هى النهضة الثانية ، وسأحدثكم عن النهضة الثالثة فى الحديث الثالث إن شاء الله .

— ٣ —

استمرت الفتوح الإسلامية ، فبعد أن فتحت فارس وكثير من بلاد الروم ، فتح العرب جزءاً كبيراً من الهند ، فزادت معرفتهم بحضارتها ، ثم فتحوا إسبانيا ، فعرفوا الحضارة الإسبانية ، وفتحوا جزءاً من فرنسا ، فعرفوا ما بها من حضارة . فوضع المسلمون أعينهم على مختلف الحضارات .

وكما حدث فى الماديات ، حدث فى المعنويات . لقد نشأ بعد ذلك جيل جديد مولّد من آباء من العرب وأمهات من البلاد المفتوحة ، يحملون خصائص هذا وخصائص ذاك ، كذلك كان الشأن فى المعانى .

فقد نشأت أفكار يمتزج فيها الفكر العربى بالفكر الفارسى أو الهندى أو المصرى أو الشامى أو الإسبانى . فكانت أشبه ما تكون ببوتقة وضع فيها ذهب وفضة ونحاس مزجت كلها مزجا غريباً ، ونشأت عن ذلك نهضات مختلفة ، نهضة فى التشريع وفى الأدب وفى الاجتماع ، سأتحدث عنها تباعا .

لقد كان المسلمون من ناحية جمعوا القرآن الكريم وبدأوا يجمعون الحديث ، وكان لبعض الصحابة فتاوى كثيرة فى مسائل كثيرة عُرضت عليهم ، فكانت كلها مصدراً للتشريع . ومن ناحية أخرى رأوا قوانين غير إسلامية ، فقد كان فى بيروت والإسكندرية مدارس للقانون الرومانى . وكانت هناك فى فارس تشريعات للفرس ، وكانت البلاد كلها متأثرة بهذه القوانين يجرون عليها فى قضاياهم ومعاملاتهم ، فوجب أن تعرض هذه كلها على الإسلام : هل يقرّها أو يعدّلها أو يغيرها ؟

وإلى جانب ذلك : لكل مدنية من المدنيات معاملات خاصة ، معاملات مدنية ، ولها جرائم جنائية ، يجب أن تعرض على الإسلام والمسلمين

ليُبدوا حكمهم فيها ، ولذلك يقول عمر بن عبد العزيز : « تحدث للناس من الأقضية بقدر ما يحدث منهم من الفجور » .

فمدنيتنا الحديثة تخلق كثيراً من المشاكل لم تكن موجودة من قبل ، ولا بد من أن يتصدى لها التشريع ، كمشاكل مرور الطائرات على البلاد الأجنبية ، ومشاكل استخدام القنابل الذرية ، وتواجه جرائم جديدة كاستخدام الكوكايين والهيروويين مما لم يكن للمدنية السابقة عهد بها ، كذلك واجه العرب مسائل جديدة لم يكن لهم بها عهد أيام كانوا فى جزيرة العرب ، ولم يرد فيها كتاب ولا سنة ، فبماذا يحكمون فيها بمقتضى الأصول الإسلامية ؟

لقد نشطوا فى هذا نشاطاً كبيراً يستدعى الإعجاب ، ولم يمض قرن حتى أُلّفت الكتب الكثيرة فى التشريع الإسلامى ، فإذا قارنّا عملهم فى قانونهم بعمل الرومان فى قوانينهم مثلا ، وجدنا أن المسلمين كانوا أسرع وأنشط ، فالقانون الرومانى لم يدوّن إلا بعد قرون من الفتح الرومانى . ثم كان للمسلمين نظرات صائبة تتعلق بالتشريع ، فعمر بن الخطاب مثلا رأى أنه لا بد له من جماعات حوله من كبار الصحابة يكونون عوناً له على التشريع فيما يعرض له من مسائل . ولذلك منع بعض كبار الصحابة من الخروج من المدينة إلا برخصة منه على أن تكون الرخصة مؤقتة . فلما جاء عثمان رأى أن تنتفع البلاد برأى العلماء ، وينتفعوا هم بما يرون فى البلاد من حضارة ، فرخّص لهم فى السفر ، بل تعمد بعد ذلك عمر بن عبد العزيز أن يرسل البعثات من كبار التابعين للأقطار المختلفة . وقد تفرق كبار الصحابة فى البلدان المختلفة فأثروا فيها بمعلوماتهم ومزاجهم ، وتأثروا بمدنية البلاد التى نزلوا فيها ونوع حضاراتها . وهذا سبب كبير من أسباب الخلاف فى التشريع . فمثلا نزل ابن مسعود الكوفة ونشر فيها علمه وأفتى بما شهده من أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو سمعه ، وهو نفسه كان واسع الفكر ، فقد قال لرسول الله لما بعثه إلى اليمن : « إنى إن لم أجد نصاً فى الكتاب ولا السنة فى مسألة قضيت فيها برأيى » . فكان على هذا المبدأ أيضاً فى العراق يقضى فى المسائل التى لا يجد

فيها حكما فى الـكتاب أو السنة برأيه ، أى بمـا يتصوره من العدالة . ومن أجل هذا نشأ أبو حنيفة وأصحابه على هذا السنن ، سنن ابن مسعود . ولما نزل ابن مسعود فى العراق ، نزل سعد بن أبى وقاص وعمار بن ياسر وأبو موسى الأشعرى وأنس ابن مالك وكثير من الصحابة الذين كانوا من حزب علىّ لما ذهب إلى الـكوفة ، ولهذا كانت مدرسة العراق التشريعية عظيمة كمدرسة الإمام مالك فى المدينة . وذهب إلى الشام أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل وكثير غيرهما ، وذهب إلى مصر الزبير بن العوام وعمرو بن العاص وابنه ، وإلى أفريقيا عقبة بن عامر ومعاوية ابن حديج ، كل هؤلاء كوّنوا مدارس للتشريع فى البلاد التى نزلوا فيهـا مراعين شيئين هامين : قواعد الإسلام الأساسية من جهة ، وظروف البلاد التى نزلوا فيها وتقاليدهم من ناحية أخرى .

ومن أكبر الأدلة على ذلك أن الإمام الشافعى لما كان فى الحجاز والعراق كان له مذهب خاص ، فلما انتقل إلى مصر تغير رأيه فى بعض المسائل بسبب المدنية المصرية . وسمى مذهبه الأول بالمذهب القديم ، والمذهب الثـانى بالمذهب الجديد . ومن الأمثلة على ذلك أيضاً أن تغير الأحوال يكون سبباً فى تغير الأحكام ، وقد رووا فى ذلك حكايات لطيفة ، منها أنه لما اتخذ العباسيون شعارهم السواد غلا ثمن الثياب المصبوغة بالسواد ، فكان الفقهاء أولا قبل اتخاذ السواد شعاراً يحكمون بأن من غصب ثياباً بالسواد نقّص من قيمتها ، فلما تغيرت السياسة واتخذ السواد شعاراً ، كانوا يحكمون بأن من غصب ثوباً فصبغه بالسواد فقد زاد من قيمته . لقد رأى الفقهاء أن بعض البلاد عنده أنظمة فى الزراعة لم تكن معروفة فى جزيرة العرب ، كالمزارعة والمساقاة ونحو ذلك ، فتعرضوا لها وأفتوا فيها .

إنما كانت أكبر مدرستين فى العصور الأولى للاسلام مدرسة الحجازيين فى المدينة ، وعلى رأسها مالك بن أنس ، ومدرسـة العراقيين فى الـكوفة ، وعلى رأسها أبو حنيفة .

سبب الخلاف بين المدرستين يرجع إلى أمور ، أولا : مزاج الإمام مالك العربى والإمام أبى حنيفة الفارسى . و بين المزاجين فرق كبير .

وثانياً : أن الإمام مالكا كان يعتز بمن حوله من التابعين فى الحجاز ، وأنهم كانوا أعلم بسيرة الرسول و بأحكامه فى المسائل ، وكان أبو حنيفة يعتز بوضع يده على الحضارة الفارسية وما نشأ عنها من مسائل كثيرة تحتاج إلى التشريع . وقد نشأ عن هذا أن الإمام مالكا كان يرى أن لا يفتى إلا فى المسائل التى حدثت ، والتى ينبنى عليها عمل ، فإذا كانت المسائل خيالية أو تقديرية لم يُفت فيها . وساعده على ذلك طبيعة المعيشة فى الحجاز ، وقلة مسائلها . أما فى العراق فالمعيشة أعقد ، والمسائل أكثر .

ومن أهم الفروق بين المدرستين اعتماد الإمام مالك على الحديث أكثر ، لوفرته فى الحجاز ، بينما الإمام أبو حنيفة يشترط فى الحديث شروطا دقيقة ، و بجانب ذلك يعتمد على القياس ، من أجل ذلك كله ترى أن الأحكام التى رويت عن الحجازيين ، كالموطأ والمدونة ، أقل بكثير من الأحكام والمسائل عن العراق .

والخلاصة من هذا كله أن المدارس المختلفة فى الحجاز والعراق والشام ومصر وأفريقيا كانت كلها خيراً على التشريع ، فقد نشطت نشاطا لا حد له . والأمم الحية دائما يختلف مشرِّعوها حسب اجتهادهم وأساس أحكامهم . وقد استطاعوا فى عهد قريب أن يغطوا المسائل التى واجهوها فى المدنية الحديثة ، وأن يفتوا فيها برأى أو آراء ، وأن يضعوا مكان المدارس الرومانية والفارسية مذاهب إسلامية ، فكان رأى مالك وأبى حنيفة يحتل مكان رأى « جايوس » الرومانى وأمثاله .

ومن حسن الحظ أن المشرعين الأولين كمالك وأبى حنيفة كانوا صادقين فى عملهم مخلصين فى بحثهم ، زاهدين فى حياتهم ، فلم يخدعهم مال ولا منصب ولا جاه .

ولم تجرفهم السياسة مع عنفها فى تلك الأيام ، هذا الإمام مالك يرى الساسة يستقسمون الناس على بيعتهم بأغلظ الأيمان ، من طلاق وعتاق ، وحج مشاة على أقدامهم إذا هم رجعوا عن بيعتهم ، فيفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره ، فيغضب من ذلك الساسة ويلقى من ذلك عنتاً شديداً . وأبو حنيفة لا يرضى كثيراً عن سياسة العباسيين فلا يقبل أن يتولى لهم القضاء ، فيضرب ويسجن ، فزاد من قيمتهم إخلاصهم للحق وتفانيهم فيه .

بهذه النهضة خلّفوا لنا ثروة تشريعية هائلة ، لو سايرت الزمن وتطورت تطورها الطبيعى ولم يقفل الاجتهاد فى وجه العلماء ، لكان لدينا الآن تشريع على أسس متينة ، ويجاري أحداث الزمان .

لقد حدث لنا فى العصور الحديثة قريب مما حدث لهم ، فالمدنية الحديثة قابلت المسلمين بجزئيات لا عداد لها ، فقد أصبحت طرق المعاملات الجديدة تخالف — فى كثير من الأحيان — طرق المعاملات القديمة ، وتطور العالم الإسلامى فى العشرين سنة الأخيرة ، ما لم يتطوره فى مئات السنين الماضية ؛ تدل على ذلك الأسئلة الكثيرة التى كانت ترد على المرحوم الشيخ محمد عبده مثل إيداع المال فى البنوك ، ولبس القبعة ، وأكل ذبائح أهل الكتاب ، وكالأسئلة الكثيرة التى ترد على لجنة الفتوى فى الأزهر . وقد واجه الأئمة الماضون فى مدنياتهم ما نواجه نحن الآن فى مدنيتنا الحديثة ، غاية الأمر أنهم حلوها بشجاعة وحرية ، مستندين إلى أصول الإسلام ، متمتعين بالاجتهاد ، فوضعوا

إحدى عينيهم على كليات الدين ، والأخرى على المدنيات التى واجهوها . وقد سُلبنا نحن الاجتهاد فصعب علينا الحل .

وإن كل شريعة من الشرائع لابد لبقائها من كليات ثابتة دائمة ، مثل : (اعدلوا هو أقرب للتقوى) و (لا ضرر ولا ضرار) ، ونحو ذلك ، وأشياء متموجة تواجه أحوال الزمان ، وتتجدد مع تغير البيئة والظروف ، ومن غير ذلك تتحجر الشريعة .

— ٤ —

أنتقل الآن إلى الحديث عن أثر الفتوح الإسلامية فى النهضة الأدبية .

والأدب من أكثر الأشياء تأثراً ببيئته ، بل ببيئة الأديب نفسه ، فحياة شوقى فى القصور مثلا لونت شعره بلون خاص غير اللون الذى يتلون به البدوى . وإذا كان الرجل العادى تدعوه معيشته إلى أن يشبه الهلال بقلامة الظفر ، فالخليفة ابن المعتز الذى كان يعيش فى القصور المترفة يشبه الهلال بزورق من فضة قد اثقلته حمولة من عنبر ، وهكذا .

فإذا نحن أخذنا أكبر كمية ممكنة من الشعر الجاهلى ، وأكبر كمية من الشعر فى العصر الأموى ، وسلطنا عليهما الأضواء القوية ، فماذا نجد من فروق ؟ :

نجد فروقا كثيرة لا نستطيع حصرها فى حديث أو حديثين ، ولذلك نكتفى ببعض الخطوط الرئيسية ، وهى فى نظرنا ثلاثة ، خلاصتها كلها أن الحضارة أخرجتهم عن سذاجة البداوة فظهر على شعرهم الترف والنعيم على أثر اختلاطهم بالفرس فى العراق وفارس وبالروم فى الشام ومصر ، وعلى أثر ما يوحيه الدين من رقة العواطف .

فأول كل شىء نرى أنه قد طرأ على الغزل تطور كبير ، ونرى الفرق ملموساً بين الغزل الجاهلى والغزل الإسلامى ، ذلك أن العربى فى الجاهلية كان يتغزل ولكن لا نجد له قصيدة واحدة كلها فى الغزل بل هو يتغزل أبياتاً فى أول قصيدته ثم ينتقل إلى موضوع آخر . وكان ذلك فيه نتيجة حياته المتنقلة بين الخيام وفى الغزو والغارات .

وكانت عواطفه بدائية فهو يذكر ما يشعر به من صبابة وألم ، أو نشوة وأمل ، ويكتفى بذكر دار محبوبته الدارسة تلعب بها الرياح والأمطار ، وتسرح فيها الوحوش ، ويكتفى بوصف الفراق والوداع .

و إذ كان بدائياً لم يتعمق كثيراً فى شرح تأثراته النفسية . ثم رأيناه فى الحياة الجديدة الأموية رَقّ مزاجه وقوى إحساسه وحلل عواطفه ، وأصبح الغزل غرضاً بعينه يقصد إليه .

ورأينا الغزل فى هـذا العصر ينقسم إلى قسمين : غزل عادى كالذى يحدث بين الناس العاديين فى كل عصر ، وغزل عذرى ، فالذى يمثل الغزل العادى عمر ابن أبى ربيعة والذى يمثل الحب العذرى جميل بثينة .

فعمر بن أبى ربيعة فتى قرشى جميل الشكل غنى ، وهب حياته كلها للغزل ، ولذلك لم يتجه لمدح ملك أو أمير ، ولم يكتف بأن تـكون قصيدته كلها فى الغزل بل كان ديوانه كله فى الغزل ، وقد كان موطنه الحجاز ، والحجاز قد بلغه الترف أيضاً بما صُب فيه من أموال وغنائم على أثر الفتوح ، ونساء جميلات من الرقيقات المأسورات ، فأصبح الحجاز مجالا للترف والنعيم وميداناً للجمال ، فكان ذلك مادة صالحة لحب ابن أبى ربيعة وغزله الـكثير . وديوانه مملوء بذكر النساء اللائى أحبهن ، فلم يكتف بواحدة ولا اثنين ، بل كان يتتبع الجمال حيث وجده .

وكان عمر كما ذكرنا جميلا فى شكله ، ناعماً فى حبه ، تهواه النساء لجماله وشاعريته وجاهه ، ولذلك لم يشعر بالصدود إلا قليلا ، وكان ديوانه عبارة عن قصص قصيرة فيما حدث له مع حبيباته .

وفيه خصلة أخرى وهى أنه كان شديد الشعور بشخصيته ، يتغزل فى نفسه أكثر مما يتغزل فى محبوباته ، فديوانه كله مملوء بقالت وقلت ، ونظرتْ إلىّ وأعجبت بى ، وما كان منها ، إلى غير ذلك . مثل قوله — وهو يدل على ظرف النساء القرشيات ودهائهن :

فلما أجزنا ساحـة الحى قلن لى ... ألم تتق الأعداء والليـل مقمر
وقلن : أهذا دأبك الدهر سادراً ... أما تستحى أو ترعَوى أو تفـكر
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا ... لـكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وفى هذه القصيدة يقول أيضاً :

تهيم إلى نُعْمٍ فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا القلب مُقْصِرُ
ولا قرب نُعم إن دنت لك نافع نأيها يُسْلِى ولا أنت صابر
وأخرى أتت من دون نُعم ومثلها نهى ذا النهى لو ترعوى أو تفكر
إذا زرتَ نُعْماً لم يزل ذو قرابة لهـا كلما لاقيتـهُ يتنمر

وكل ديوان على هذا النحو من قصص قصير مما كان بينه وبين من أحب .

وأما الحب العذرى فنوع آخر ، وهو منسوب إلى بنى عُذرة ، وهى قبيلة عربية بدوية تسكن فى وادى القرى والِحجْر وما جاورها من البلاد ، وما زالوا بها حتى كثروا وانتشروا ووصلت بلادهم إلى أطراف الشام ، وقد عُرفوا برقة القلب وفنائهم فى حبهم وعفتهم حتى أصبح يقال لكل حب عفيف عذرى ولو لم يكن أصحابه من بنى عذرة ، وأهم خصائصهم العفة والمعيشة الفطرية ، واقتصار المحب على محبوبة واحدة . وأكثر ما يطيب لهم وصف ما يلاقون من ألم البعد ومرارة الحرمان والصدود .

والباحث يحار فى نشوء هذا الحب وتعليله ، فالظاهر أنه يرجع إلى أمور أولها ما منحوا من رقة فى القلب ، كما نرى من صفات خاصة فى سكان بلاد مختلفة ، يضاف إلى ذلك عيشتهم الساذجة ، ودخولهم فى الإسلام الذى رقق قلوبهم ، إلى غير ذلك . وربما كان خير من يمثلهم « جميل » الذى اشتهر بحبه لابنة عمه « بثينة » فعرف « بجميل بثينة » ، وقال إنه قد أحبها وهو غلام صغير ، وفى ذلك يقول :

وأول ما قاد المودة بيننـا بوادى بغيض يا بثين سِبَابُ
فقلنا لهـا قولا فجاءت بمثله لكل كلام يا بثين جواب

ثم صارت بثينة شابة وصار جميل شاباً ، فازداد بها هياماً ، وملأ شعره وصفاً للحب ووصفاً للمحبوبة وما يجده من الألم والضنى فى حبه ، مثل قوله :

إنى لأحفظ غيبكم ويسرنى إذ تُذكَرين بصالح أن تُذكَرى
ويكون يوم لا أرى لك مرسَلا أو نلتقى فيه علىّ كأشهر
يا ليتنى ألقى المنيــة بَغْتَةً إن كان يومُ لقائكم لم يقدر
يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت يتبع صداى صداك بين الأقبر
إنى إليك بما وعــدت لناظرِ نظر الفقير إلى الغنى المكثر

فنرى غزلا يختلف عن غزل عمر بن أبى ربيعة ، والشعراء قبله ، فالشاعر العذرى يضيف إلى الغزل شيئاً روحياً ، ويعتنى الشاعر بوصف عواطفه ، و بث شكايته ، وما يلاقيه من ألم البعد ، ويفكر حتى فيما سيلاقيه بعد الموت ، ولعل أصدق تعبير له عن عواطفه قوله لحبيبته بثينة :

إنى لأرضى من بثينــة بالذى لَوْ بَصره الواشى لقــدَّتْ بلابله
بِلَا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمَل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرةِ العَجْلى وبالحوْل ينقضى أواخـــره لا نلتقى وأوائله

* * *

ومن أهم الفروق بين الشعر الجاهلى والشعر الأموى الشعر السياسى وانقسام الشعراء إلى أحزاب سياسية ، فقد كان كل ما عند الشاعر الجاهلى تعصبه لقبيلته . فلما جاء الإسلام رأينا الخلاف يشتد بين الشعراء القرشيين والأنصار ، فإذا وصلنا إلى العصر الأموى ، ورأينا عثمان يقتل ، ويقوم النزاع بين علىّ ومعاوية ، رأينا النزاع يشتد ، فحزب يؤيد معاوية ، وحزب شيعى ، يرى أن الخلافة فى علىّ وأبنائه .

ونشأ حزب الخوارج فى الجزيرة ، وهم يرون أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، غير محصورة فى قريش وغيرها من القبائل ، ثم رأينا حزبا يلتف حول عبد الله بن الزبير ، ويراه أحق بالخلافة ويجاهد الأمويين .

كل هذه الأحزاب كانت تتلهف على الشعراء لأن الشاعر فى وقته كان يقوم

مقام الصحيفة فى عهدنا ، فكان الشعراء يتقاتلون كما يتقاتل الجنود ، وكان بنو أمية أكثر عدداً ؛ لأن القوة فى أيديهم ، والمال الكثير فى خزائنهم ، يغدقون منه على الشعراء فعُرف الأخطل مثلا بأنه أكبر داعيـة للأمويين ، وكذلك جرير والفرزدق ، وعرف عبد الله بن قيس بأنه كان يتعصب لعبد الله بن الزبير ، وعرف عمران حَطان بأنه كان يتعصب للخوارج ، وهكذا .

فمعيشة الحضارة كونت الأحزاب ، وطبيعة الأحزاب كونت الشعراء الحزبيين ، وما كان شيء من ذلك موجوداً فى العصر الجاهلى ، فلا مؤيدون ولا معارضون ولا أحزاب ولا من ينتسب إليها .

* * *

فهذا الغزل العادى ، وهذا الغزل العذرى ، وهذا الشعر الحزبى ، كل ذلك مظاهر من مظاهر الحياة المدنية التى انتقل إليها العرب فرقّت من الشعر وجعلته يملأ الجو بلونه الجديد .

وكما دخل على الشعر تطور جديد بسبب المدنية ، دخل على النثر تطور جديد وهو ما نرجئه إلى حديث قادم إن شاء الله .

جمع اللغة العربية[1]

كان المثقفون فى العهد الأول ، وصدر من الدولة العباسية ، لا يلتفتون إلى جمع اللغة ؛ فاللغة تؤخذ من أفواه العرب ، ومن شاء أن يتعلمها فليتعلمها من بادية البصرة والكوفة فى العراق ، أو بادية العرب فى الشام ، فكان ابن المقفع و بشار ابن برد مثلا يخرجان إلى هذه البادية و يقيمان فيها و يتعلمان ما طابت لهما الإقامة ، شأنهم فى ذلك شأن الطفل ينشأ بين أبو يه وقومه ، و يتثقف بثقافتهم ، و ينطق لسانه بلغتهم ، وهذا هو التعلم الطبيعى للغة . فلما جاءت موجة التدوين ، وتخصصت كل فرقة لعلم ، فقوم للفقه ، وآخرون للنحو ، اشرأب قوم لجمع اللغة فجمعوها أولا من لغة القرآن الكريم ، مستعينين على ذلك بتفسير المفسرين ، و بالأحاديث التى صحت عندهم ، ومستعينين أيضاً بتفسير المحدثين ، ولم يكتفوا بذلك ، بل ساحوا فى جزيرة العرب بين القبائل العربية ، يجمعون كل ما يسمعون ؛ وكان من أشهرهم عبد الملك بن قُرَيب الأصمعى ، والكسائى ، والأزهرى ، وكان الأصمعى أميل إلى جمع نوادر العرب ، يتحدث بها إلى الملوك ، وكان الكسائى يخرج من حين لآخر ومعه قنينة مملوءة خبزاً وكاغد ، وقد أسر الأزهرى من القرامطة ومكث نحو سنتين فى الجزيرة بين القبائل يصيف فى الستارين ، و يشتى فى الدهناء ، و يرتبع فى الصمان ، وألف فى اللغة كتاب التهذيب الذى أخذه ابن منظور فى لسان العرب .

وقد جد المؤلفون فيما بعد ، فى حذو المحدثين فى تقسيمهم اللغة إلى متواترة ورواية آحاد ؛ فالمتواتر لغة القرآن ، وما تواتر من كلام العرب ، واشترطوا أولا فى ذلك أن يبلغ عدد النقلة حداً لا يجوز على مثلهم الاتفاق على الكذب فيه ،

---

(١) وهى الكلمة التى ألقيت فى مؤتمر المجمع اللغوى يوم ١٨ / ١٢ / ١٩٥٠ .

كرواة لغة القرآن وما تواتر من السنة ، وقد استشكل الفخر الرازى فى تفسيره وجود التواتر فى اللغة ، قال : لأنا نجد الناس مختلفين فى معانى الألفاظ التى هى أكثر الألفاظ تداولا ودوراناً على ألسنة المسلمين ، اختلافا شديداً ، لا يمكن فيه القطع بما هو الحق ، كلفظ « الله » ؛ فإن بعضهم زعم أنها عبرية ، وقال قوم سريانية ، والذين جعلوها عربية اختلفوا هل هى مشتقة أو لا ؟ والقائلون بالاشتقاق اختلفوا اختلافا شديداً ، وكلفظ الإيمان والكفر ، والصلاة والزكاة قال : فإذا كان هذا الحال فى هذه الألفاظ التى هى أشهر الألفاظ والحاجة إليها ماسة ، فما ظنك بسائر الألفاظ ؛ فإذا كان ذلك كذلك ، ظهر أن دعوى التواتر فى اللغة متعذرة . والإشكال الثانى أن من شرط التواتر استواء الطرفين والواسطة ، فهب أننا علمنا حصول شرط التواتر فى حفاظ اللغة فى زماننا ، فكيف نعلم حصولها فى سائر الأزمنة . والثالث أنه اشتهر ، بل بلغ مبلغ التواتر ، أن هذه اللغات إنما جمعت عن جمع مخصوص كالخليل ، وأبى عمرو ، والأصمعى ، وأقرانهم ، ولا شك أن هؤلاء ما كانوا معصومين ، ولا بالغين حد التواتر ، وإذا كان كذلك لم يحصل القطع واليقين بقولهم . وقد ضربوا أمثلة من المتواتر بما جرى على ألسنة الناس من زمن العرب إلى الآن كأسماء الأيام والشهور والربيع والخريف والقمح والشعير والأرز والحمص والسمسم .

وأما أخبار الآحاد ، فما انفرد بروايته واحد من أهل اللغة ، ولم ينقله أحد غيره ، قالوا : وحكمه القبول ، إن كان المنفرد به من أهل الضبط والإتقان ، كأبى زيد والخليل ، والأصمعى وأبى حاتم وأبى عبيدة ، وأضرابهم ، وشرطه ألا يخالفه فيه من هو أكثر عدداً منه مثل ما رواه أبو زيد المنشية : المال ، فلم يقله غير أبى زيد ، ومثل رجل ثط ولا يقال أثط ، قال أبو حاتم قال أبو زيد مرة أثط فقلت له أتقول أثط ؟ قال سمعتها ، ومثل ما حكاه الكسائى : سمعت لجبة ولجبات ، ولجبة ولجبات ، فجاء بها على القياس ، ولم يحكها غيره ، إلى كثير من أمثال ذلك

ومثل هلمّ جرًّا ، قال الجوهرى فى الصحاح : كان ذلك عام كذا وهلمّ جرًّا إلى اليوم ، قال ابن هشام فى تأليف له : عندى توقف فى كون هـذا التركيب عربياً محضاً ، لأن أئمة اللغة المعتمد عليهم لم يتعرضوا له ، حتى صاحب المحـكم ، مع كثرة استيعابه وتتبعه .

وكان بعض اللغويين غير موثوق به ، كأن يكون غير عدل ، أو يروى عن صبيان أو عن مجانين أو كان راوية من أهل الأهواء ، ولم يكن بعض الجامعين يتحرى الصدق ، بل كان يبيح لنفســه أن يضع ، كما أخذ على ابن دريد اللغوى صاحب الجمهرة ، ومما زاد فى تضخيم اللغة ما طرأ على الـكلمات من التصحيف ، فقد رووا أن الخليل بن أحمد صحَّفَ يوم بعاث إلى يوم بغاث ، وابن الأنبارى صحف يوحا اسم الشمس إلى يوح ، ورووا أن حماداً الراوية صحف فى القرآن ثلاث كلمات لأنه أخذه من المصحف ، ولم يروه عن أحد ، فحرف « وعدها إياه » ، « بوعدها أباه » و « فى عزة وشـقاق » إلى « فى غرة وشقاق » ، « لـكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » إلى « شأن يعنيه » . وقالوا : إنه وقع فى كتاب العين للخليل من التصحيف مالا تصح نسبته إلى تلميذ من تلامذته فضلاً عنه ، ووقع فى التصحيف الجوهرى صاحب الصحاح وغيره ، ولم تحقق هذه التصحيفات بل كدست فوق بعضها ، وضخمت المعاجم ، وذلك مثل فرشحت الناقة وفرشخت إذا استعدت للبول ، وكان الواجب أن يحقق أيهما التصحيف لا أن يكدس .

وعنى الجامعون للغة بقبائل خاصة وهى : عليا هوازن ، وهم خمس قبائل ، أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف . قال أبو عبيد : وأحسب أفصح هؤلاء بنى سعد بن بكر ، وقال أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن ، وسفلى تميم .

وتحرجوا من أن يأخذوا اللغة عمن جاور الحضر من قبائل العرب ، إذ كانت وجهة نظرهم أن يأخذوا اللغة ممن صفت لغتهم ، و بعدت عن الدخيل ، وكانت

أمامهم وجهة نظر أخرى محترمة أيضاً ، وهى أن يأخذوا ممن اختلط بالحضر ، فإن لغتهم أوسع وألفاظها قد رققتها الحضارة .

إنما كان عملهم فى الجمع بدائياً غير منظم ، فهم يلتقطون ما يسمعون من الألفاظ ويدونونها ، وعيب هذه الطريقة أنهم لم ينصوا فى الأعم الأغلب على القبيلة الواحدة التى جمعوا منها ألفاظهم ، بل يهتمون بالكلمة التى يسمعونها ويدونونها حيثما اتفق كلمة بجانب كلمة من غير ترتيب ، ولذلك نرى نقصاً كبيراً فى هذا الجمع ، فأحياناً نجد مصدراً ولا نجد له فعلا ، وأحياناً نجد مفرداً ولا نجد مثناه ولا جمعه ، وأحياناً نجد الجمع ولا نجد المفرد ، وهكذا .

والمدنيون الآن يؤلفون الجمعيات ، ويعدون الخرائط والاستمارات ويحددون الأسئلة التى يريدونها ، فيسألون مثلاً : ما تقول بلادكم فى (كيف حالك) ويقيدون فيها اسم البلد ، ثم يستنتجون من ذلك نوع الناس الذين ينطقون بهذا القول ، ويستخرجون من ذلك الدلائل اللغوية والاجتماعية ويرسمون الخرائط وفقاً لهذه الاستنتاجات فتكون هذه العملية عملية علمية .

والقبائل كانت أعقل من أن تضع لفظين لمسمى واحد ، فالقبيلة التى تستعمل كلمة « السكين » لا تستعمل كلمة « المدية » والقبيلة التى كانت تستعمل « البئر » لا تستعمل كلمة « القليب » فلما كان الجمع بدائياً ، وجدت ألفاظ كثيرة مترادفة ؛ ومن ثم كانت المعاجم مملوءة بالمترادفات ، فلغتنا ليست لغة العرب ، ولكن لغات العرب . وفى رأيى أن المترادفات — مع إعانتها للشاعر خصوصاً فى الشعر العربى الذى يلتزم القافية بل قد يلتزم ما لا يلزم ، وخصوصاً فى الملاحم الطويلة التى تشتمل أبيات كثيرة يحتاج معها لا شك إلى مترادفات كثيرة — كالجدرى فى الوجه الجميل . وقد أنكرها ابن فارس وثعلب ، فقد روى أن ابن خالويه قال فى حضرة سيف الدولة بن حمدان : إنى أعرف للسيف خمسين اسماً فقال ابن فارس : إنى لا أعرف له إلا اسماً واحداً وهو السيف . فقال ابن خالويه : وماذا تقول فى

المهند والصمصام والبتار ؟ قال : إنها صفات . يعنى بذلك أنها اختلفت لدلالتها على صفات غير الاسم ، وذلك كأسماء الله الحسنى ، فإنها تدل على صفات أكثر مما تدل على ذوات . وقد حكى أن أبا عبيدة افتخر يوماً أمام الرشيد بأنه يحفظ عشرة أسماء لكل عضو من أعضاء الفرس ؛ فقال الأصمعى : إنى لا أحفظ إلا اسماً واحداً ، فاستحضر الرشيد فرساً ، وسأل أبا عبيدة عن تطبيق الأسماء العشرة على كل عضو فلم يعرف ، فسأل الأصمعى فذكرها فوهب له الفرس ، مما يدل على أن بعض الجامعين لم يكونوا يدققون كثيراً فى دلالة الأسماء على مسمياتها .

والترادف فى نظرى ليس مزية من مزايا اللغات ، بل هو عيب من عيوبها ، فإن كان موجوداً فى اللغات الحية كالإنجليزية والفرنسية فهو أثر من آثار اللغات القديمة . والمثل الأعلى للغة لفظ واحد لكل مسمى فلا ترادف ولا اشتراك ، ولذلك كانت المترادفات فى اللغات القديمة أكثر منها فى اللغات الحديثة ، ومع أن ألفاظاً كثيرة عدت مترادفات وإن لم تكن مترادفة لدقة الفروق بينها ، مما أدى إلى عناية بعض العلماء من مستشرقين وعرب إلى تأليف كتب فى الفروق ، كما فعل أبو هلال العسكرى وكما فعل بعض الآباء اليسوعيين — إلا أنها مع ذلك من غير شك كثيرة فى اللغة العربية مما ملأ المعاجم بالمترادفات وضخمها ضخامة كاذبة .

وشىء آخر وهو أن القبائل تختلف فيما بينها أيضاً فى اللهجات ، وقد تكون الكلمة تنطق بها قبيلة بلهجة ثم تنطق بها قبيلة أخرى بلهجة أخرى ، كما تختلف اللهجات فى مصر بين القاهرى والإسكندرى والصعيدى والدمياطى ، ويتبع ذلك ما روى كثيراً فى كلمات من القلب والابدال ، فمثلا تقول قبيلة جبذ فى جذب ، وبكل فى لبك . ومثل أن يقولوا « أشد سوادا من حلك الغراب » ومن « حنك

الغراب » وقال بعض العرب « فأبعدكن الله من شجرات » وقال بعضهم من شيرات وهكذا .

فلما جاء صانعو المعاجم جمعوا هــذا كله إلى بعضه من غير أن يتخففوا من اللهجات المختلفة ، مكتفين بلهجة ممتازة بالوضوح .

ثم كان أن اختلف العلماء الجامعون للغة فى فهم الـكلمة أو الجملة من الأعراب ، خصوصا وأن كلمات كثيرة إنما تفهم بالقرآن ، فـكان عالم يفهمها بفهم ، وآخر يفهمها بفهم آخر ، وهــذا ربما كان السبب فى وجود بعض الألفاظ المشتركة مثل قرء فى الحيض وفى الطهر ، خصوصا وأن اللغة العربية تعتمد أكثر ما تعتمد على الصيغ القريبة مع الاختلاف البعيدة فى المعنى كالفرق بين رجل ضُحَــكَة وضُحْــكَة وطلَعه وطلْعه ، ونحو ذلك ، وقد يدق معنى كل تركيب ، ويقع اللغويون فى التضارب . ماذا نستنتج من كل ذلك ؟

نستنتج من كل هذا أن اللغة قد تضخمت تضخما مزيفا كثيراً وكانت نتيجة ذلك تضخم المعاجم تضخما أيضاً مزيفا . وقد كان يكون هذا مقبولا ، لولم تدهمنا الحضارة الغربية بكثير من المسميات والمعانى ، نحتاج معها إلى ألفاظ كثيرة وهى تغمرنا كل يوم بمئات المصطلحات ، التى كثيراً ما نعجز عن مسايرتها ، فـكان المعقول أن نتخفف من كثير من الـكلمات ، لنفسح مكاناً لها فى المعاجم . وقد فعلت قريش خيراً مما فعله جامعو اللغة العربية ومؤلفو معاجمها ، فإنهم صفوا اللغات المختلفة ونقوا خيرها واستعملوه لغة لهم وبها نزل القرآن ، فلم يجمعوا كل ما قيل عن القبائل ، بل نخلوه واقتصروا على ما حسن وقعه فى أسماعهم وراق فى أذواقهم .

بقى سؤالان هامان وهما : ألم يرد فى القرآن الـكريم مترادفات لنثبت أن قريشاً اختارت من اللغات أحسنها ؟ والسؤال الثانى : أيهما خير ، أنضحى بوحدة

القافية فى الشعر لتنقية اللغة من المترادفات ؟ أم نبقى عليها للإبقاء على الشعر العربى فى شـكله القديم ؟

ومن رأينا فى الإجابة على السؤال الأول أن ليس فى القرآن مترادفات ، وإنما كلمات متقاربة المعنى مثل أفلح وفاز ، دقت الفروق بينها ، أو على الأقل اختلف وقع الـكلمة باختلاف موضعها ، فقد تكون كلمة أوقع فى محلها حيث تكون الأخرى أوقع فى محلها الآخر ، وقد أدرك الجرجانى فى دلائل الإعجاز ذلك إذ قال : إن كلمة (أيضاً) ليست من الـكلمات التى تستحسن فى الشعر ، ولـكن وردت جميله فى بيت شعرى وهو :

غير أنى بالجوى أعرفها ... وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

وأما عن السؤال الثانى فيمكننا أن نهدر المترادفات ، ونهدر معها ورود القصيدة على قافية واحدة ، خصوصاً وأنه من الصعب فى الملاحم وأمثالها ، أن نطيل أبياتها على روى واحد وقافية واحدة ؛ والمهرب من هذه الصعوبة هو أن تغير القافية فى كل عدة أبيات ، كما اضطر البستانى أن يفعل ذلك حين ترجم الإلياذة ، وبذلك كله نفسح مكانا واسعاً فى المعاجم للـكلمات الحديثة والمصطلحات الحديثة .

وإذا لم تتح لنـا فرصة الإجادة فى الشعر المرسل كما حدث فى بعض اللغات ، فليس أقل من أن نغير القافية بين جملة من الأبيات وأخرى ، وليست وحدة القافية بالأمر المقدس الذى لا يصح أن نخرج عنه ، ولـكنه أمر اعتيادى وتقليدى ، مرده كله إلى الأذن الموسيقية .

ضيعة الأدب

مما أعجب له تفكك الأدباء فى مصر ، فليس لهم رابطة تربطهم ، وكل أديب حزب وحده ، وكما يتراشق السياسيون فى سياستهم يتراشق الأدباء . وفى الوقت الذى نرى فيه تكوّن النقابات للعمال وغيرهم ، حتى كان للحلاقين نقابة ، لا نجد للأدباء نقابة . وحاول مرة الأستاذ توفيق الحكيم أن يجمع بينهم ليخرجوا مجلة كبيرة تحمل اسمهم فلم يفلح ، فكيف يتصافى فلان مع فلان ، أو فلان مع فلان ، ومن ذا الذى يُرضى أن يكون رئيساً للجميع ، وانفضت الدعوة على لا شىء .

ننظر إلى الأدباء فى فرنسا مثلاً ، فنراهم كتلة ينتهزون كل فرصة للاجتماع ، اجتماع لمؤلف مات منذ عشرين سنة ، واجتماع لمؤلف ظهر منذ عشر سنين . وهكذا تتوالى الاجتماعات حتى لا يمر شهر من غير اجتماعين أو أكثر من هذا القبيل ، و يقض الاجتماع عن بحوث فى أديب تطبع وتنشر . ونحن أردنا مرة أن نجتمع فأسسنا نادى القلم ، فتهرب منه بعض الأدباء لأنهم لم يرضوا أن يكون فلان رئيساً ، والذين اجتمعوا لم يفلحوا لأنه كان من الخطأ ضم أدباء الجاليات الأجنبية إلى الأدباء المصريين .

وربما كان من أهم أسباب الانحلال انغماس الأدباء فى السياسة الحزبية لا القومية ، وتفرقهم تفرق السياسيين لأن كلا ينصر حزباً ؛ مع أنى أعتقد أن السياسة تفسد الأدب وتفقده الخلود ، فالأدب السياسى ابن يومه ، والأدباء الذين يقدرون رسالتهم يفهمون أنهم أرقى من السياسيين ، بل أرقى من الوزارة نفسها ، وأن على اكتفافهم عبئاً ثقيلا ، فهم يحملون الأدب من عهد امرئ القيس إلى اليوم ، وهم يحافظون عليه و يزيدونه حتى يسلموه إلى الجيل الذى بعدهم .

ولو عرضت الوزارة على برنارد شو أو أندريه چيد لسخرا من ذلك كل السخرية وترفعا عن الوزارة ، وإن للأدب مجداً أكبر من مجد السياسة ، بل الأديب الكبير يستطيع أن يكون مناراً عالياً يهتدى به الوزراء أنفسهم ، وللأديب من الخلود ما ليس للوزير ، بل إن الأديب تخلده الكتابة المترفعة عن الحزبية ولا تخلده الكتابات السياسية . !

وأذكر مرة أنى وصاحباً لى كنا نتحدث عن ابن حزم فقلت : إن أباه كان وزيراً . فقال : ما اسمه ؟ قلت : لا أذكر قال : سبحان الله ، أتذكر ابن حزم العالم ولا تذكر أباه الوزير . قلت : هو كذلك .

و بلغنى أن مرشحاً للمجمع اللغوى الفرنسى كان وزيراً لفرنسا فى أمريكا ، فطلب إليه أن يقدم طلباً ليكون عضواً ، فكتبه على ورقة طبع عليها اسم السفارة الفرنسية فى أمريكا ، فرفض المجمع ترشيحه لأنه ظن أنه يدل بمركزه السياسى على مركزه فى المجمع ، وهو يعتقد بحق أن مركزه الأدبى فى المجمع أشرف من مركزه السياسى .

ونقطة أخرى يؤسف لها ، وهو أن الأدباء عندنا كانوا أدباء مستقلين لا يُعِدّون من يخلفهم ، فإذا زالوا زالت مدارسهم ، وتسكع من بعدهم طويلا حتى يختطوا الطريق ، لم يفعلوا ما تفعل شجرة الموز ، فقبل أن تموت تترك خلفاً لها من جنسها ، إنما فعلوا ما فعلت شجرة الورد تنضر حيناً ثم تذبل من غير عقب . إن الأديب كالمتصوف ، والمتصوف الكبير ينبغى أن يعد مريداً صغيراً حتى تتصل الحلقات ، وقرأت بحثاً لطيفاً لابن خلدون فى هل يشترط فى المتصوف أن يتعلم على شيخ ، أو أنه ينال غرضه استقلالاً ، فكان من حجج المؤيدين لحجج المشيخة أن هناك أسراراً فى قلب الشيخ ، وليست مما فى الكتب ، والكتب تعلم الناس عامة ، والشيخ يعلم المريد ما يصلح له ، وما يتناسب مع نفسه و بواعثه و بيئته . وقد كان القدماء لا يقدرون المتعلم يأخذ علمه من الكتب ، و يسمونه صحفياً ، بل

حتى لا يكتفون بالأخذ عن الشيخ حتى يكتب له إجازة ، وفى كتب التاريخ صور كثيرة من الإجازات . فما بال أدبائنا يعيشون لأنفسهم ، و يساعدون على هوة تكون بينهم و بين خلفهم ، ونشاهد هذا فيمن بعد جيلنا ، فقد كان من قبلنا يأخذ عن القدماء بأساليبهم القديمة ، ثم جئنا نحن حلقة وسطاً بين القديم والجديد ، ثم عيب من يأتى بعدنا أنه يعرف الجديد ولا يعرف القديم ، فتراث من قبلنا سيذهب هباء ، أو تتراكم عليه الأتربة فى المكاتب ، مع أن فيه كنوزاً قيمة تناسبنا نحن أكثر من الكنوز الغربية . إن برنارد شو و هـ . ج ويلز وأمثالهما لم يكونوا يستطيعون أن ينتجوا ما أنتجوا إلا بمريدين لهم ، يعدون لهم المواد الخامة ، و يستفيدون من عملهم ، فما بالنا لا نعمل مثل ما عملوا ، إنها الأنانية المحضة وعدم التقدير للعواقب . إن الأديب يظن أنه يعمل لنفسه فيربح ما يربح ، و يؤلف ما يؤلف ، ليشتهر أو ليربح ، و يقول بعدى الطوفان ، وليست هذه فكرة إنسانية ولا قومية ، وقد علمنا آباؤنا أن نزرع شجرة الزيتون ولو لم نأكل ثمرها فى أعمارنا وقالوا : قد زرع من قبلنا فأكلنا ، ونزرع ليأكل من بعدنا . إن أخشى ما أخشاه أن يرمى الأدباء أعباءهم فلا يجدوا من يحملها بعدهم . ولست أقول هذا مزدهياً ولكن أقوله باكياً . وأخشى أن يمر زمن طويل حتى يرزق الله الأدب من يحمل عبئه . وخير أن يكون الأدب بيعاً يداً بيد من أن يكون بيعاً سَلَماً .

وكما يحمل تبعة ذلك الأديب نفسه يحملها الأديب الناشئ ، فهو ينفر من أن يكون « مريداً » ، و يود أن يتزبَّب قبل أن يتحصرم ، أو أن يطلع المئذنة من غير سلم . وما هكذا تنال الأمور ، فكم خضعنا لننال ، وكم صبرنا لنفهم ، وقد عودتنا الأيام أن ليس طريق العلم والأدب سهلاً معبداً ، و إنما هو طريق مملوء بالأشواك ، لا يسير فيه إلا من تحصَّن بالصبر والأناة .

كيف تتغير الأمم

الأمة فى حركة مستمرة دائمة ، فهى طوراً إلى الأمام وطوراً إلى الخلف ، ولكنها لا تقف أبداً ، وحركتها تحدث فى بطء قلما ترى نتائجها إلا بعد عهد طويل . وكثيراً ما يكون هذا التغير ضرورياً لتغير العادات والتقاليد التى ينشأ عنها تغير فى الأوضاع ؛ فمثلا تغير الطبيعة من صيف إلى شتاء ، ومن شتاء إلى صيف ، ينشأ عنه تغير فى الملبس ، وكالذى شاهدناه من سفور المرأة قد نشأ عنه تغير فى الملابس وتغير فى أوضاع الزواج وغير ذلك .

فالتغير يسلم بعضه إلى بعض . وهو يحدث عادة من الطبقة الراقية الأرستوقراطية ، سواء كانت أرستوقراطية فى المال ، فإن الفقير مولع أبداً بتقليد الأغنياء ، أو أرستوقراطية علمية ، فإن المتعلمين عادة ينقدون الجهلاء فى اعتقاداتهم بالأساطير وفى تقاليدهم الوضيعة فيكون التغير .

والتغيير عادة يقابل بالمقاومة ، فكل تغيير تقابله بعض الجهات بالعداء ، فبكل أمة محافظون يكرهون التغيير ولا يرضون عنه ويعبدون تقاليدهم القديمة ، ولا يتم التغيير إلا بعناء ، كالسفور وحق المرأة فى الانتخاب ونحو ذلك .

وقد تحدث هذه المقاومة بحسن نية ، إذ يعتقدون أن المقترح الجديد ضار كل الضرر ولا تتغلب العادات الجديدة إلا بعناء ، وربما لا يحدث التغيير المطلوب إلا بعد حرب أو ثورة ، وذلك عند شدة العداء أو المقاومة .

والمشاهد أن هذا التغير فى الأمة إما أن يحدث عن دعوة وقصد ، وإما أن يحدث لا عن دعوة ولا عن قصد ؛ فالأول يأتى بعد درس لأضرار الحاضر ووضع خطة للعمل على تغييره ، مثله حركة النبى محمد صلى الله عليه وسلم وحركة أحمد

السلاطين العثمانيين للقضاء على الانكشارية لما رأى ظلمهم وعسفهم ، وحركة قاسم أمين فى الدعوة إلى السفور ونحو ذلك .

أما الثانى فمثله هجرة جماعة إلى بلد آخر كهجرة بعض الأوربيين إلى أمريكا ؛ فينشأ عن ذلك اختلاط بين سكان البلاد الأصليين ، ومواليد جديدة تتخذ طرفاً من هؤلاء وطرفاً من هؤلاء .

ومثل ذلك السينما والإذاعة ، فإنهما يقلبان من غير قصد عقول الجماهير وأذواقهم ومداركهم . والتاريخ مملوء بالأمثلة على النوعين . وما الثورة الفرنسية إلا مثل قوى على التغيير من النوع المقصود ، وكذلك الثورة الروسية ، وهما أيضاً مثالان للثورة على النظم القديمة وعدم الرضا عنها . وربما دلت هذه الثورات وأمثالها على ضرورة شىء هام جداً ، وهو تعديل الأمة نفسها على حسب الظروف الجديدة . وربما كان من خير الأمثلة على ذلك انجلترا ، فقلة الثورات فيها ناشئة من أنها تنظر نظرة بعيدة إلى الظروف الطارئة فتؤقلم نفسها حسب هذه الظروف ؛ فلما شاهدت الثورة الفرنسية غيرت نفسها على مقتضاها ، ولما رأت قوة الاشتراكية عدلت أيضاً نفسها على وفقها ، ولم تشأ أن تصطدم بها . وربما كان من أسباب ذلك أنها جزيرة بحرية تعلمت من البحر المد والجزر وتعديل النفس حسب الأمواج والرياح .

والتغير فى الأمة إذا كان عن قصد كان صعباً عسيراً لاختلاف الأفراد فى المزاج والثقافات والآراء والرغبات والطموح والأفكار ، ورغبة بعضهم فى الإصلاح الجديد ، وصد بعضهم عنه وغير ذلك . ولذلك قل أن يكون إجماع من الشعب على التغير ، وقل أن يكون فى البرلمان الممثل للشعب اتفاق على رأى . وفى كل أمة قوم متزمتون يحافظون على القديم ولا يرضون أبداً عن التقدم خطوة للمصالحة بينهم وبين الأحرار ، ولذلك كان الإصلاح البطىء غير المقصود أسلم عاقبة وأقل خطراً .

وكلما تقدمت الأمم فى عقليتها كانت أقرب إلى قبول التغير ، لأنها فى هذا التغير الجديد تعمل عقلها أكثر مما تعمل مشاعرها ، والعقل دائماً أرقى من المشاعر .

أما الأمة الوضيعة فهى أقل قبولاً للإصلاح ، لأنها تعمل مشاعرها أكثر مما تعمل عقلها ، ومن أجل هذا يحتاج المصلحون إلى دعاية قوية حتى تجمع الأمة على قبول التغير الجديد ؛ فإذا لم تقبل فليس أمامهم إلا القوة لإخضاع هذه الميول المتأثرة المستبدة ، فالاستبداد لا يقابل إلا بالاستبداد ، فمتى حصل الإصلاح بالقوة شعر الشعب بعد ذلك بفائدته واطمأن إليه .

ولذلك كان التعليم خير إصلاح ، لأنه يهيئ الأمة لقبول الآراء الجديدة فإذا تعرض الإصلاح لناحية دينية قوبل المنادى به بأقسى معارضة ، لأن الدين ينشئ عادات وتقاليد يتمسك بها الناس ويظنون أنهم بهذا التمسك يعبدون الله ويؤدون واجبهم ، ويظنون أن من أراد تغيير هذه العادات والتقاليد يريد تغيير الدين ، وما أشد ذلك على النفوس . وفى التاريخ كثير من الأحداث الدينية والوسائل السياسية اللتين وقفتا عقبة فى سبيل الإصلاح والمصلحين ؛ وكثيراً ما ادعى من الدين ما ليس من الدين ، وكثيراً ما لعبت السياسة دورها الخطير فى شعورها أن الإصلاح يضرها ، فهى لا تصرح بذلك لأن الجمهور يكشف لعبتها ، وإنما تثير الشعوب بإفهامهم أن الإصلاح يضرهم ، بينما لا يضر الإصلاح سوى صالح الساسة ، وكم من الحريات والإصلاحات كبتت باسم المحافظة على النظام ومراعاة المصلحة العامة .

مستقبل العالم

قرأت مقالاً للفيلسوف البريطانى برتراند رسل كتبه حديثاً فى مستقبل العالم، فأحببت أن أستوحى كتابته للقراء ولنفسى .

إن عالم اليوم فى هلع وفزع ، وهرج ومرج ، وحيرة واضطراب ، من جراء ما اخترعه العلم الحديث من أسلحة نارية وقنابل ذرية تتكاثر على مدى الزمان . ومتى تكاثرت فستنفجر يوماً ما إن عاجلاً و إن آجلا ، و يزيد فى هذا الخطر خلو العالم الإنسانى من الضمير الحى ، ورغبة بعض الناس فى وقوع الحرب ، لأنها مظهر من مظاهر البطولة وحب التضحية ، وقد شُغف بهما بعض الناس . فأحبوا آلة الحرب بأشكالها المختلفة . وما لم يحدث ما ليس فى الحسبان (كاتفاق على إلغاء الحرب وموت بعض الزعماء الذين يدعون إليها ونحو ذلك) فسيواجه العالم مشاكل عديدة ، وتكون النتيجة أحد أمور ثلاثة :

(أولا) فناء البشرية .

ثانياً) عودة العالم إلى البربرية .

(ثالثاً) توحيد العالم وخضوعه لحكومة واحدة .

فأما فناء البشرية ، فيكون — إن حدث — نتيجة للأبحاث التى يقوم بها العلماء فى القنابل الذرية وتحسينها والإكثار منها ، وربما كان حدوثها سبباً فى انفجار الطاقة البشرية فى كل الكائنات ، حتى يتصل ذلك إلى الشمس فتنفجر أيضا ، وتكون نتيجة ذلك انتهاء هذا العالم . وقد لا يحدث هذا فى الحرب القادمة ، ولكنه يحدث إذا تقدم العلم فى هذا الطريق . وكل الدلائل تدل على الوصول إلى هذه الغاية ، واحتمال وقوعها . والله تعالى يقول : « حتى إذا أخذت الأرض

زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أونهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس » . وهذا ما هو حادث اليوم . فقد ازّينت الأرض بالمخترعات الحديثة وظن أهلها أنهم يستطيعون التغلب على القوانين الطبيعية ، وأصبح من خلق العلم الحديث إخضاع القوى الطبيعية واستعبادها بعد أن كانت النفوس البشرية تصادقها ولكن لا تخضعها .

أما الاحتمال الثانى ، وهو عودة العالم إلى البربرية ، وبدؤه من جديد بناء الحضارة وتهجّيه ألف باء بعد أن وصل إلى الياء ، فيأتى من احتمال أن الحروب القادمة تزيل الأمم المتحضرة ولا يبقى على وجه الأرض إلا المتبربرين سكان الصحارى وأمثالهم ، فيبدأون من جديد فى تعمير ما خُرِّب ، وتمر عليهم أعوام يكتشفون فيها المعادن ، ثم آلاف السنين يكتشفون فيها الآلات ، وهكذا يعيد التاريخ نفسه .

وأما الاحتمال الثالث ، وهو إنشاء حكومة واحدة تحكم العالم ، فقد يحدث ، كما حدث لتطور الفرد ، فقد كان الفرد إذا غُصب حقه استرده بالقوة ، وذلك قبل إنشاء المحاكم ، فلما رقى وجدت المحاكم للفصل فى المنازعات وحُرِّم أخذ الحق بالقوة ، ودعمت المحاكم بالبوليس والقوى التنفيذية ؛ فلماذا لا تصل الأمم إلى ما وصلت إليه الأفراد ، فلا يكون هنالك حرب لدفع الظالم ، ولكن إذا اعتدت أمة على أمة ، فصلت محاكم كمحاكم الأفراد فيها ، وكان لها من القوة التنفيذية ما تستطيع أن تنفذ به حكمها ، وقد أدرك هذا المقترحون لإنشاء محكمة العدل الدولية ، وعصبة الأمم ، وهيئة الأمم المتحدة ، ولكنهم مع الأسف قد فشلوا ، لأنهم أنشأوها محكمات أو هيئات أفلاطونية ، لا تملك وسائل التنفيذ ، فهى محكمة ليس لها بوليس ، وذلك الاحتمال يحدث عند نشوب حرب عالمية تكون من نتيجتها اكتساح روسيا لبريطانيا وفرنسا ، ويبقى العالم أمام قوتين : روسيا وأمريكا ، وهما الدولتان العظيمتان فى العالم اليوم . فإن انتصرت أمريكا الرأسمالية فى ذلك

مزاياه وعيوبه ، فمن أكبر عيوب أمريكا ، هذه الرأسمالية والفروق الكبيرة بين الطبقات ، ومن مزاياها حرية الرأى وحرية القول وحرية الصحافة وحرية الأدب والفن . وهى مزايا لا يستهان بها . يقول برتراند رسل : إنه شخصياً يفضلها على كل ما عداها ، ويأمل نجاح أمريكا لهذه الغاية . وإن انتصرت روسيا فلها كذلك مزاياها وعيوبها : فمن أهم عيوبها الحجر على حرية الرأى والبحث والعلم واستخدام الأدب والفن فى خدمة السياسة ، ومن مزاياها — كما يقال عنها — المكافأة على العمل لا على رأس المال . وقد يقول قائل : من أين عرفنا هذا وروسيا مغلقة الأبواب ، فنقول : إن روسيا لما استولت على بولندا طبقت عليها نظامها ، وبولندا مفتحة الأبواب تحت أعين من يراها ، وقد كان فيها طائفة مثقفة شردت وأهينت وكُبتت . ومن استطاع البقاء منها جارى نظام السوفيت ، وأصبح أدبها أدباً فى خدمة الشيوعية ، ومن المعقول أنه إذا انتصرت روسيا كانت حكومتها هى الحكومة العالمية واكتسحت ما عداها ، ونفذت آراءها بالقوة ، وكان شأن العالم كله شأن بولندا الآن . ومن غير شك ، إذا كانت هناك حكومة عالمية موحدة ، لم يخل نظامها من ثورات تحدث بين حين وآخر ، كالذى يحدث فى كل أمة ، خصوصاً فى أول أمرها ، ولكن مصير تلك الثورات إلى فناء ، وستتسكع الدولة الجديدة فى سيرها ، كما تسكعت محاكم الأفراد فى أول أمرها حتى تستقر على مدى الزمان . فأى هذه الاحتمالات الثلاثة هو الذى سيحدث ؟ أم لا يحدث هذا ولا ذلك ، بل ما يحدث ما قال أبو العلاء :

وتقدرون فتضحك الأقدار ؟ علم ذلك عند الله .

خواطر :

(١) مدرسة جديدة (*)

قرأت فى إحدى الصحف الإنجليزية أن أستاذاً انجليزيا اسمه مستر بلوم أنشأ مدرسة جديدة ، وجعل أساسها عدم الخوف مطلقاً ، من أى صنف كان ، لا خوف من الأساتذة ، ولا خوف من الامتحانات ، ولا خوف من العقاب يؤدب به الطلبة ، ولا غير ذلك من أنواع الخوف . وقد أرصد النتائج لذلك ، فقال إنها أنتجت نتائج باهرة ، فالطالب إنما يعتمد على ضميره ، وقد خرج من المدرسة شاعراً بالحياة ، مبتهجاً بها . بل جعل مجلس شورى للطلبة ومن الطلبة ، يضع لهم مناهجهم ، ويوجه نظرهم إلى ما يجب أن يعملوا ، وما لا يعملوا .

وقد لفت نظرى هذا ، إلى أن من فكر هناك فكرة جديدة ، مكن له أن يجربها فى حرية ، فإذا نجحت عمت ، سواء فى ذلك الأفراد والحكومات . أما عندنا فلا بد أن ينصب التعليم فى قوالب معينة ، ومن نادى بفكرة جديدة أهمل ، ولم يلتفت إلى فكرته .

وقبل ذلك نادى ابن خلدون فى مقدمته بعدم التخويف وأبان أنه ضار بالمتعلمين ، يقول : « إن الشدة على المتعلمين مضرة بهم ، وذلك أن إرهاق الحد بالتعليم مضر بالمتعلم ، سيما فى أصاغر الولد . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم ، سطا به القهر وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب نشاطها ، ودعاه إلى الكسل وحمله على الكذب والخبث ، وعلمه المكر والخديعة

(*) نشرت هذه الخواطر تحت هذا العنوان فى مجلة الثقافة ، تباعا ، خلال سنة ١٩٥٢ .

وصارت له هذه عادة وخلقاً ، وفسدت عليه معالم الإنسانية التى له من حيث الاجتماع والتمرن » ./.

ونظرة ابن خلدون وتحليله تتفق مع نظرة الأستاذ بلوم ، غير أن بيئة بلوم مكنته من نشر فكرته ، وتحقيق رغبته ، وأما بيئة ابن خلدون ، فجعلت نظرته مدفونة فى كتابه إلى يومنا هذا ، وكم له من نظرات صائبة .

وإذا قرأت ذلك ذكرت ما لقيته فى حياتى من تعذيب وتخويف من مبدأ صباى . كان أبى شديداً قاسياً ، يضرب ويشتم حتى على ما لا يستحق الشتم . وذهبت إلى الكتاب ، فكان فقيه المكتب قاسياً شديداً ، يضربنى حتى لأنى لم أهتز وأنا أقرأ . وفى المدرسة الابتدائية كان لنا مدرسون يضربوننا ويعاقبوننا أشد العقاب ، حتى لأتفه الأسباب . ولما ذهبت إلى مدرسة القضاء خوفونا من الامتحان ، فكان من يسقط فى الامتحان ولو فى مادة واحدة ، منعت عنه المكافأة التى يأخذها كل شهر ... كل هذا جعل الحياة قاتمة ، والنفس غير مبتهجة ، تحزن لما يُحزن ، ولا تفرح لما يُفرح ، فإن بقيت بقية قليلة من التمتع بالحياة ، فذلك من فضل الله ، وإلا فأساليب التربية كفيلة بإماتتها . وكم فى الأمة من نفوس ماتت من أساليب القسوة ، وفقدت قيمتها ، وكانت تكون مفتحة مشرقة ، مصدراً لخير كبير ، لو عوملت معاملة حسنة . ١

وبعد : فلو فتحت مدرسة فى مصر على هذا النمط . أتعيش وتنجح ، أم تموت وتفشل ؟ . إن هذا محل تفكير طويل ، فمدرسة الحرية التى تؤسس على عدم التخويف يجب أن تكون فى بيئة مشبعة بالحرية ، أما بلد ضيقت فيه الحرية من قرون ، وكل ما حول الناشئين ظلم وتعذيب ، وتعويد إن لا يعمل الشىء إلا خوفا من عقوبة أو ترغيباً فى مثوبة ، فمن الصعب أن ينشأ فى وسط هذه البيئات جو مملوء بالحرية . إن أردت أن تنجح مثل هذه المدرسة ، فأصلح بيئتها وما حولها ،

أصلح البيت وأصلح الكتاب ، وأصلح معاملة الشرطى للباعة ، ومعاملة العمد للفلاحين ، والمأمورين للعمد ، والمديرين للمأمورين لأنها كلها سلسلة مرتبطة بعضها ببعض .

ومحال أن تعيش نظيفاً فى وسط قاذورات ، أو تسلك سبل الفضائل وحولك ما لا يحصى من الرذائل ، وكانت العرب قديماً تقول : « ما أشبه حجل الجبال بألوان صخورها » .

(٢) الإنسان طفل كبير

تاريخ الإنسان من قديم ضيق فسعة بالتدريج ، فالطفل الصغير أنانى إلى أقصى حد ، لا يعرف أحداً غير ذاته ، إذا أحضر أبوه شيئاً ، فهو له كله ، وليس لأخوته حق فيه ، و يود لو أحضرله أبوه الشمس والقمر فى حجره ، و يرى أن كل شيء فى الوجود له لا لغيره . حتى إذا كبر قليلا ، فهم أن لأخوته حقاً ، ولكن أقل من حقه ، فله وحده النصيب الأوفر . ثم إذا كبر قليلا أدرك أن الخير الذى يأتى ، للعائلة كلها . ثم إذا شب أدرك معنى الوطنية ، وهكذا . كذلك الإنسان فهو طفل كبير ، يبدأ حياته بالأنانية فهو إذا لم يتزوج كان كل خير يناله له لا لغيره ، فإذا تزوّج أشرك معه زوجته وأولاده وأبو يه . فإذا شد قليلا ، أدرك معنى القومية والوطنية ، وأن أمته يجب أن ينالها كل خير ، و يدفع عنها كل شر . فإذا نما عقله دعا إلى الإنسانية لا القومية ، بل رأى أن الوطنية نكبة من نكبات العصر الحديث . وفى الناس أطفال كبار ، لا يفقهون إلا البيت فى أضيق حدوده ، وفيهم أيضاً من ذهبوا إلى الطرف الآخر ، فأدركو أن كل من فى العالم إخوة ، حتى الشجر والثمر ، وأدركوا أن لا فرق بينهم مهما اختلف دينهم ، سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو وثنيين . وفى ذلك يقول محيي الدين بن العربى أبياته اللطيفة :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
و بيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه ، فالحب دينى و إيمانى

وقد مرّ على هذه الأدوار كلها شعراؤنا الثلاثة المشهورون : شوقى وحافظ ومطران فكانوا فى بعض شعرهم أنانيين ، ثم كانوا وطنيين ، ثم كانوا إنسانيين . والإنسان إذا رقى كان كالطبيب الراقى ، يعالج المريض بقطع النظر عن أنه فقير أوغنى ،

مسلم أو يهودى أو نصرانى ، لا ينظر إليه إلا على أنه إنسان مريض . بل قد يتعدى بعضهم الإنسانية ، فتتعدى رحمته القطة والكلب والضفدعة . وكان رسول الله يقبل الطفل الحديث العهد بالولادة ، والثمرة الناضجة الحديثة العهد بالسقوط ، ويقول « إنها قريبة العهد بربها » . ولو تجرد الناس كلهم من ضيق الأفق لرأيت عالماً غير هذا العالم : عالماً لا حرب فيه ، ولا إجرام ، ولا وطنية ، بل هى إنسانية وعالمية تحل محل الوطنية ، ولا مستعمر ، بل كل من فيه إخوان ، يأخذ فيه القوى بيد الضعيف حتى يقوى ، والعالم بيد الجاهل ، حتى يعلم .

(٣) الصـــداقة

الظاهر أن أساسها تناسب المزاج ، وأعنى بتناسب المزاج غير وحدته . فقد يكون المزاجان متناسبين ، وهما مختلفان ، كأن يكون أحد الصديقين قوى الشخصيــة ، والآخر ضعيفها ، فكلٌ يرى أن الآخر يكمل نفسه ولو كانا قويى الشخصية أو ضعيفيها لتنافرا .

بل أعلم أنه فى كثير من الأحيان تسوء العائلة ويكثر الشقاق ، لأن كلا من الزوجين قوى الشخصية أو ضعيفها ، ولو اختلفا فى الشخصية لاتفقا . وأحياناً يكون أساس الصداقة وحدة الغرض ، نبيلا كان أم خسيساً ، فقد يصطحبان على الــكأس ، وقد يصطحبان لخدمة معينة للوطن ، أو لخدمـــة علمية كما فعل إخوان الصفا .

ويلعب لعباً كبيراً فى هذه الصداقة القدر ، فقد يتصادق اثنان لأنهما تقابلا فى قطار ، أو تكلما فى وليمة ، أو نحو ذلك ، وكانا لا يتصادقان لو لم يحدث هــذا الحادث المفاجئ .

ويعمل عملا كبيراً فى الصداقة مركزهما الاجتماعى ، كأن يكون مركز الاثنين رفيعاً أو وسطاً أو وضيعاً .

ونجد فى هذه الحياة أحياناً رفيع المنصب يصادق وضيعه ولــكنها ليست الصداقة الحقيقية بل إن الأول يصادق الثانى كخادم له ، والثـانى يصادق الأول اعتزازاً بصداقة كبير يفتخر به ، أو كان الاثنان متصادقين فى الصبا ثم اختلفا فى المنصب ، وبقيت الصداقة .

ونلاحظ أن الصداقة على أنواع : فقد يكفى فى تــكوينها وقوع للنظر على

النظر ، أو المحادثة من أول كلمة ، فتكون كشعلة النار ، تلتهب التهابا سريعاً . وقد تكون الصداقة متكوّنة على طول الزمن ، وربما كانت هذه أحسن .

وهناك أشخاص نمت عندهم قوّة الصداقة ، فهم سرعان ما يصادقون ، وهناك أناس حذرون قلما يصادقون . ولكن والحق يقال ، إن هؤلاء الحذرين الذين لا يصادقون إلا بعد طول أناة وكثرة تجربة أقدر على الصداقة الحارّة .

ويجب أن يدقق فى التفرقة بين المعارف والأصدقاء . فكثير هم الذين نعرفهم وقليل جداً هم الذين نصادقهم .

وكثيراً ما يفسد الصداقة سوء الظن ، أو سوء التفاهم ، أو تغير الحال ، كمن كان ضعيفاً ثم قوى ، أو قويا ثم ضعف . ومن أغرب ما يضعف الصداقة أن تكون الصداقة مبنية على العقل لا على العاطفة . ويعجبنى قول الشاعر :

ليس يستحسن فى شرع الهوى　　　عاشق يحسن تأليف الحجج

بنى الحب على الجور فلو　　　أنصف المحبوب فيه لسمج

وأسوأ ما يفسد الصداقة أنانية أحد الصديقين ، فهو يريد أن يعامل صديقه معاملة السيد لعبده ، فهو دائماً يتحكم فى صديقه ، فيما يأكل وما لا يأكل ، وفيما يرى فى السينما وفى التمثيل وما لا يرى ، وفيما يفعله فى النزهة والرياضة وما لا يفعل ، وليس يسمح لصديقه أن يتحكم مرّة واحدة فى حياته .

وعلاقة الصداقة الطيبة ارتياح الصديق لصديقه ، والاطمئنان إليه ، وعدّ ساعات الوصال أسعد من الاجتماع بآلاف المعارف . ثم يشعر الصديق بما يشعر به المحبّ من لذة الوصال وألم الفراق ، لا أن يتركه لمجرد المصادفة ، يهش حين يراه ، ولا يذكره حين يغيب عنه .

ومما يلاحظ أن من أكبر أسباب الألفة وجود النفس المرحة فى الصديقين

أو أحدهما فذلك يضفى على الصداقة سروراً و بهجة ، و يجعلها كالحديقة الناضرة أو المصباح المضيء .

إذا تمت هـذه الصداقة ، سهل على الصديق أن يؤثر فى صديقه حتى ليتحقق ما يقول أرسطو : « الصديق هو أنت إلا أنه غيرك » . وصدق العرب إذ جعلوا أنه يمكنك أن تعرف الشخص من صـديقه : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

آه ، ما أكثر أسفى لو فقدت صديقى ، وما أكثر فرحى لو عثرت على صديق بمعنى الـكلمة . ولـكن تمر الأيام و يفقد بعض الأصدقاء ، و يقل تقويم بعضهم .

وما الحياة بلا صديق ؟ ؟ إنها عيش فى صحراء ، أو حمام ناعم بلا ماء .

(٤) الملكية والجمهورية

يتحدث الناس كثيراً هذه الأيام فى الملكية والجمهورية : أيهما خير ، وقبلنا درس الناس هذا الموضوع وأشبعوه دراسة . درسه الفرنسيون عقب الثورة الفرنسية ووصلوا من دراسته إلى تقرير الجمهورية ، ودرسه كثير من ممالك أوروبا ووصلوا إلى هذه النتيجة ، ودرسه الأتراك عقب ثورتهم ، و بحثوا فى الخلافة طويلا وقرروا بقاء الخلافة ، ثم أزالوها وقرروا الجمهورية ، ودرسه السوريون واللبنانيون وقرروا الجمهورية . فنرى من هذا أن الدراسات العميقة تنتج الجمهورية . وكان الشأن كذلك فى أمريكا . ولا نعرف أمة درست وفضلت الملكية إلا انجلترا ، و بعض ممالك أخرى قليلة ، فلماذا وصلوا إلى هذه النتيجة ؟

رأوا بعد الدرس أن الملكية تصطحب دائماً بمفاسد . فكل ملك عادة يحيط نفسه بحاشية يستخدمها فى جمع الثروة ، والدعوة لعظمته والإيقاع بمن يخرج عن إرادته بشتى الوسائل . وفى عصرى أنا شاهدت أربعة كانوا على هذا المنوال ، وطالما صرخ السيد جمال الدين الأفغانى من حاشية إسماعيل وتوفيق ، ونصح توفيقاً بتغيير حاشيته فى الصحف والمجلات وفى أحاديثه الخاصة والعامة ، فلم يفلح ، ذلك لأن الملكية عادة تشعر صاحبها بالسلطة وهو يرى أن السبيل إلى السلطة ممهدة له ، ففى يده الجند ، وفى يده المال ، وفى يده جميع السلطات ، وهذه كلها تستدعى الغرور ، والإمعان فى الظلم :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

لذلك كله تتعمق سلطته ، وتتسع عظمته ، حتى لا يمكن إخراجه إذا ظلم ، إلا بثورة أو شبهها ، لذلك كره الناس الملكية ، وفضّلوا عليها الجمهورية . وحتى العثمانيون فى ثورة مصطفى كمال أبقوا السلطان عبد الحميد لاعتبارات عدة ، أهمها أن بقاء الخلافة يربط بينها و بين العالم الإسلامى كله رباطاً وثيقاً ، فلما رأوه يدس

لهم الدسائس ويعمل ليسترد سلطانه ، ورأوه يمهد السبيل لعودة الاستبداد ، وغير ذلك ، ضحوا بما تنتجه الخلافة من رباط ، وألغوا الخلافة ، وعادوا فقرروا الجمهورية .

ومما جعل الناس يفضلون الجمهورية أن الرئيس زمنه محدود بسنتين أو ثلاث ، فإذا أساء أمكن اختيار غيره بعد احتمال رذائله . أما الملك فلا يحدّ مظالمه إلا القدر بموته ، أو الثورة بانتزاعه . هذا إلى أن رئيس الجمهورية نفسه يعلم أنه مؤقت بالزمن وأنه مضطر إذا أراد تجديد زمنه أن يحاسن الشعب ، ويسير فيه سيرة مرضية . وإنما حمل انجلترا على اختيار الملكية أنها أرادت أن تحافظ على الشكل مراعاة لتقاليدها ، وتكون جمهورية فى واقع الأمر ، فالسلطان هو للبرلمان لا للملك ، واخترعوا العبارة المألوفة « الملك يملك ولا يحكم » وجروا على ذلك وطبقوه تطبيقاً دقيقاً ، فانجلترا ملكية ، والملك فيها كلا ملك .

وضرر آخر وهو أن المستعمرين عادة يفضلون الملكية فى المستعمرات على الجمهورية ، فيفضلون ملكا لمصر ، وبايا لتونس ، وسلطاناً لمراكش إلى آخره . والسبب فى ذلك أنهم رأوا من الصعب أن يخضعوا الشعوب مباشرة ، إنما يسهل عليهم أن يخضعوها بواسطة الملوك . فمن السهل على المستعمرين أن يخضعوا الملك ومن السهل على ملك الشعب أن يخضعه ، ولذلك كان أحبّ إلى الإنجليز والفرنسيين أن يروا فى الشرق ملوكا لا جمهوريات .

قد يقال : إن الملك إذا كان صغيراً أو اختير من العائلة المالكة فأحسن الاختيار ، لم يكن منه ضرر . ولكن الزمان يكبر الصغير ، والحاشية تفسد الصالح ، فما لنا نعقد العقدة ثم نحاول فكها ، فخير لنا ألا نعقد ولا نفكّ .

(٥) البقاء للأصلح

من رأيي أن العالم يتقدم دائماً من وقت أن خلقه الله ، وأن الأنبياء جاءوا بشرائع مختلفة وفقاً لتقـدم الإنسان — قد تتخلف بعض المرافق ، وتتخلف بعض الأخلاق ، وتتخلف بعض الأمم في العالم ، بل قـد تفنى ، ولـكن العالم كـكل يتقدم دائماً . ومن أغرب الأمر أن ساسة بعض الأمم لا يريدون أن يفهموا ذلك . فهم يريدون أن يعاملوا الأمم اليوم ، كمعاملتهم بالأمس . ولـكن لا بد أن ينهزموا ، لأنهم كلسان في البحر ، تأكله المياه من كل جانب ، يوما بعد يوم ، ولأنهم نشاز في الطبيعة . انظر مثلا مسألة الاستعمار ، فقد أصبحت غير متفقة مع الزمان ، لأن المستعمَرين فهموا حقوقهم أكثر مما كان يفهمها آباؤهم ، وأصبحوا يضحون بدمائهم وأنفسهم وأموالهم ، أكثر مما كانوا يضحون . ولـكن أين ذلك وعقول الساسة المستعمِرين ؟ لقد أخذتهم العزة بالإثم ، وخجلوا مما لا يخجل منه : خجلوا من أن يقولوا لأممهم ، إن الاستعمار أصبح لا يناسب الزمان ، فاستمروا في غلوائهم ، لا الأمم المستعمَرة تعـدل عن المطالبة بحقوقها ، ولا الأمم المستعمِرة تعدل عن اسـتعمارها ولا بد من ضحايا كثيرة ، حتى يفهم المستعمرون ما لم يفهموه إلى اليوم . ها هي فرنسا تمعن في عدوانها في تونس والجزائر ومراكش ، وتعتز بقنابلها . والقنابل وإن عملت في الأجسام ، لا تعمل في الأرواح . وما ذنب أمة تحاول أن تعيش ، وتقدر الحرية وتطالب بحقها في الحياة السعيدة ؟ ولـكن بدل أن يقابل ذلك بالتشجيع تقابله فرنسا « نصيرة الحرية » بالحديد والنار ، وتصيح بملء فمها : هذه مسألة داخلية بيني و بين المغرب ، لا يحق لـكائن من كان أن يتدخل فيها ، كأن الظلم لا يصح أن يرتفع صوت أحد في استنكاره . وتسقط وزارة فرنسية ، وتقوم أخرى ، فتظل سياستها على حالها ، ولا يرتفع صوت أحد في إنجاد هؤلاء المظلومين ، كأنهم يستحقون العذاب

لأنهم مسلمون . ولو كان مكانهم نصارى لارتفعت أصوات السخط من كل جانب ، كما ارتفعت من قبل يوم تسلط الأتراك على اليونان ، أو كما تسلط العراق على الأرمن . فالحروب الصليبية لا تزال كامنة فى النفوس ، لم يزلها تقدم الزمن ، ولا انتشار الثقافة .

وهذه انجلترا تعامل مصر و إيران معاملة الأسياد للعبيد ، لا تريد أن تتخلى عن بلد ، ولا تعترف بحقوقها . وتعرضان شتى الحلول ، فلا يقبل منهما حل . وقد علّمت انجلترا الأحداث أن الزمان يخدمها أكثر مما يضرها . ولكن هذا الزمان الذى كان يخدم ، أصبح لا يخدم . والمشكلة باقية ، والزمان يعقدها . ولا نجاة حالا أو مستقبلا إلا بتغير عقلية الساسة ، ومسايرة الزمان .

وهذه أمريكا لا تزال تضطهد الملوّنين كأنهم عنصر من غير الإنسان ، لا تعترف بحقوقهم ، ولا تعاملهم معاملة البيض على السواء . والأمثلة على ذلك كثيرة . فهم يحاولون تدوير عجلة الزمن إلى الوراء . ومحال ذلك .

والحكيم من عرف مقتضيات الأحوال ، وأحكام الزمان ، فسار وفقها لا ضدها . كالذى يعرف التيار فيسير معه ، ولا يسير ضده . وإذا كان الزمان قد حقق آمال بعض الأمم ، فلا بد أن يحقق آمالا أخرى .

إن الذى طاح بالملوك السابقين أنهم لم يفهموا الزمان ولا مقتضيات الأحوال وعاكسوا التيار بكل قوة ، فلم تغن عنهم قوتهم شيئاً . وأصبح الملوك الباقون هم الذين يملكون ولا يحكمون . والعاقل النبيه إذا سئل عن أمر هل سيتحقق أو لا يتحقق ، قرأ القانون الماضى ، ونظر : هل هذا ينتج عنه تقدم العالم أو لا ينتج ، فإن كان الأول حكم بأنه يحدث قريباً أو بعيداً ، وإلا لم يحدث . والسخيف يعتقد أنه إنما يحكم بذلك بناء على تنجيم أو ولاية أو نحو ذلك .

ولئن قال القدماء : إن التاريخ يعيد نفسه ، فهو إنما يعيدها لا بالطبعة القديمة ، و إنما يعيدها طبعة منقحة حسب مقتضيات الزمان . ومن أجل ذلك شرّع كل

قانون قابل البقاء بابا يبقى مفتوحا إلى الأبد ، وهو باب مسايرة الزمن ، ومقابلة الجديد من الأحداث . تسميه بعض المذاهب اجتهاداً و بعض المذاهب مصالح مرسلة ، و بعض المذاهب استحساناً ، والكل شيء واحد . أما القوانين التى تجمد على القديم ، وتقول فى كل حادثة : القديم على قدمه ، لا يمكن أن تبقى .

كم جاهدت الأمم فى الشرق والغرب ضد الاستبداد ، وضد المصادرات ، وضد العبث بالأنفس والأموال ، وكم لاقت من العناء فى سبيل هذا الجهاد ، ثم انتصر أخيراً الحق . وعبر دارون عن ذلك بقوله « البقاء للأصلح » . فانظر فى كل مشكلة من المشاكل يجاهد الناس فيها ، وتختلف آراؤهم واحكم بأن الصالح هو الذى سيبقى . وفى القرآن الكريم « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث الأرض » .

(٦) مثل أعلى أخلاقى

قد تحيرت فى عمل الفلاح ، تحوّل قناته من غيطه إلى غيط آخر ، فيتنازع و يتخاصم ، وقد يؤدى ذلك إلى قتل . ولكن قد يذله العمدة أو شيخ البلد فيمرغه فى التراب ، وقد يفعل المأمور بالعمدة ذلك فلا يتحركان ولا ينبسان بكلمة .

هكذا قال صاحبى . وزاد على فقال : أليس عجيباً أن نرى أهل البلد يتحملون ظلم حكومة سنتين أو أكثر فلا يحركون ساكناً ولا يثورون على هذه الحكومة ، ولم نسمع مرة أن برلمانا يمثل الأمة أسقط حكومة من الحكومات أو صوت ضدها ، لأنها أتت عملا سيئاً ، وتصرفت تصرفا ظالماً ، مع كثرة ما تأتى به من الأعمال السيئة الظالمة . ؟

قلت إن المصريين فى أشد الحاجة إلى زعيم يزيد شعورهم بالعدالة ، و يبلور أفكارهم ومشاعرهم ، حتى يتأثروا بها تأثرهم بقطع الماء عن مزارعهم .

لقد نجح المرحوم النقراشى باشا فى باورة الغرض السياسىّ للأمة وهو الجلاء ووحدة وادى النيل ، فكان ذلك على كل لسان حتى الأطفال فى ألعابهم ، والمغنين فى أغانيهم ، والمذيعين فى إذاعتهم . وكان على لسان الشيوخ والشبان والرجال والنساء . ونحن أحوج ما نكون إلى زعيم يبلور لنا مثلنا الأعلى الأخلاقى ، فيقول مثلا : إن غرض الأمة العدالة والنظام ، يجريها على لسانه فتجرى على لسان كل أحد . إذ ذاك لا يجرؤ أحد أن يظلم ، ولا يطيق أحد أن يصبر على ظلم .

ثم يأتى من الأفعال و يضع من الأنظمة ما يحقق العدل زمناً طويلا ، حتى

يألفه الناس ، و يثوروا على الظالم وظلمه . وليست تفلح أمة شعورها متبلد ، بل هى تهتف للظالم فلا يجد ما يصده عن ظلمه .

إذ ذاك يخاف العمدة من أن يظلم الفلاح ، و يخاف المأمور أن يظلم العمدة ، و يخاف المدير أن يظلم المآمير ، وتخاف الحكومة بأسرها إذا ظلمت أحداً ، لأنها تشعر أن الرأى العام قوى الشعور بالعدالة ، لا يحتمل أى ظلم . والحكومة لا تعدل إلا إذا خافت .

(٧) إذا بطل العجب انتهت الحياة

كل ما يمكنك أن تدركه من فرق بين الذكى الألمعى والغبى ، هو كثرة العجب عند الأول وقلته عند الثانى .

إن الأول يرى فى كل شىء ولو صغيراً مدعاة للعجب ، يعجب من السيارة مثلا ، ولكن يرى أنه أعجب منها حركة الرجل فى السير ، ويعجب من الراديو ولكن يرى أنه أعجب منه حاسة الشم . إنه يرى الكون كله مملوءاً بالعجائب حتى الذرة فى تكوينها ، والنملة فى معيشتها ، ولذلك بنت الأديان كلها الدعوة إلى الإيمان على ما فى الكون من عجائب ، ريح تهب وسحاب يجرى ومطر ينهمر . ولو دققنا النظر لرأينا أكثر الكلمات تحمل عجائب لا تنتهى .

انظر مثلا إلى كلمة « نما الزرع » كيف تحولت الحبة إلى النبات ، وكيف تحولت البذرة إلى شجرة ، وكيف اختلفت الأشجار وكلها تسقى بماء واحد . كل هذا يستخرج العجب من البصير ، فإذا انتهى العجب دل ذلك على أن الإنسان فقد حياته . ألا ترى الطفل يبدأ بالأسئلة الكثيرة نتيجة للعجب الكثير ، فإذا أدركه الهرم زال عجبه فزالت حياته .

أكتب هذا وأنا أرى البحر وتموجاته ، والرياح ولعبها بالأمواج ، والسحابة تسوقها الريح حيث تشاء .

اللهم زدنى عجباً أزدد حياة .

(٨) برلمان النفس

هممت هذه الأيام بعمل خطير ، ثم راقبت نفسى ماذا تصنع ، فإذا فيها برلمان داخلى كأدق أنواع البرلمانات وأنظمها . فقد بدأت تتحرك الرغبة أولاً ، وقامت تخطب وتبدى حججها فى فصاحة و بلاغة ، والكل يُصغى إليها ، ولم تطل فى الحديث عما تشاء اعتماداً على قوتها وعظمتها ، ثم جلست فى زهو و إعجاب . فوقف الضمير يعارضها ، و يبدى عدم ارتياحه لطلباتها ، مقتصراً على ما ينشأ عن هذه الرغبة من آلام . ثم وقف العقل ، وقد وجدته أحياناً ترشوه الرغبة فيتكلم فى مصلحتها و يدافع عن اتجاهاتها ، ثم لاحظت أن الخوف يقف محذراً من تنفيذ طلباتها ، منذراً بنتيجة عملها ، مخوفاً النفس والبدن من نتائجها . ورأيت بعد ذلك الخيال يحلق فى الجو فيصور النتائج للعمل الذى تريده الرغبة نتائج جميلة أحياناً ، وقبيحة أحياناً أخرى ، وهو بهذا العمل يشجع أو يخذل . وأحياناً يسيطر الحب على الموقف فيؤيد الرغبة تأييداً جامحاً ، ثم بعد ذلك لا يسمع لعقل ولا لخوف ، وأحياناً لا يكون للحب موقف فى الأمر ، ولكن تكون السيطرة للإباء والأنفة ، فتعقد النفس عن تنفيذ الرغبة . ثم رأيت أن هذا البرلمان تارة يثور فيطيح بكل العوامل الأخرى و ينفذ الرغبة مهما كانت النتائج ، وأحياناً يكون برلماناً هادئاً يصغى فيه إلى كل الأصوات إصغاء تاماً ، سواء فى ذلك المؤيدون والمعارضون ، ثم تؤخذ الأصوات ، والحكم بعد ذلك للأغلبية . وهو برلمان ثائر أحياناً هادئ أحيانا ، يتكلم فيه المتكلمون بتؤدة وهدوء أحياناً ، و بخروج عن اللياقة أحياناً . وأيا ما كان فهو برلمان بكل معنى الكلمة ، يصور صورة صادقة للبرلمان الخارجى من مؤامرات ودسائس وألاعيب وخداع وكل ما يحدث فى الخارج . ومن العجب أن تاريخ هذا البرلمان قديم ، كان من عهد آدم ولم يلتفت الناس إلى تقليده إلا من عهد قريب ، وحتى إلى الآن لم يتقنوا اتقانه وغابت عنهم بعض معانيه .

(٩) حوض اللذة

يعجبنى تعبير انجليزى لا أعرف له نظيراً فى اللغة العربية ، وهو ما يمكننا أن نترجمه بـ (حوض اللذة) ، و يعنون به استعداد النفس للذة .

والذى ألاحظه أن حوض اللذة على حد تعبيرهم واسع عند الطفل والجاهل ، ضيق عند الكبير والعالم ؛ فالطفل يتلذذ جداً بقطعة من الحلوى و بالثوب الجديد . وقد شاهدت ذلك فى نفسى ، فكنت كثير اللذة بفطيرة آكلها فى الصباح ، و بشجرة بجوار ساقية أجلس تحتها ، وأقرأ وأغنى ببعض القصائد و يعجبنى صوتى إذا غنيت ، وأفرح جداً بقرش يعطينيه أبى ، و بمائة وخمسين قرشاً تعطينيها مدرستى كل شهر ، و يعجبنى منظر البحر إذا رأيته ، ومنظر الجبل إذا مشيت فيه ، وأتلذذ جداً من كتاب أشتريه ، وأفرح برمضان إذا أتى ، و بالعيد إذا أقبل ، وأحتفل لهما كل الاحتفال ...

وهكذا الجاهل « واسع حوض اللذة » ؛ فهو يتلذذ من أكلة فخمة ، ومن ثوب جديد ، ومن نكتة رائعة ، وكل اهتمامه بجنيه يربحه ثم ينفقه ، و ببيت يشتريه ، و بأكلة يأكلها و بثوب يلبسه . وكلما رقى الإنسان وكثر علمه وارتقت ثقافته وكثر تأمله ضاق حوض اللذة عنده ، فلا ترضيه أكلة ، ولا يلذه منظر . والمتنبى يعبر عن ذلك بقوله :

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة ؟ وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يسمى

وأوضح من ذلك ما قاله :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وها أنذا لما كبرت ضاق عندى حوض اللذة جداً ، فإذا ربحت مائة جنيه لم أتلذذ منها لذتى بالقرش الذى كان يعطينيه أبى ، وإذا نظرت إلى منظر طبيعى

لم أتلذذ منه كما كنت أتلذذ فى الماضى ، و إذا نظرت إلى رواية تمثيلية أو رواية سينمائية لم أتلذذ منها كما كنت أتلذذ أيام شبابى ؛ فالطفولة والشباب كانا يضفيان على كل شيء ، مما يجعلنا نتلذذ أكبر لذة ونحتمل الألم فى ثبات ، فلما زال الشباب زال كل شيء . وصدق الشاعر إذ يقول :

ما كنت أوفى شبابى كنه عزته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

ولذلك نرى الشباب يضحك من كل شيء ، ويسر من كل شيء ، وسبب ذلك ما قلنا : من أن حوض اللذة عندهم واسع ، فإذا انقضى ضاق حوض اللذة ، فلم يضحكوا كما كانوا يضحكون ، ولم يطربوا كما كانوا يطربون .

ولست أدرى ، أخير الناس من ضاق حوضه أم من اتسع حوضه ! أما أرسطو فكان يفضل الإنسان الحزين على الإنسان المرح ، ولذلك كان يفضل المأساة على الملهاة .

أما أنا فقد أوافق أرسطو فى أن الحزين أنفع للناس ، وأكبر خيراً و إفادة ، ولذلك كان أكثر المصلحين من أكثر الناس حزناً ، يحز فى نفوسهم ما يرونه من ضلال الناس وفسادهم وظلمهم ، و يعملون جاهدين على إصلاحهم وتقويم معوجهم، ولو أداهم ذلك إلى الموت . ولكن هؤلاء الحزناء شر على أنفسهم ، فهم دائماً قلقون حائرون مضطربون . فلئن دعوت لنفسى دعوة صادقة ، فإنى أسأل الله أن يوسع حوض لذتى .

(١٠) التأقــــلم

يظهر أن التأقلم قانون طبيعي فى كل الأشياء جمادها ونباتها وحيوانها ؛ فإذا أنت صببتَ ماء حارًّا على ماء بارد ، حارًا واضطربا ، حتى يتأقلما فيأخذ الحار من البارد بعض برودته ، ويأخذ البارد من الحار بعض حرارته .

وإذا أنت نقلت نباتاً من نباتات البلاد الحارة إلى أرض معتدلة الجو حار كذلك واضطرب ، واحتاج إلى مدة حتى يتأقلم ويعدل نفسه وفق الجو الجديد ، والحيوان المتوحش الذى يعيش فى الصحراء يحتاج إلى مدة طويلة حتى يتأقلم فيستأنس .

والإنسان كذلك يعيش فى وسط غير وسطه الأول فيحار ويضطرب حتى يعدل نفسه وفق الوسط الجديد ، وما فرحه بالمولود الجديد وحزنه على الولد الفقيد إلا مظهر من هذا التأقلم ، لقد عاش وفكره غير مشغول بالولد حتى إذا رزق الولد احتاج إلى زمن يتأقلم فيه حتى يواجه حياة الآباء ، وفى الحالة الثانية عاش على فكرة الولد ، فإذا زال حزن ، لأنه غيّر ما اعتادته غددُ فكرِه ، واحتاج إلى زمن حتى يتأقلم فيعتاد فقدان الولد .

وكذلك الشأن فى الأمم ، تحتاج الأمة المتبدية إلى زمن تتأقلم فيه حتى تتحضر وقد احتاجت الأمة الإسلامية إلى زمن طويل حتى هضمت المدنية الحديثة وألفتها . والأمة التى انحطت فى حاجة إلى زمن طويل يجهَدُ فيه المصلحون حتى تنصلح ، وهذا هو السر فى ثورة الشباب وجمود الشيوخ ؛ فالشباب لجدته يتقبل الأفكار الحديثة ، والشيوخ لما مرنوا عليه من أفكار يرفضونها . وهكذا فى حال انتقال الإنسان من عاطفة إلى عاطفة ، من حزن إلى فرح ، ومن فرح إلى حزن ،

ومن رغبة إلى رهبة ، ومن رهبة إلى رغبة . وربما كان مما يساعد على سرعة التأقلم مساعدة الجو الجديد ليناسب الشيء القديم ؛ فأنت إذا نقلت شجرة مانجو من الهند الحارة ، فإنه يساعد على تأقلمها أن تحيطها بجو حار من جنس جوها ؛ فإذا أنت عرّضتها لجو شديد البرودة لم تعطها فرصة التأقلم فماتت . وإذا أردت إصلاح أمة فلا تصلحها طفرة ، فإنها إذ ذاك يخشى عليها من الضرر ، ولكن أصلحها تدريجاً وبخطوات متعاقبة ، كلما خطت خطوة أتبعتها بأخرى ؛ ولذلك كان في العادة الإصلاح بالتدريج خيراً من الإصلاح بالثورة .

وربما استحسنوا من أجل ذلك أن يتزوج الغضوب بحليمة ، والمرح برزينة ، والمسرف بالمقترة وهكذا ، لأن هذه الخصال المتناقضة إذا تأقلمت اعتدلت ، فيأخذ الغضوب من حلم الحليمة ، والمرح من رزانة الرزينة وهكذا .

والطبيعة لا تعرف الطفرة ؛ فبعد الظلام الحالك يكون نور الفجر الكاذب والفجر الصادق حتى يعتدل النهار .

ومن الصعب عند مقابلة الشمس بالظل أن تقول إن هذا ظل بحت أو شمس صِرْفة ، فهناك خط بين الظل والشمس ؛ وبين الشتاء والصيف ربيع وخريف يُعدان للانتقال .

(١١) الاستعمار

للاستعمار أنواع كثيرة وأشكال مختلفة ، ولكن أكثره مؤسس على الاقتصاد السياسى ؛ فهو يرمى إلى انتفاع أهل البلاد المستعمِرين ما أمكنهم ذلك ، ولذلك خدمت السياسة الاقتصاد .

والمستعمر فى الغالب يرمى إلى ثلاث مسائل :

الأولى — استغلال أموال أمته فى البلاد المستعمرة ؛ فإذا كان المول يستطيع أن يستغل ماله فى بلده لثلاثين فى المائة مثلا ، وفى البلاد المستعمَرة لأربعين فى المائة وجهها إلى هذه البلاد بحكم قوانين الاقتصاد . والثانية — استغلال المواد الخامة فى الأقطار المستعمَرة كالقطن والحديد والحبوب ونحو ذلك ، مما خلت بلاد المستعمِر منها أو قلت فيها . والثالثة — تصريف المستعمِر بضائعه فى البلاد المستعمَرة ؛ وذلك بصناعة المواد الخامة ثم ترويجها .

هذه هى أهم ما يرمى إليه المستعمِر . وليس الاستعمار فى ذاته شيئاً محبوباً ، لما يلاقيه المستعمِر من المتاعب ، ولكراهية المستعمَر طبيعياً للاستعمار .

ثم تأتى السياسة بعد ذلك فتمهد الطريق لتحقيق هذه المطالب ، فالجنود التى يرسلها المستعمِرون إلى البلاد المستعمَرة إنما هى لحماية هذه الأغراض من الثورات التى تقوم فى البلاد ، أو صدًّا لطموح أمة أخرى تحل محلها .

ولتحقيق هذه الأغراض تتخذ الأمة المستعمِرة وسائل كثيرة لتحقيقها : منها إضعاف روح المستعمَر حتى لا يفهم فيطالب بالاستقلال ، وقد يعتمد فى ذلك على تفريق الأمة بالأحزاب وإيقاع الخلاف بينها ، أو على إفساد أخلاقها بكثرة المسكرات ، واستهوائهم بالفتيات الجميلات اللائى يخدمن الاستعمار ونحو ذلك .

ومنها إضعاف لغة البلاد وتقوية لغتها هى ، علماً منها بأن الناس يميلون إلى القوم الذين يتكلم المستعمَرون لغتهم ، وقد يستهوون المستعمرين بإنشاء مدارس لهم

نموذجية ، حتى يوهموا المواطنين بأن منهجهم خير من مناهج أهل البلاد ، وحتى يشجعوا أهل البلاد بالإقبال عليها . ومنها اختيار الوظائف لمن يثقون بتأييدهم ، والعمل لمصلحتهم ، ومقاومة الوطنيين والزعماء ، و بث الدسائس لسقوطهم فى نظر أمتهم ورميهم بالخيانة . ومنها تقوية الزراعة وتوجيه الناس إليها حتى لا ينافسوهم فى صناعاتهم ، و يفهمونهم بأن بلادهم زراعية لا صناعية . واجتهادهم فى فرض ضرائب كبيرة على المنتجات الوطنية ، حتى تغلوَ أسعارها فتتسع التجارة الأجنبية ، إلى غير ذلك من وسائلَ لا تحصى . وأهم عدو لهم فى ذلك ، الإسلام والمسلمون ، لا اليهود ولا الوثنيون ، لأنهم يعتقدون أن الإسلام يدعو إلى أن تكون بلادُ المسلمين لهم لا لغيرهم ، و يفرض عليهم المقاومة ما أمكنهم ، ولا يصح أن يفرطوا فى أى بلد يدخل فى نطاق دار الإسلام ؛ ولذلك قال أحد الزعماء الفرنسيين : يجب أن نحارب اللغة العربيــة لأنها وسيلة لتعليم القرآن ، والقرآن يأمر بالجهاد فى سبيل الاستقلال .

نعم ، إن بعض الاستعمار ليس القصدَ منه الاستغلال ، و إنما القصد المحافظة على الطرق الحربية ، كاحتلال الإنجليز لجبل طارق ، ولو لم يكسبوا منه مادياً ، ولـكن ذلك قليل بجانب ما أسلفنا من أسباب الاستعمار .

إذا علمنا ذلك أمكننا أن نعرف كل داء فنعالجه بدوائه لا بشىء آخر ؛ فعلاج توظيف رءوس الأموال الأجنبية إنمـا هو مقاومتها بتوظيف الأموال الوطنية ، وفرض استخدام عددٍ معين بنســبة مئوية من المواطنين على الشركات الأجنبية . والاجتهاد فى تشجيع المنتجات الوطنية ومقاومة المواد الأجنبية .

ومن وسائل الشركات الأجنبية الماكرة ، التهرب من قوانين البلاد والتستر وراء مواطن يحتمون باسمه ، و يتهربون من الواجبات تحت ستار منه ، والأمثلة على ذلك كثيرة . ومن وسائلهم أيضاً فى ذلك ، استخدام ذوى النفوذ من المواطنين ليحتموا بهم و يحققوا لهم أغراضهم .

وعلاج استخدام المواد الخامة فى البلاد ، هو منعها قدر الإمكان من أن تصل إلى الأجانب ، وتوسيع المصانع الوطنية التى تستخدم خامات المواطنين .

وعلاج ترويج الصناعات الأجنبية إعلاء الجمارك والضرائب عليها ، حتى تكون أثمان السلع الوطنية أقل من أثمان السلع الأجنبية فيقبل الناس عليها ، والاجتهاد فى تحسين المصنوعات الوطنية حتى تفوق أو تقارب الصناعات الأجنبية ، وهكذا .

وإذا علمنا ذلك أيضاً ، أمكننا أن نفهم سخافة مقاومة الاستعمار بكسر فوانيس الشوارع أو إحراق الترام أو إضراب المدارس ، إلا أن يكون ذلك علامة على بغض الاستعمار وإظهاراً للعواطف الثائرة أو نحو ذلك ؛ فهذا علاج لا يقابل الداء .

والعلاج الصحيح الذى ذكرنا يحتاج إلى ثقافة فى أساليب الاستعمار واسعة ، وتنبيهٍ شديد للوعى القومى ، حتى يدركوا صحة موقفهم ، ويدركوا كيف يعملون لمقاومة خصومهم ؛ ومتى أدرك المستعمِر أنه لا يستطيع تحقيق أغراضه لم يعد يرى أن للاستعمار فائدة فانسحب بسلام ؛ وهذه كانت طريقة غاندى وأمثاله التى ترتب عليها انسحاب الإنجليز من الهند . والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

هذه نظرة الذوق الفطرى للاستعمار ، ولا بد أن يكون عند المختصين فى الاقتصاد والسياسة ما هو أدق من ذلك وأوسع .

(١٢) هل الحق حق حيث كان ؟

ذهب الأستاذ الفاضل نقولا الحداد فى نقده لكتابى (هارون الرشيد) إلى أن الحق حق حيث كان فى كل زمان ومكان ، والباطل باطل كذلك حيث كان ومؤاخذة الناس على الحق والباطل واحدة فى كل العصور . ولست أرى هذا الرأى . فقد أوافقه على أن الحق والباطل حقائق مجردة فى كل زمان ومكان ، لا يتغيران بتغير الأشخاص ، ولكنى أخالفه فى مؤاخذة الناس عليهما مهما تغيرت البيئة . فالمؤاخذة إنما تكون بمقدار تقدير الناس للحق والباطل وفهمها . هؤلاء المصريون من عهد قريب كان نساؤهم يتحجبن وكان الرجال يرون أن الحجاب فضيلة ، ثم سفرْن فرأى الرجال أن السفور فضيلة ، والحجاب رذيلة . والمصريون عادة أقل تقديراً للصدق والأمانة من الإنجليز والألمان ، فيجب أن نؤاخذ المصريين عليهما أقل مما نؤاخذ الألمان والإنجليز . والمصريون يقدرون العفة أكثر مما يقدرها الألمان والإنجليز ، وليست المسئولية على هؤلاء وهؤلاء واحدة . بل إن الأمة الواحدة قد يختلف تقديرها للفضيلة بحسب المكان ، فلا تكون المؤاخذة واحدة ؛ فالغيرة فى الصعيد أكثر منها فى البحيرة ، فإذا قتل الصعيدى زوجته أو أخته غيرة لم يؤاخذ كما يؤاخذ البحيرى . والقضاة يعلمون ذلك ، فيفرقون فى الحكم بينهما . ولا يقدر الإنجليز والفرنسيون الغيرة كما يقدرها الصعايدة والبحاروة ، و بذلك تختلف قوة المؤاخذة . والطفل أو الشاب إذا ارتكب جريمة خصوصاً فى الجرائم التى تدفع إليها الشهوات أو قوة الشعور لم يؤاخذ عادة كما يؤاخذ الشيخ المسن ، الذى كثرت تجاربه وضعفت مشاعره . وهكذا من آلاف الأمثلة . فهل يريد الأستاذ أن يؤاخذ الناس الرشيد وهو فى عصر لم يكن الناس فيه يعرفون حق الحياة وحق الحرية ، كما نؤاخذ من تعدى عليهما اليوم ؟ إن ذلك والحق يقال يكون جرماً فظيعاً . ومن أجل هذا شرّع فى القوانين الحديثة تقدير الظروف التى ارتكب

فيها المجرم إجرامه . وليس من الحق أن نكلف عامة الشعب أو عامة الشعوب فوق طاقتها ، فنحملها مسئولية مالم تفهم وما لم تقدر ، وإن كان الحق حقاً فى ذاته ، والباطل باطلا فى ذاته . بل إن عوامل الفصول المختلفة تجعل الإجرام فى فصل أشد من الإجرام فى فصل آخر ، فالفقير إذا اشتد به الجوع وسرق رغيفاً فى الأيام القاسية البرد كان أخف جرماً من غنى سرق رغيفاً فى أيام الصيف ، وعمر بن الخطاب لم يوقع الحد على فقير سرق ناقة وقد اشتد به الجوع ، ولم يوقع حد الشرب على أبى محجن الثقفى لأنه أبلى فى الحروب بلاء حسناً ، وأوقف الحدود كلها فى أيام الحرب لما رأى أن بعض من وجب عليه الحد يفر إلى بلاد الأعداء . أفبعد هذا كله يصر الأستاذ على أن المسئولية فى جميع العصور والأمكنة واحدة لا تتغير ؟

الحق فيما أرى أنها تتغير قوة وضعفاً ، وأن الرشيد لو ارتكب نكبة البرامكة اليوم لكانت مسئوليته أشد ، ولو ارتكبها فى انجلترا أو ألمانيا كانت مسئوليته أكبر مما إذا ارتكبها فى مصر أو بغداد . لأنهم هناك يقدرون الأمور ويعرفون الحقوق أكثر مما نعرف ونقدر .

هذا ما أرى وللأستاذ رأيه . فإما أن يرجع إلى الحق حسب ما أرى ، وإما أن يصر على رأيه . ولكل وجهة هو موليها . وأشكره أخيراً كما شكرته أولا على حسن تقديره للكتاب .

(١٣) الإنسان حيوان محارب

عالج بعض الفلاسفة الحرب ودعوا إلى السلم ، وجاءت الأديان من نصرانية وإسلام تحبذ السلم ، ودعا إلى ذلك بعض فلاسفة اليونان و بعض قياصرة الرومان ، ولكن العقبة الوحيدة كانت غريزة الإنسان التى تحب الحرب وتكره السلم . ويظهر أنها وراثة من وراثات الحيوانات المتوحشة التي كانت هى أصل الإنسان ، حتى أصبحت الأديان التي تدعو إلى السلام كذلك مظهر حرب . ولم يكتف الإنسان بالحرب فى ميادين القتال ، بل قاتل فى التجارة والصناعة . ولم يكتفوا فى لعب الأولاد بلعب السلام ، بل أتوهم بلعب الحرب أيضاً .

وليس الجدال فى المجالس إلا نوعاً من أنواع الحرب . وكذلك المناظرات والتسابق على الأولية فى المدارس والجامعات . وكما نرى آثار الحرب ظاهرة بين الإنسان والإنسان ، فهى كذلك ظاهرة بين الحيوانات ، فالدنيا كلها حرب حتى ظواهرها الطبيعية فلو قلنا إن الإنسان محارب بطبعه لم نبعد . ولسنا نصل إلى السلم فيما يظهر إلا بعد أجيال طويلة ، نعدل فيها برامج التربية ، ونقلم فيها أظفار الغرائز الحربية .

(١٤) البتّ والتردد

لو سئلت أن أضع قائمة للفضائل بحسب ترتيبها لعددت البت فى أولها ، وأكره ما أكره التردد . يقدم الرجل رجلا ويؤخر أخرى ، ويقدم ثم يحجم ، ويحجم ثم يقدم ، وتفوت بذلك الفرص وتتعقد الأمور . وكثير من الناجحين فى الحياة إنما نجحوا لبتّهم لا لترددهم . وقد اشتهر العنصر الأنجلوسكسونى بسرعة البت فى الأمور ، ولذلك نجح وفتح واستعمر . وكان العرب يمدحون الفتى بسرعة البت وقوة الحزم ، ويقول قائلهم :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

ويحمل على التردد الهرب من المسئولية ، فإن العمل تصحبه المسئولية دائماً ، فهو يفضل ألا يعمل حتى لا يسأل . وهذا عين ما تقع فيه حكومات الشرق — تتردد حتى لا تسأل ، وتسير على الطريقة المتبعة حتى لا تسأل ، وتسأل دائماً عن السوابق حتى تأمن الخطأ ، ولذلك قل عندها التجديد . وعندى أن البت مع الخطأ خير من التردد مع الصواب .

لماذا كان الدين ؟

لنتصور أمة من الأمم عاش أهلها من غير دين ، لا مساجد ولا كنائس ولا شعائر ، ولا اعتقاد بإله ، ولا بيوم آخر ، ولا اعتقاد فى جزاء : ثواب أو عقاب ، فماذا يكون شأنهم وهل يتصور أن يكونوا سعداء ؟

إنى أتصورهم يعيشون عيشة جافة شقية حتى ولو ساروا فى حياتهم وفق العقل ، لأن أفقهم فى الحياة ضيق محدود بعمرهم القصير .

ثم إن الإنسان مكون من عقل وشعور لا يعيش فى الحياة من دونهما ، وشعوره متأصل فيه أكثر من تأصل العقل ، فهو أحياناً يتصرف فى الأمور حسب عقله من تقدير المنفعة أو المضرة ، وأحياناً يتصرف بشعوره وعواطفه ، كرحمته على أبنائه والتضحية من أجلهم من غير نظر إلى مكافأتهم له فى مستقبل حياته . وهذان العنصران — أعنى العقل والشعور — لا بد لهما فى الحياة من غذاء كغذاء المعدة ، وغذاء العقل العلم ، وغذاء الشعور الدين ، والحياة إذا أسست على العقل والعلم وحدهما كانت حياة خالية من العطف والرحمة والإنسانية وفى ذلك البلاء المبين .

وإذا كان الإنسان قد كون من عنصرين : عقله الذى يتغذى بالعلم ، وشعوره الذى يتغذى بالدين حق لنا أن نقول إن التدين من طبيعة الإنسان كما أن العقل من طبيعته ، ولهذا لازم التدين الإنسان منذ عرف تاريخه فى بدوه وحضره ، فى جميع أقطاره وأقاليمه ، فى رقيه وانحطاطه . فمهما اختلفت تفاصيل الدين ، ومهما تعددت المعابد والشعائر فالإنسان هو الإنسان لا بد له من دين .

والدين يكوّن عنصراً هاماً من عناصر المدنية ، قديمها وحديثها ويؤثر أثراً كبيراً فى حركات كل أمة سواء كانت حركات سياسية أو اجتماعية ، حتى فى المدنية

الحديثة مع إيمانهم التام بالعلم وانطباعها بطابعه لا يزال للدين الأثر البالغ فى منازعها السياسية والاجتماعية ، فعلاقة الأمم النصرانية بعضها ببعض وعلاقتها بغيرها من أهل الأديان الأخرى وفهمها للحقوق والواجبات ومبادئها التى تسيرها فى مجتمعاتها كلها متأثرة بالدين .

ومهما تنازع العلم والدين ودعا بعض الدعاة إلى الإلحاد فإن الدين لا يزال يمس قلوب الناس حتى الملحدين منهم وهم يأبون أن تتخلى قلوبهم عنه لأن هذا هو فطرتهم وطبيعتهم . ومن تجرد من الدين أحس القلق والاضطراب إحساس من شوهت طبيعته .

أساس الدين الإيمان بقوة فوق المادة وفوق أن يدركها العقل ، والإيمان بإله يدبر هذا العالم وينظمه ويكافئ المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته . وفى هذا اتفقت كل الأديان الراقية تقريباً ، وإن اختلفت فى تفاصيلها وشرائعها .

ولقد كان الدين سببا فى قوة الرابطة بين الجماعة المعتنقة دينا واحداً ، فكل جماعة تدين بدين يؤلف بينها الدين ويوفق بين أفرادها ، ويشعرهم بالوحدة ، ويكون أساسا بينهم للترابط والتعاون ، وهذا ولا شك دعامة من دعائم الرقى فى المجتمعات . كذلك كان الأمر فى الديانات القديمة كديانة قدماء المصريين والصينيين والنصرانية والإسلام ، فإذا نحن عددنا الروابط بين الأمة من لغة وجنس وإقليم وجب أن نعد من أهمها رابطة الدين . وكما كانت كل رابطة من هذه الروابط سبباً فى تقدم الجنس البشرى فكذلك كانت رابطة الدين .

ثم إن الدين أهم باعث على الأخلاق ، فهو يدعو إلى الفضائل دعوة حارة ، دعوة ممزوجة بالعواطف ، دعوة مؤسسة على حب الله — قد يدعو العقل والفلسفة والعلم إلى الفضيلة من حيث هى حق ومن حيث هى نافعة ، ولكن دعوة الدين إليها أقوى لأنه يسبغ عليها من روحانياته ويربطها بالثواب فى الدنيا والآخرة ويربط

بينها و بين الضمير ولذلك كانت دعوة الدين إلى الفضيلة مناسبة للخاصة والعامة بينما كانت دعوة الفلاسفة والعلماء للفضيلة لا تناسب إلا الخاصة . ثم إن الفرق بينهما كالفرق بين ما يصدر عن العقل من نظريات علمية هادئة باردة ، وما يصدر عن القلب من حب ممزوج بالحرارة والقوة والحماسة . ولذلك كان أهم التغيرات البشرية على وجه الأرض قد صدر عن الأديان أكثر مما صدر عن الفلاسفة ورجال العلم . بل إن الدين قد أمد الفلاسفة والعلم بروح منه وجعلهما أقرب إلى إدراك الحق والجمال .

الدين هو الذى أنشأ المعابد تهتز فيها قلوب الناس وتتحرك عواطفهم فى لذة واشتياق إلى هذا الإله الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . والدين هو الذى حرك العواطف لإنشاء معاهد البر والإحسان والملاجئ والمستشفيات فخفف بؤس البائسين وعوز المحتاجين ، والدين هو الذى حرك نفوس الفنانين فصاغت عواطفهم أروع الآثار الفنية من مساجد وكنائس ، وهز نفوس الأدباء والشعراء فأنتجوا لنا روائع الأدب الصوفى والشعر الدينى والابتهالات التى تنبض بالعواطف وتسيل عذوبة ورقة . والدين كان عماد التربية والتعليم بفتح المدارس والجامعات ثم كانت الدراسة الدينية باعثة على غيرها من الدراسات . فالدين الإسلامى مثلا خلف ثروة كبيرة فى التأليف و بعث على تدوين كثير من العلوم ، فقد جمع العلماء اللغة العربية محافظة على الدين ، ودرسوا النحو والصرف لتقويم اللسان فى القرآن ووضعوا علوم البلاغة لفهم إعجاز القرآن وهكذا .

والدين هو الذى يتجلى فى أسمى مظاهر الإنسانية ولاسيما فى أوقات الشدائد من عطف على الفقراء ومواساة للجرحى والمنكوبين ومن أصيبوا بزلزال أو بركان أو حريق أو غرق ، إذ ذاك تتحرك النفوس للنجدة يحدوها الدين .

فلنعد ، ولنتصور ما يكون شأن الإنسانية إذا فقدت كل هذه النظم

والمؤسسات والعواطف والمشاعر والأخلاق ، إن العالم بلا دين ، جسم بلا قلب ، ومادة بلا روح ، إنه آلة جوفاء ، إنه قصة فارغة .

نعم قد حدثت فى التاريخ أضرار كثيرة باسم الدين ، كالغلو فى العصبية الدينية ، وما نشأ عنها من اضطهاد وتعذيب وسفك دماء ، وأضرار عقلية كالتى نشأت من الخرافات والأوهام وضيق فى الأفق نشأ عنه اضطهاد العلم والعلماء ، والفلسفة والفلاسفة ، وجمود إلى درجة التحجر ، ولـكن هذه الأضرار ترجع إلى ما اعترى الدين من فساد لا إلى الدين نفسه ، وترجع إلى سوء فهم رجال الدين دينهم على الوجه الصحيح أوفهمهم له فهماً صحيحاً ولـكن شاءوا أن يكسبوا منه و يتاجروا به . أما الدين نفسه ولاسيما إن كان ديناً صحيحاً فلا ينتج عنه إلا الخير .

و بعد ، فالدين نعمة على الفرد والمجتمع . هو راحة للنفس لأنه يساير طبيعتها ، وهو نعمة على المجتمع الإنسانى لأنه يوثق روابطه و يحيي عواطفه و يوجهه نحو الخير . وخير الأديان ماسما بالعاطفة ، وأوسع المجال للعقل و بنيت تعاليمه على خير الفرد وخير الإنسانية .

تربية الإرادة

ليس يمكن أى إصلاح خلقى إلا إذا ربينا الإرادة أولا . فإذا طالبنا شابا أو شابة بضبط النفس عند الغضب أو عدم الإسراف فى الملذات أو بالشجاعة عند الجبن أو بالعدل عند الظلم ، فلا قيمة لكل هـذه النصائح ما لم تسبقها عند الشاب أو الشابة إرادة قوية رباها صاحبها لينفذ بها ما اعتقد أنه حسن ، و يتجنب بها ما اعتقد أنه ضار . فانصح ما شئت ، وكرر النصح ما أردت ، فليس لهذا كله قيمة إذا لم يكن المنصوح قوى الإرادة يستطيع بها أن يسيطر على نفسه .

ولكن كيف نربى إرادتنا ؟

انظر إلى من يريد أن يتعلم ركوب الدراجة أو كما نسميها « البسكليت » — إن الشخص أول الأمر لا يستطيع ضبطها ولا يحسن السير عليها ، فهو يتأرجح مرة ذات اليمين ومرة ذات اليسار ، وكثيراً ما يبدأ ثم يقع ، وأخيراً و بعد جهد جهيد تستقيم فى يده البسكليت — و يسير بها سيرا حسنا و يعدو بها و يتجنب الأخطاء حتى ليأتى بالأعاجيب فى السير بها . فماذا حدث ؟ البسكليت هى البسكليت لم تتغير ، وهى دائما مطيعة خاضعة ، ولكن الذى تغير هو راكبها ، فقد كان لا يحسن حركاته ثم أحسنها ، ولا يمكنه ضبط نفسه عليها ، ثم ضبطها . فالتغير إنما حدث فى النفس لا فى البسكليت . كذلك الشأن فى كل أنواع الحياة ، لا بد من السيطرة أولا على النفس ثم مواجهة الأحداث . لابد أولا من تربية الإرادة ، و بعد ذلك يمكن مواجهة المشاكل بالإرادة وحلها ، إن ضعيف الإرادة يتأرجح فى أمره كما يتأرجح راكب الدراجة عند ركوبها لأول مرة ، فإذا هو ربى إرادته سار سيرا متوازنا معتدلا متجنبا الأخطاء ، كما يفعل راكب الدراجة إذا اعتادها . وكما يحتاج راكب الدراجة إلى جهد جهيد أول أمره حتى يستقيم له

السير ، وحتى يسير سيرا هينا من غير بذل جهد كبير ، كذلك الشأن فى تربية الإرادة يحتاج المرء أول أمره إلى كبير جهد وقوة تصميم وصحة عزم واحتمال الشدائد ، ثم تسير الأمور بعد ذلك فى يسر وسهولة من غير جهد ملحوظ . ولذلك جاء فى الحديث « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » ، فمن صبر على الشدة الأولى فى تربية إرادته كان ما بعدها أهون . إن الذى يفسد الإرادة أن تعزم وتعدل ثم تعزم وتعدل ، فيكون شأنك شأن بكرة الخيط يلف صاحبها عليها الخيط ثم ينقض ما لف .

و بعد ما يصبر المرء على الشيء الذى يريده و يربى فيه إرادته ، يصبح عادة يأتى به من غير عناء كبير . فالرجل الفاضل الذى اعتاد الإتيان بالأعمال الفاضلة كالرجل الشرير الذى اعتاد أن يأتى بالأعمال الشريرة ، كلاهما تصدر عنه الأعمال فى يسر وسهولة ، وليس من فرق بينهما إلا أن الأول وجه إرادته وعوّدها أعمالا صالحة والثانى وجه إرادته وعوّدها أعمالا سيئة .

وكثير من الشباب يقع فى العادات السيئة من غير تفكير وعن غير قصد ، إنما هم ينساقون مع التيار ، يجدون بعض الشبان المستهترين يتجهون اتجاها سيئاً فيسيرون فى اتجاههم من غير وعى ولا تفكير ولا إعمال عقل فى النتائج . وكان يجب أن يقدروا هذا الاتجاه و يزنوا نتائجه ، ثم يسلطوا إرادتهم لتجنيبهم هذا الاتجاه السيء .

إن أكثر ما يفسد الشبان و يضعف إرادتهم هو الإغراء ، يجلس الشاب مثلا مع بعض أصحابه فيجد اثنين منهم أو ثلاثة يدخنون ، فيعزمون عليه بسيجارة ، فيأبى فيلحون عليه ، و يبررون تدخينهم بمبررات ، مثل أنه يبهج النفس أو يزيل الكرب أو نحو ذلك من علل فاسدة ، فيشرب أول سيجارة فلا يحس لها طعما وقد يشعر بشيء من الدوخان فيكرهها و ينفر منها . ولكن قد

يوجد فى مثل هذا الظرف فيشربها ثانية فلا يحس بالألم الأول ، و إذا هو مدخن مثلهم . ولو جرد إرادته للمرة الأولى واعتزم ألا يدخن ، ما وقع فى هذه العادة السيئة . وقل مثل ذلك فيمن يشرب الخمر أو يجرى وراء الفتيات أو نحو ذلك من عادات سيئة كلها . إنما يقع الشاب بسبب ما يحيط به من إغراء ، ومتى وجد الإغراء وجب على الشاب أن يتسلح بالإرادة القوية ليتقى الوقوع فى مثل هذه العادات .

كثيراً ما يحدث أن يسكر سائق قطار و يفرط فى الشرب فيخطئ فى تسيير القطار و يعرض أرواح الراكبين فيــه إلى أشد الأخطار ، وقد روى لنـا كثير من هذه الأحداث . فلنتصور كيف يجنى سائق هــذا القطار على من يحمل مسئوليتهم من الركاب ، ولنتصور الفزع الذى يعرض للركاب لو علموا بحالة سائقهم . والحقيقة أن كل إنسان هو سائق قطار ، أعنى أن نفسه تسوق قطاراً ، وأن مثل العادات السيئة مثل الخمر الذى يشربها السائق تقوده إلى أشد الأخطار ، وليس هناك دواء لتجنب هذا الخطر إلا الإرادة القوية التى تحمى صاحبها من السكر عند سوق القطار . . ومع الأسف كثير من الشبان لا يفهمون هــذا ، و يسوقون قطار أنفسهم وهم سكارى ، ولا يفيقون من سكرهم إلا بعد الاصطدام وفوات الوقت وخسارة النفس .

لا بد أن يعوّد الشاب نفسه إيقاظ العقل وقوة الإرادة والشعور بالواجب ليقاوم هذا الإغراء ، مثل ذلك مثل من استحلى النوم فى السرير مع مجىء موعد عمله فإنه إذا استسلم للنوم والخمول والـكسل ضعفت إرادته ، ولـكن إذا أشعر نفسه بواجبها ونبه وعيه لوجوب الانتباه والقيام من السرير لمباشرة عمله استطاع بذلك أن يقاوم الإغراء و يباشر العمل . وهكذا الشأن فى شؤون الحياة كلها ، إذا

استسلم للراحة واستسلم للإغراء خمل عقله ونامت إرادته ، ولم ينتبه إلى ما يجب أن يعمل إلا بعد فوات الأوان .

وعظماء الناس إنما كان سر عظمتهم فى قوة إرادتهم وإطاعة عقلهم لا شهوتهم وتمرين إرادتهم على العمل الجاد أمام الصعاب الحادة . إن الرجل العظيم يتلذذ من مقاومة الإغراء ويتلذذ من السيطرة على نفسه ، ويحس اغتباطا من أنه غلب الإغراء ولم يغلبه الإغراء ، وصبر على الشدة ولم يخضع لها . وفى التاريخ أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته » معناه أن أى إغراء مما اعتاد الناس أن يخضعوا له ويتركوا مبادئهم من أجله لا يغرينى ، ولا يؤثر فى مبادئى وتعاليمى .

وموقف أبى بكر يوم ارتد كثير من العرب وأبوا أن يدفعوا الزكاة ونصح بعض الناس له بأن يلين معهم ورفضه ذلك وتصميمه على الحرب وألا يقبل من العرب إلا الإسلام كله كاملا من غير أن ينقص منه شىء ، قوة فى العزم وقوة فى الإرادة ومقاومة للإغراء .

وموقف ابن تيمية وقد أراده السلطان على أن يعدل عن رأيه الذى وصل إليه باجتهاده وبحثه فأبى ، ثم حبسه وعذبه فأبى ، وكان وهو فى السجن يكتب الكتب يشرح بها مبادئه وتعاليمه ويستدل على صحتها . ثم لما منع عنه القلم والورق أخذ الفحم وصار يكتب به على حيطان السجن فى شرح أدلته وبراهينه على تعاليمه ، مثل صالح كذلك على قوة الإرادة وصحة العزم وشدة التصميم ، وعدم الاستماع إلى المغريات أو التخويف بالعقوبات .

وكثير من المؤرخين كانوا يرون أن سر نجاح نابليون فى حروبه كان فى سرعة تصميمه ومواجهة العدو بكل قوته .

وعلى كل حال فتربية الإرادة وقوتها وتعويدها مقاومة الإغراء سر النجاح وسر الاستقامة وحصن حصين من الزلل . ومن ربى إرادته أمكن إصلاحه وأمكن حسن توجيهه ومن فقد إرادته فلا أمل مطلقاً فى تقويمه إلا أن يبدأ من جديد ، فيعالج نفسه كما يعالج المريض ويصبر على العلاج المر حتى يشفى من الداء .

هل نحن مسئولون
عن حياتنا الاجتماعية ؟

فى الإسلام مبدأ أساسى عظيم لم يوله المسلمون حقه من العناية والرعاية كما ينبغى ، يرمى هذا المبدأ إلى تقرير أن الإنسان ليس مسئولا من عمله فحسب بل هو مسئول عن حياته الاجتماعية التى يحياها فى الناس .

هذا المبدأ سمى فى القرآن الكريم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ووردت فيه الآيات الكثيرة مثل « ولتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة » . فقرن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالصلاة .

وقال « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » . وعدّ المؤمنين خير الأمم لرعايتهم هذا المبدأ فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وقال : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

وعبر عن هذا المبدأ بتعبير آخر فقال : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وذم اليهود بأن أحبارهم لم يكونوا ينهونهم عن الفساد فى الأرض فقال : « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » وقال : « فلولا كان من القرون من

قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض » وعبر عن المبدأ فى صياغة أخرى فقال : « والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » وقال : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » وقال : « و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . إلى كثير من مثل هذه الآيات وكلها ترمى إلى وجوب أن يكون كل فرد فى المجتمع مسئولا عن مجتمعه مراقباً لشؤونه ثم هو لا يكتفى بالمراقبة بل يتدخل بمقدار مركزه الاجتماعى فيأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر .

ثم ما هذا المعروف وما هذا المنكر ؟

يميل الإسلام إلى القول بأن فى الإنسان ملكة يعرف بها أمور الخير وأمور الشر من غير حاجة إلى فلسفة أو إطالة بحث ، فأصول الخير ومناحيه معروفة عند جميع الناس إلا من فسدت طبيعته ، وأصول الشر ومناحيه منكرة عند الناس كذلك ، فالناس حتى العامة يعرفون أن الصدق والأمانة والوفاء بالعهد والعدل أمور مستحسنه يجب الإتيان بها فسماها كلها « معروف » والناس يعرفون أن أضدادها من ظلم وجور وكذب أمور مستهجنة يجب البعد عنها فسماها القرآن منكر ، ولذلك قال بعض اللغويين : المعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه ، والمنكر ما ينكره العقل أو الشرع .

وأوضح رسول الله وأصحابه هذا المبدأ بكثير من أقوالهم وأفعالهم فقال رسول الله : « إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه » وقال : « لا تقفن عند رجل يضرب مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه » وقال : « لا ينبغى لامرئ شهد مقاما

فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولا يحرمه رزقا له » وسأل رجل رسول الله « أتهلك القرية وفيها الصالحون ، قال : نعم ، بتهاونهم وسكوتهم على معاصى الله » . وسئل حذيفة عن ميت الأحياء فقال : « هو الذى لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه » . وقال بلال بن سعد : « إن المعصية إذا اختفت لم تضر إلا صاحبها فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة » . وكان على بن أبى طالب يقول : « إذا لم يعرف بالقلب المعروف و ينكر المنكر ينكس فجعل أعلاه أسفله » . وهذا رمز إلى أنه لم يعد قلبا ذا قيمة .

وكان من أثر هذا المبدأ وجود نظام الحسبة فى الإسلام وهو نظام دقيق مفصل ، الغرض منه منع المنكرات بالوسائل الممكنة من غير تجسس ، وتفصيل هـذا النظام يطول .

وكل ما نريد أن نقول إن هذا المبدأ الهام مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مبدأ يربط بين أفراد الأمة رباطا وثيقا و يمنعها من الانحلال لأنه يشعر كل فرد بأنه مسئول إلى حد كبير عما يجرى حوله من ضروب الخير والشر و يطالبه بالتدخل فى الشر حسب قدرته وحسب مركزه الاجتماعى ليمنعه — هو مبدأ يقضى على هؤلاء الذين يصح أن نسمهم « اللاباليين » وهم الذين لا يبالون بأى شىء لا يتصل بأشخاصهم ولا يكترثون لما يقع حولهم فمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو مبدأ اعتبار الأمة كلها وحدة تتأثر كلها بما يضر جسمها ، إن هـذا المبدأ يرقى بالأمة رقيا عظيما .

* * *

من مقتضى هـذا المبدأ أن كل فرد فى الأسرة مسئول عن سعادة أسرته ، فليس للرجل ولا للمرأة أن يقول لا أبالى ، فـكل فرد مسئول عن البيت ، يجب

أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويجب أن يشعروا أن سعادة البيت أو شقاءه نتيجة تيقظهم أو إهمالهم واحتمالهم العبء أو الهرب منه .

وتصوروا كل هيئة من الهيئات الاجتماعية أو كل حزب من الأحزاب السياسية ، جرى كل فرد فيه على هذا المبدأ ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، أو بتعبيرنا الحديث دعا إلى الحق وهاجم الباطل ، وتصوروا برلمانا هـذا شأنه ، ليس له غاية إلا إحقاق الحق و إبطال الباطل ، وتصوروا كل مصلحة من المصالح الحكومية وغير الحكومية جرت على خطة الغضب للحق والوقوف أمام الباطل .

إن مجتمعا يسير على هـذا المنهج من غير شك — هو المثل الأعلى للمجتمعات ، و بمقدار سيره على هذا المبدأ أو انحرافه يكون رقيه وانحطاطه — فلا يصح لفرد فى أسرة أن يقول فلأنعم بطيبات البيت وما فيه من مأكل لذيذ وفرش وثير و بعدى الطوفان ، وليس لحزب سياسى على هذا المبدأ أن يقول ما دمت لست فى الحكم فلأغل يدى ولأترك الحزب الذى فى الحكم يعمل ما يشاء حتى تظهر للأمة ثمرة عمله ، فهذا وأمثاله فرار من المسئولية التى يلقيها علينا هذا المبدأ الإسلامى العظيم ، وهو أن الخير الذى يقع خير الأمة ، والشر شر الأمة وليس لأحد أن يفر من المسئولية وليس من حق أى جزء فى الجسم أن ينفصل عنه .

الاحتكام إلى العقل

أؤكد لكم أن أكثر المنازعات والخصومات سببها عدم احتكام الخصمين أو أحدهما إلى العقل — سواء فى ذلك النزاع بين الزوجين فى البيت ، أو بينهما و بين الأولاد ، أو نزاع الناس فى الشارع أو فى المجالس ، أو نزاعهم أمام المحاكم ، أو النزاعات السياسية بين الأحزاب أو بين أعضاء الحزب الواحد — فكل هذه المنازعات — على اختلاف ألوانها — لو حكم فيها الطرفان المتنازعان العقل لارتفعت الخصومة وحل الوفاق محل النزاع والخصام ، هـذا النزاع بين الزوجين على ميزانية البيت — مثلا تريد الزوجة ملابس جديدة تكلف الزوج مائة جنيه أو أكثر أو أقل ، و يأبى الزوج أن يدفع هذا المبلغ كله أو بعضه ، و يشتد هذا النزاع وقد يتطور إلى أخطر النتائج ، ما سببه ؟ سببه عدم تحكيم العقل إما من الزوجة أو من الزوج أو منهما معاً ، فإذا حكم العقل قال العقل ما يأتى : هل للزوجة حاجة إلى هـذه الملابس ! ونعنى بالحاجة ما يشمل الزينة وظهورها أمام مثيلاتها بالمظهر اللائق بها ونحو ذلك ؟ فإذا كان الجواب بالنفى استبعد هذا الطلب ، و إن كان بالإيجاب انتقل العقل إلى سؤال آخر وهو هل مالية الزوج تسمح بهذا الطلب كله أو بعضه ؟ وهل هناك مطالب أهم من هذا المطلب ، كمصاريف المدارس للأولاد أو نحو ذلك ؟ فإن كانت مالية الرجل تسمح بكل ذلك ، وتسمح بادخار بعض المال للطوارئ كان المعقول أن يجاب الطلب و إلا حكم العقل بتقديم الضروريات على الكماليات و بأن الزوجين يجب أن يتفاهما على تقديم الأهم على المهم ، والحاجيات على الكماليات ، ونزلت الزوجة على حكم العقل فنقصت ما تطلبه إلى الحد الأدنى حتى تكفى مالية الرجل ، فإذا تم هذا التفاهم وخضعا معاً لحكم العقل فلا نزاع ولا خصام وهكذا الشأن فى مطالب الأولاد — و إنما يأتى النزاع من أن الزوجة

تحكم رأيها وتطلب المال ولو « من تحت الأرض » ولو بالاستدانة ، ولو ببيع ما يملك ، وهذه مطالب غير معقولة ، أو أن الزوج يكون عنده المال الكافى لكل هذه المطالب و يصمم على ألا يصرف لأن الصرف يؤلمه أو أنه يبالغ فى الاحتياط للمستقبل أو لأنه مصاب بالبخل ولا يتزحزح ، فيكون التشاحن الدائم والمعيشة التى تقصر العمر وما سبب ذلك إلا عدم الاحتكام إلى العقل .

وقل مثل ذلك فى الخصومات السياسية بين الأحزاب ، هؤلاء ينظرون إلى المسألة من ناحيتهم الحزبية ويكونون فيها رأيا ينفع الحزب و يعلى شأنه ، وهؤلاء يقفون مثل موقفهم و ينظرون فقط إلى ما ينفع حزبهم ، فتتصادم الرغبات وتثار الخصومات ، ولكن إذا حكم العقل قال إن الأحزاب وتعددها ونظمها إنما وضعت لخدمة الأمة ومصلحتها ، فالحكم فى الأحزاب وتصرفاتها هو هذه المصلحة ، فإذا ثارت خصومة فى مسألة فلتقس منافعها ومضارها للأمة لا للحزب ، و إذا قومت الأمور هذه القيم العامة بين وجه الحق و إنما يعميها اختفاؤها وراء المصلحة الحزبية ودوران المناقشات حول الأغراض الحزبية وهكذا .

ولكن — مع الأسف — ليس تحكيم العقل فى المسائل بالأمر الهين ، و إنما يحتاج إلى تربية نفسية شاقة ، وتمرين طويل ، فكثيراً ما يكون الباعث على العمل هو الشهوة والمصلحة الذاتية والوصول إلى منفعة شخصية معينة ، ولكنها تعمل فى الخفاء ، وتظهر بمظهر العقل . و يدور الجدل بالمنطق والحجج ، وفى الحقيقة ليس هناك منطق ولا حجج ، و إنما هو ثوب براق لماع ينسجه الشخص باسم العقل ليخفى به الشهوة والمنفعة الذاتية أو الحزبية ، هذه الزوجة رأتك تنفق على أهلك المحتاجين بعض ماهيتك فغاظها ذلك لأنها تريد ماهيتك كلها لها ولأولادها ، فهى تخلق المطالب غير الضرورية خلقاً ، وتقيم ألفى دليل ودليلا على أنها فى الضرورة القصوى من الحياة ، وليس هذا هو العقل ولكنه غطاء العقل ، و ليس الذى يوجد التفاهم هو العقل المزيف ولكنه العقل الصحيح .

وهذا حزب تحركه الرغبة فى الحكم ولكن هذا لا يمكن أن يقال ، وإنما الذى يقال هو مصلحة الأمة والصالح العام ونحو ذلك ، وتصاغ الحجج العقلية لخدمة هذا الغرض الذاتى ، فلا يكون التفاهم لأنه مؤسس على العقل المزيف .

وهذا رئيس مصلحة ، مصلحته فى ترقية شخص معين لأن ترقيته تعود عليه بمنفعة شخصية ، فيخلق من العلل والبراهين ما يبرر به طلبه مدعياً أنه أكفأ أو أنزه أو أصلح ونحو ذلك ، فيسبب عمله خصومات سببها عدم الرجوع إلى العقل الصحيح وهكذا .

ومن أجل هذا قلت إن الرجوع إلى العقل شاق عسير ، وكثيراً ما يخدع الإنسان نفسه ، ويظن أنه محق فيما يقوله وما يبرهن عليه ، وهو فى حقيقة الأمر مخدوع قد غشته نفسه .

وكثير من الخصومات المالية يرجع إلى هذا السبب ، كل يكون له رأياً مبنياً على ما ينفعه أكبر نفع ويربحه أكبر ربح ، وكل يعتقد بناء على ذلك أن نظره هو الصحيح ، ونظر غيره هو الباطل ، والحق أن المنفعة الذاتية هى التى توجه كلا منهما .

ومن أجل ذلك كان الرجل المحايد الذى لا ينتفع بهذا الرأى أو ذاك أقدر على تحكيم العقل والوصول إلى الصواب . قد يكون الخصمان معقولين كل منهما ينظر إلى المسألة نظراً مجرداً عن الهوى ومع ذلك يختلفان ، وكثيراً ما يكون السبب فى ذلك أن كلا منهما ينظر إلى المسألة من زاوية غير الزاوية التى ينظر منها الآخر ، فمن الحكمة أيضاً أن يسائل الإنسان نفسه ماذا أعمل لو كنت محل خصمى ، وأى الآراء ، وأى البواعث حملته على أن يرى هذا الرأى المخالف لرأيى ؟ وفى هذه الحالة قد يعدل عن رأيه إلى رأى صاحبه أو على الأقل يعذره .

و بعد ، فنعمة من الله كبرى أن يكون لدى الإنسان روح التعقل ... إن البيت يكون سعيداً إذا ساده روح التعقل ، وقد سئل حكيم صينى ماذا تشترط فى الزوج الذى يتقدم لابنتك الوحيدة ؟ قال شرط واحد وهو أن يكون عنده روح التعقل .

ونعمة من الله كبرى أن يسود الأمة روح التعقل ، إذن لرأيت الخصومة بين أحزابها ، خصومة معتدلة معقولة ، وصحافتها نافعة معقولة ، ومجالس هيئاتها تتجادل فى المسائل وتبت فيها فى الحدود المعقولة ، والرأى العام يمدح و ينقد و يؤيد و يعارض فى الحدود المعقولة ... بل أوكد أن المنازعة بين الأمم تنقطع أو على الأقل تخف حدتها و يسود السلام إذا احتكمت إلى العقل دون الشهوات والمطامع .

مركب النقص

مما اكتشفه علماء النفس الحديثون مرضان نفسيان ، يسمى أحدهما مركب النقص ، ويسمى الآخر مركب التسامى ، وقلما يخلو إنسان من أحدهما أو منهما معاً ، ويستطيع الدقيق النظر أن يفسر كثيراً من تصرفات الناس بما عنده من هذا المرض .

فأما مركب النقص فهو شعور يستولى على الإنسان بأنه ناقص فى ناحية من نواحيه الجسمية أو الخلقية أو العقلية ، فيحاول بسلوكه أن يظهر بمظهر السليم من هذا المرض ، ويكون ذلك الشعور فى أعماق نفسه ، قد لا يستطيع المريض نفسه أن يدركه ، ولو سألته عنه لأجابك بالنفى ولكنه حقيقة واقعة يتصرف المريض به تصرفات كثيرة للتبرؤ منه . ولو دققت النظر لوجدت آلاف التصرفات تصدر من الإنسان لهذا الشعور بالنقص . هـذا رجل قصير القامة تراه يحب أن يلبس طربوشاً طويلا وجزمة عالية الكعب لأنه يشعر بنقصه فى قصره . وهذه امرأة سمراء تكره كل الكره أن يكون لها خادمة بيضاء لأنها تشعر بالغيرة منها وتخاف أن يشعر زوجها بسمرتها بالمقارنة بخادمتها البيضاء . وهذه امرأة ولدت ثلاث بنات ولم ترزق بصبي فتشعر بنقصها وتكره أن تسمع الأحاديث عن المرأة التى خلفت صبيانا فقط . وهذه فتاة تزوجت زواجا فاشلا فهى تكره كل الكره أن تسمع بأمثالها اللائى سعدن بأزواجهن . وهذا موظف لم يأخذ الدرجة الثالثة التى يستحقها فيغيظه أن يسمع عن أشخاص أخذوها ويسره أن يسمع أخبار من حرموا منها أشد من حرمانه ، وهكذا من آلاف الحوادث التى تحصل أمامنا كل لحظة ... إن الطفل يحب البنطلون الطويل ويحب أن يمسك عصا لأنه يشعر بنقصه ، والمرأة

تغالى فى زينتها إذا أحست بنقص جمالها ، والرجل يبالغ فى الإسراف فى المال إذا أحس بنقص جسمى يريد أن يعوضه .

وكثير من تصرف أفراد العائلة يصدر عن شعور بالنقص فى ناحية من النواحى يراد سترها ، ولما كان هذا الداء كثيراً ما يخفى فهو كذلك كثيراً ما يعالج خطأ ، ولو عرف الداء على حقيقته لعرف الدواء على حقيقته ، وكذلك الناس فى مجتمعاتهم ومعاملاتهم المالية وغير المالية .

لى ابن تخرج فى مدرسة عالية وهو يلح أن يعين فى وظيفة خارج القاهرة مع أنه سعيد فى بيته ، موفرة عليه راحته . حاولت أن أعالجه بالضغط فلم ينجح وأخيراً اكتشفت السبب ، وهو أنه ذو شخصية يريد أن يظهرها كاملة ولا يتأتى له ذلك مع شخصيتى ، فشخصيتى فى البيت أكبر من شخصيته ، فهو يريد أن يتخلص من هذه الشخصية التى طغت على شخصيته بأن يوظف خارج القاهرة ، فلما عرفت هذا السبب أمكن وضع العلاج .

وكذلك قد يتنازع الرجل والمرأة فى البيت فإذا استفسرت عن سبب النزاع قيل لك أسباب تافهة ، ولكن الحقيقة أن وراء هذه الأسباب أسباباً أخرى هى مركب النقص عند الرجل أو عند المرأة . ولو سألت أى إنسان هل عنده مركب النقص فى كذا لنفى ذلك نفياً باتاً .

وتصرفات الناس تختلف اختلافاً كبيراً حتى فى مركب النقص الواحد ، كالذى حكى أن ثلاثة أطفال دخلوا مع أمهم حديقة الحيوان ، فلما وصلوا إلى حجرة الأسد ، ورأوه يزمجر اختفى أحدهم وراء أمه وقال : « إنى أريد الذهاب إلى البيت » . والثانى اصفر وجهه ، وارتجف جسمه وقال : « لست بخائف » . والثالث حملق فى وجه الأسد وقال لأمه : « هل تسمحين لى أن أبصق عليه ؟ » فالثلاثة كان عندهم مركب نقص واحد وهو الشعور بالخوف من الأسد ولكنهم تصرفوا تصرفات مختلفة كلها تدل على الخوف .

وفى كثير من الحالات تكون مظاهر النقص واضحة ولكن قد تخفى وتعمق حتى يصعب تفسيرها . ترى جندى البوليس شديداً على الباعة الجائلين ، ولكن تعليل ذلك أنه شاعر بالنقص التام أمام ضابط البوليس . فهو يريد أن يرضى نفسه الضعيفة بقوته الظاهرة على الباعة ، وكذلك ترى الرجل هرة وديعة ذليلة فى مصلحته ، ويريد أن يكون أسداً فى بيته ، أو هرة فى بيته فيريد أن يكون أسداً فى مصلحته . وترى آخر يشعر بنقصه العقلى إذا قورن بعقل زملائه ، فيحدث كثيراً عن ذكائه ، أو كذوباً فيتحدث كثيراً عن صدقه ، أو فاشلا فى عمله فيرضى نفسه بأن الدنيا فانية والناجح والفاشل مصيرهما معاً إلى الموت . وهذه كلها منشؤها شعور باطنى بالداء وبالنقص ، ولكن ليس فى شىء من هذا علاج للمرض ، فالمرض إذا عولج بهذا النوع من العلاج بقى كما هو يعمل فى نفس صاحبه .

إن الشعور بالنقص يوتر الأعصاب فينشأ عنه رد فعل بالتسامى ، كالكرة من الكاوتش تضربها فى الأرض فتنضغط ثم تعوض ذلك بالارتفاع ، فإذا رأيت طفلا يتظاهر بالقوة أو رجلا يتبجح ، أو عالماً مغروراً ، فاعلم أن ذلك تعبير عن شعوره العميق بالنقص ، وكثيراً من طرق العلاج ليست صحيحة ، فالطفل الذى يبكى إنما يبكى لشعوره بنقص ، فإذا دلل واستجيبت طلباته اعتقد أن البكاء وسيلة صحيحة لحصوله على حاجته ، فأكثر من البكاء كلما شعر بحاجته ، ونمت عنده هذه العادة حتى إذا كان مراهقاً كان مدللا لا يعتمد على نفسه ، ويتخذ الغضب أو الدموع أو كثرة الشكوى وسائل من وسائل تغطية شعوره بالنقص .

وكثيراً ما يتولد الشعور بالنقص من الفشل فى الحياة ، خصوصاً فى أول مواجهتها ، فالطفل فى المدرسة الابتدائية إذا كان ترتيبه متأخراً ، أو وبخه مدرسه على التقصير كثيراً ، وجد عنده هذا الشعور بالنقص ، ومن حاول التجارة أو الصناعة فأصيب بالفشل فى أول أمره ولد لذلك أيضاً عنده الشعور بالنقص ،

والفتاة التى بلغت سن الزواج ولم تتزوج تولد عندها هذا الشعور ، والموظف إذا لم يرض عنه رؤساؤه وزملاؤه شعر بهذا النقص أيضاً وهكذا .

وكل شعور بالنقص يستلزم من صاحبه سلوكا خاصاً يغطى به نقصه ، إما بأن يظهر بمظهر الرجل الكامل أو يعتزل الناس ويكره مقابلتهم والاختلاط بهم ، أو يكثر الغضب ، أو يعتقد فى الناس السوء ، أو يكثر الشكوى منهم أو نحو ذلك . فكثير مما تراه من عيوب الرجل أو المرأة يمكن إرجاعه إلى مركب النقص فيه . غاية الأمر أن مركب النقص هذا قد يكون واضحاً يمكن الوقوف عليه فى سهولة ويسر ، وقد يكون عميقاً اختفى فى اللاوعى من قديم حتى احتاج إلى تحليل نفسى طويل ليمكن العثور عليه .

وكل التظاهر بتغطيته ليس علاجاً صحيحاً ، فمن عالج نقصه بالغضب أو البكاء أو الشكوى فليس هذا علاجا ، ومن عالج نقصه بالخجل أو اعتزال الناس أو كثرة الحديث عن نفسه أو الظهور بمظهر الأبهة والعظمة فليس هذا علاجا ، بل كل هذه مظاهر للمرض لا تعالجه ولا تستأصله . وليس كل شعور بالنقص عيبا مذموما ، بل أحياناً يكون فضيلة ، فالناس إنما طلبوا العلم وتبحروا فيه واستكشفوا قوانينه لشعورهم بنقصهم ، والأمم التى حاربت لنيل استقلالها وإخراج المستعمر من أرضها وطلبها السيادة لنفسها إنما فعلت ذلك لشعورها بنقصها تحت الاستعمار وفى ظل العبودية .

والذى يشعر بنقصه فى خلقه أو عقله أو نفسه ثم يستكملها يكون الشعور منه بالنقص فضيلة ، إنما الرذيلة أن يشعر بالنقص فيسكت عنه أو يعالجه علاجا خاطئاً فيغطى النقص بالتظاهر بضده ، يكون بخيلا فيتظاهر بالكرم وجباناً فيتظاهر بالشجاعة ، وكذوبا فيتظاهر بالصدق ، وهكذا فكل هذا التظاهر لا يقلل من النقص شيئاً بل يزيده تأصلا .

وأما الشعور بالتسامى ، أعنى الشعور بالرفعة والعلو والسمو ، فيكون مرضاً

إذا جاوز الحد ووضع الإنسان نفسه فوق ما يستحق ، وفيما عدا ذلك يكاد يكون طبيعياً فى كل إنسان ، فكل إنسان يصبو إلى الكمال وإلى أن يكون خيراً مما هو ، وليس فى هذا عيب بل هو فضيلة ، بل إن الأخلاقيين حثوا عليه ووضعوا وسائل كثيرة لتحقيقه ، كقراءة سير الأبطال وكبار المصلحين . ورجال الدين حثوا عليه من ناحية التشبه بالله والاقتداء بالرسل وبخيرة الصالحين ، ولكن العيب أن يتطلب كمالا لا تستطيعه نفسه ولا يمكن أن تبلغه قواه ولا ملكاته ، كضعيف العقل يريد أن يكون فيلسوفاً ، أو جباناً يريد أن يكون قائد حرب أو نحو ذلك من السخافات . ومن العيب أن يتطلب الكمال ولا يعمل لتحقيقه ، يتطلبه قولا لا عملا ، أو يتطلبه لغاية غير شريفة ، قد يتطلب الشاب المتعلم أن يكون طبيباً ولكن شتان بين من يريد أن يكون طبيباً ليجمع المال من جميع الوجوه ولا يرحم فقيراً ولا يسعف مستغيثاً وبين من يريد أن يكون طبيباً لخدمة الناس ورفع الآلام عنهم ولا بأس بالمال يأتى فى اعتدال ، وقد يتطلب الشاب أن يكون معلماً ولكن شتان بين من يريد أن يكون معلماً ليظهر سيطرته على الطلبة ، أو ليجمع المال بالدروس الخصوصية أو نحوها ، ومن يريد أن يكون معلماً ليحارب الجهل فى المتعلمين ويفتح زهراتهم ويرفع مستواهم مع ما يفيض عليه ذلك من رزق حلال . وكذلك شتان بين من يريد أن يكون موظفاً كبيراً ليستطيع أن يؤدى للناس خدمات كبيرة بقدر ما تسمح له قوته ويسمح له منصبه .

لا عار مطلقاً فى الشعور بالتسامى بل هو واجب ، ومن فقد الشعور بالتسامى فقد فقد طعم الحياة ، بل إن الأمة التى فقدت شعورها بالتسامى فرضيت باستعمار الأجنبى ورضيت بنظامها الداخلى السيئ ورضيت بحالتها التعيسة فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أمة لا تصلح للبقاء ، إنما تصلح للبقاء يوم تتسامى ، يوم يغمرها الشعور بالتسامى ويكون شعوراً قوياً صادقاً لا يكتفى بالقول دون العمل ، ولا يقتنع بالتظاهر دون الحقيقة ، والشعور الصحيح بالتسامى هو شعور يستتبع العمل على تحقيق ما تسمو إليه .

الحياة السعيدة

لو استعرضنا أنواع الناس ، وكيف يحيون وجدنا أن كثيراً منهم يعيش عيشة جافة جامدة باردة ، يستيقظ من النوم ، فيفطر ، ثم يلبس ملابسه ويذهب إلى عمله كزارع أو صانع أو تاجر أو موظف ، حتى إذا جاء وقت الغذاء عاد إلى بيته فتغذى ، ثم قد يزاول بعض عمله ثم يجلس فى مقهى يسمر مع أصدقائه أو نحو ذلك ثم يعود إلى بيته فيحدث أهله بعض الحديث ثم ينام وهذا هو تاريخ حياته ، يوم واحد متكرر ، وحياة واحدة رتيبة ... هذه هى الحياة أشبه ما تكون بحياة آلة فى مصنع ندورها فتدور ونعطيها غذاءها من فحم أو وقود فتسير على نمط واحد ثم يوقفها القائم عليها فتقف وهكذا حياتها كل يوم . بل هى أيضاً كحياة الأنعام تأكل وتعمل وتنام وهكذا عادتها كل يوم . وإن الإسلام لا يرضى عن هذه الحياة .

وهناك قوم أضافوا إلى هذه الحياة المادية من أكل وشرب ونوم حياة أخرى عقلية ، فهم يخصصون جزءاً كبيراً من وقتهم لاستخدام عقولهم فى حياة علمية أو أدبية كرجال الجامعات والباحثين فى العلوم على اختلاف أنواعها ، والفلاسفة الذين يجدون للبحث وراء كنه العالم والذين يقضون كثيراً من أوقاتهم فى المعامل يبحثون ويجربون ويبتكرون ... وهذا النوع من الحياة أرقى من نوع الحياة الأولى لأنها جمعت بين الحياة المادية والعقلية ، وجمعت بين السعادة المادية والسعادة الفكرية ، ولا شك أن اللغة العقلية الفكرية أمتع وأنفع وأطول ولكن مع كل هذا لا يرضى الإسلام عن هذه الحياة أيضاً لأنه يرى فيها جفافاً لخلوها من القلب والعاطفة ولأن أصحابها كثيراً ما تلهيهم علومهم عن التفكير فى إلههم وإذا فكروا فيه فكروا بنوع من الإنكار أو من الإلحاد أو الاستخفاف أو عدم الاكتراث .

ومن هؤلاء العلماء من بلغ تقديسهم للعقل وحصرهم أنفسهم فى قوانينه أن ساروا فى حياتهم على الأخلاق التى يرتضيها العقل وحده ، فيعدلون مع الناس ومع أنفسهم لأن هذ أنفع للمجتمع ولهم بحكم عقلهم ، ويلتزمون الصدق ويقومون بالواجبات الفردية والاجتماعية لأنهم يرون فيها الخير لأنفسهم ولمجتمعهم بحكم العقل فهم فضلاء بالعقل ، خيرون بالعقل ، ولا يلتزمون بشىء ولا يسيرون على منهج إلا إذا ارتضاه العقل ، وحتى هذا أيضاً لم يرتضه الإسلام لأن الفضائل إذا صدرت عن العقل وحده خلت من الحرارة وخلت من القوة التى يتطلبها الدين ولذلك لما سئل رسول الله عن قوم فى الجاهلية أتوا بأعمال فاضلة من كرم وشجاعة أبى أن يعترف لها بقيمة لأنها لم تنبع من المنبع الذى يرتضيه الإسلام .

إنما يريد الإسلام حياة فيها مادة وفيها عقل وفيها روح ، وبعبارة أخرى إن الإسلام يلاحظ أن الإنسان ركب من عناصر مختلفة ولا يمكن أن يسعد إلا إذا عاش عيشة تغذى كل عنصر من عناصره ولتوضيح هذا نقول : إن فى الإنسان عنصراً من عناصر النبات فى خواصه وطبائعه فهو يبحث عن غذائه فى الأرض كما يبحث النبات ، وتؤثر فيه الفصول الأربعة كما تؤثر فى النبات ، ولا بد له من هواء وماء كالنبات ، فلا بد لسعادة الإنسان أن يغذى هذا العصر النباتى فيه .

١ كذلك فى الإنسان عنصر حيوانى : فهو يتحرك بالإرادة كما يتحرك الحيوان ، وله شهوات وغرائز كما للحيوان شهوات وغرائز ، يتشهى الأكل ، ويشتهى الألفة ، ويتشهى الاجتماع ببنى جنسه ، وفيه غرائز الخوف ، وحفظ الذات ، وحفظ النوع ، ونحو ذلك ، فلا بد لسعادته من أن يحيا هذه الحياة الحيوانية أيضاً .١

وفى الإنسان عنصران امتاز بهما عن النبات والحيوان ، أحدهما عنصر العقل : والعقل وإن ظهر فى شكل بدائى بسيط ساذج فى الحيوان فهو فى الإنسان

أعلى وأرقى وأتم ، وبه استطاع أن يسود الحيوان ويسخره لمنفعته — وبالعقل استطاع أن تكون له قوة أقوى من الأسد ، ومكر أقوى من الثعلب ، كما استطاع أن يتغلب على الحيوانات التى هى أقوى منه جسما وأوفر حظاً فتغلب به على الفيل بأنيابه وعلى الجمل بضخامته ونحو ذلك فلا بد له أيضاً من أن يعيش عيشة فيها غذاء هذا العنصر العقلى ، فيفكر ويتأمل ، ويقرأ ، ويكتب .

والعنصر الآخر الذى يمتاز به عن النبات والحيوان هو عنصر الروح وهو غير عنصر العقل . هذا العنصر الروحى أساسه الدين والاعتقاد بإله واحد هو ربه ، ورب العالمين ، منه يستمد القوة ، ومنه يستمد الحياة ، ومنه يستمد وسائل الحياة . وبهذين العنصرين عنصر العقل والروح استطاع الإنسان أن ينظم عنصر النبات والحيوان فيه وأن ينظم غرائزه ويلطفها ويهذبها ويخضعها لأمرهما .

السعادة فى نظر الإسلام يجب أن تتوفر بالأخذ بحظ من كل عنصر من هذه العناصر الأربعة أخذا معتدلا لا إفراط فيه ولا تفريط ، فهو لا يرضى عن تعذيب الجسم وحرمانه من ملذاته ولذلك كره الزهد والتبتل وقال « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » . وكره حياة حيوانية لا عقل فيها . وعاب على قوم أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، وحث على العلم وطلبه والتفكير فى خلق السموات والأرض وما فيها وحرص على العنصر الرابع وهو عنصر الروح فقرر أن الحياة إذا خلت من العنصر الروحى كانت حياة تافهة لا قيمة لها .

والناس إزاء هذه العناصر مختلفون اختلافا كبيراً فمنهم من غلب عليه عنصر النبات والحيوان فكان شهوانياً ، ومنهم من غلب عليه عنصر العقل فكان عالماً أو فيلسوفا ومنهم من غلب عنصر الدين فكان متصوفا . ولكن خير حياة رسمها الإسلام هى الحياة التى اعتدلت فيها كل هذه العناصر ولم تفقد واحد منها . والعلم لا يكفى فى الإسعاد لا فى إسعاد الفرد ولا فى إسعاد المجموع ، لقد ملأ العلم

الدنيا آلات وأدوات واختراعات ونظريات فى السياسة والاجتماع ووصل فى تقدمه إلى تحطيم الذرة ولكن هل كفى هذا فى إسعاد الناس ؟ إن العلم وحده صالح لأن تستخدمه فى الخير كما تستخدمه فى الشر ، فهو كالسكين تستخدمه فى القتل فيضر ، والذى يحدد استخدامه فى المنفعة هو الروح التى يعبر عنها دائماً بالقلب . إن العلم يستطيع أن يرقى وسائل الخير كما يستطيع أن يرقى وسائل الشر . قد كان الناس قديماً يقتتلون بالعصا والحجارة ونحو ذلك ، فلما تقدم العلم قتلوا بالكهرباء والغازات الخانقة والطائرات والغواصات والقنابل الذرية . إنما الذى يستطيع أن يحد من شر العلم هو الروح وهو الدين وهو الإيمان بالله يحاسب الناس على أعمالهم ويطلع على ضمائرهم .

إن الدين الصحيح يغذى الشعور بالتسامى ، والطموح الدائم إلى الرقى ويعالج الشعور بالنقص ويحارب الميل إلى التدنى ، والدين الصحيح ينقل النفس مما يعتريها من الحزن والإحساس بالفراغ والقلق الذى يعترى الإنسان إذا لم يجد سنداً يستند إليه ، ينقلها من ذلك كله إلى شعور بالأمن والطمأنينة والاستناد إلى قوة ليس فوقها قوة .

إن الدين الصحيح يوسع النفس حتى ترى بينها وبين الناس كلهم بل بينها وبين المخلوقات كلها نسباً كنسب الأسرة الواحدة لأن ما فى العالم جميعه يرتبط به ارتباط الأخوة إذ هو وهى كلها من خلق الله رب العالمين .

إن الدين الصحيح يشعر الإنسان بالاتصال بعالم روحى واسع لا يقاس به عالم المادة ، فإن كان العلم يحصر الإنسان فى المادة وفروعها ، فالدين يضم إلى هذه المادة أكبر منها وهو ما ليس بمادة وبذلك يتسع أفق صاحبه أضعافاً مضاعفة .

لقد أفهمتنا الحياة أن السير على قوانينها الطبيعية يكسب الراحة والسعادة وأن كل سأم وقلق وملل واضطراب سببه مخالفة القوانين الطبيعية فى جزء من أجزائه وإذا كانت طبيعة الإنسان مكونة من هذه العناصر الأربعة . عنصر النبات والحيوان والعقل والروح فنقصان عنصر منها لا يمكن أن يحقق السعادة بالأخذ بحظ وافر من كل عنصر من هذه العناصر وامتزاجها امتزاجاً متعادلا لا يطغى فيه عنصر على عنصر . وهذا هو نوع الحياة التى يرتضيها الإسلام .

صورة لغاندى وأخرى لستالين

عندما أسلم الفيلسوف الكبير برنارد شو روحه العظيم كانت تشيعه ابتسامتان عريضتان من صورتين علقتا فوق سريره ، صورة لغاندى وأخرى لستالين .

والحقيقة أن برنارد شو بوضعه هاتين الصورتين فوق سريره ، أراد أن يضع أمامه دائما حكمة رائعة ، هى أننا لن نصل إلى العظمة الحقيقية ، إلا إذا بلغنا الرقى المادى والاقتصادى الذى حققه ستالين فى روسيا ، و بلغنا الرقى الروحى والخلقى الذى حققه غاندى فى الهند .

رأى ستالين أن الشعب لن ينهض إلا إذا حُرِّر أولا من الحاجة المادية وزال عنه شبح الجوع والحرمان ، فهدف إلى إعادة البناء الاقتصادى على أساس من الحق والعدل ، لقد رأى أن الرأسمالية ونظام الأجور يركزان القوة فى أيدى أغنياء قلائل ، أما الباقون الذين لا يملكون رءوس أموال فليس لهم إلا الإرهاق والعمل المضنى مع الفقر والحرمان ، فعمل على ضمان العدل ، وعلى تهيئة نظام للعمل ، واستطاع بواسطته أن يرفع من مستوى المعيشة فى روسيا للعمال والفلاحين ، وذلك بكثرة الإنتاج وتسهيل التقدم الفنى فى الصناعات .

أما غاندى فقد خصص حياته لتربية الروح والنفس والسمو بهما . لقد رأى المجتمع لا يقدر الممتلكات الروحية والنفسية حق قدرها ، والناس تتهافت على الثروات والسلطات المادية ، ورأى أنه إن اهتم الفرد بروحه وخلقه ، وقدر استقلاله الذاتى وحريته الشخصية استطاع أن يصل إلى درجة عظيمة من الرقى ، فدعا دعواته الروحية بين الشعوب ، و بث عقيدته هذه فى الملايين ، وقد نجح غاندى نجاحا جعلنا نعتبره من أكبر المصلحين فى التاريخ كله .

رأى برنارد شو أن للحياة اتجاهين ، اتجاها تتحكم فيـه المادة والقوة ، وقد استطاع ستالين أن يبلغ الذروة فى تنظيم هـذا الاتجاه ، و بلغ غاندى الذروة فى تنظيم الاتجاه الآخر ، وهو الاتجاه الروحى والخلقى .

« فى رأيى أن فلسفة القوة تستطيع أن تعيش وحدها ، وأن فلسفة الروح تستطيع كذلك أن تعيش وحدها ، ولـكننى لا أعتقد أنهما يستطيعان أن يجتمعا معاً ، إلا كصورتين ، وفوق سرير لفيلسوف . »

ورقة بن نوفل

فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أوحى إليه فى أول مرة فى غار حراء رعب وتمالكه البرد ، حتى ذهب إلى زوجته خديجة فقال لها مرة : زملونى زملونى ، ومرة : دثرونى دثرونى . ودُعِىَ فى إحدى سور القرآن يا أيها المزمل ، وفى الأخرى يا أيها المدثر . فأشكل الأمر على محمد نفسه ، وعلى زوجته خديجة ، فأشارت إليه بأن يذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، إذ اختلط عليهما الأمر : هل هذا وحى من وحى الكهان ، أو هو وحى من جنس وحى الأنبياء ، أو هو مسّ من الجن ، أو ضرب من الجنون ، أو نوع من الإلهام كالذى يجده الصوفى ؟ كل ذلك جائز ، فذهبا إلى ورقة بن نوفل ، فسأل ورقة أسئلة خاصة ، وامتحن امتحانات خاصة ؛ فأولا استبعد أن يكون ضرباً من الجنون أو مسًّا من الجن ، لأنهما ضربان مؤذيان ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم خيّراً يصل الرحم و يحمل الكلّ ويعين على نوائب الدهر . إذاً فالله لا يخزيه بالجنون أو بمس الجن ، كما قالت خديجة « كلا ، لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتعين على نوائب الدهر » فهو حقيق إذاً بالإكرام لا بالامتهان ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ! ثم كان أن سأل أسئلة عن طريقة الوحى ، وسمع الإجابة عنها ، فكان أن علم أن هذا الوحى من جنس الوحى الذى نزل على الأنبياء قبلا ، و إلى ذلك أشار بقوله : « ذلك الناموس الذى نزل على موسى » و بذلك طمأن النبى ، و بشرّه بالنبوة ، وشد قلبه ليتابع هذا الوحى باطمئنان ، فأدى ورقة بذلك خدمة جليلة للإسلام .

وفى الأخبار أنه ابن عمّ لخديجة ، كان قد تعلم العبرانية وقرأ كتبها ، ورضى بالمسيحية مجردة من الخرافات والأوهام ، وكان رجلاً كبير السن هامة اليوم أو غد ،

محترماً فى قومه مصدقاً فى قوله ، قد أنست به خديجة لأنه فى حكم قرابتها كأبيها ، فإن غش أحداً لا يغشها ، وكان معروفاً بين قومه بالدعوة إلى الخير والتعاون وعدم التشاحن ، لذلك لجأت إليه خديجة ، وكان شهماً رأى بالفراسة و بعلمه عن الأنبياء الأولين ، وأن فريقاً منهم كذب ، وفريقاً قتل ، أن محمداً سيوحى إليه ، وسيكون نبيًّا ، وسيؤذيه قومه وسيخرجونه من بلده ، ولذلك ودّ ورقة أن يعيش حتى يرى محمداً نبيًّا فيؤازره و يكون معه إذ يخرجه قومه ، فقال له محمد صلى الله عليه وسلم : « أو مخرجىّ هم ؟ » . قال له ورقة : « ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا أوذى » . وقد علم ورقة مما قرأ وعلم أن هذا الهيكل البشرى لا بد أن تكون قد اتصلت به روح غريبة من جنس ما كانت تأتى للأنبياء من قبله . نعم إن أرواحاً كاذبة كانت تتصل ببعض الخلق كالتى جاءت للكهان ، والتى جاءت لمسيلمة ولطليحة ولسجاح ونحوهم ، ولكنها ليست من جنس التى تأتى للأنبياء . وهنالك أرواح طيبة دون الأرواح الأولى تنزل على بعض الأشخاص كالتى نزلت على ابن الصياد ، وكان منظراً لطيفاً أن رآه محمد صلى الله عليه وسلم ، واجتمع النبي مع المتصوف وقد خبأ له دخاناً مما تخرجه النار على حد الأقوال ، أو ذكر آية الدخان فى سورة الدخان : « يوم تأتى السماء بدخان مبين » . ثم سأله ماذا خبأت ؟ فقال له : الدخان . فسأله محمد صلى الله عليه وسلم عن هذا الوحى الذى يأتيه ، فقال : إنه مرة يصدق وحينا يكذب ، فعلم النبى من ذلك أنه ليس نبيًّا ، لأن النبى لا يكذب ، ولا يخيب أبداً ، وإنه على حد تعبيرنا اليوم يستطيع أن ينوّم نفسه تنويماً مغناطيسياً ، فهو يجيب إجابة صادقة عن الأشياء التى يعرفها السائل ويسأل عنها ليختبر المسئول . أما ما لا يعرفه السائل من الأمور المستقبلة ، فهى بين الصدق والكذب ، وذلك شأن المنوّمين تنويماً مغناطيسياً اليوم . على كل حال كان ورقة بن نوفل عالماً بكل هذه الضروب ، أيها لنبى ، وأيها لولى ، وأيها لكاهن ، وأيها لكاذب .

وقد كان ورقة بن نوفل من هؤلاء العدد القليل الذى كان يكره الشرك ولا يرى خيراً كثيراً فى اليهودية والنصرانية ويختار لنفسه ديناً يرتضيه ، ويعلم علما واسعا عن النصرانية واليهودية ، وكان من هؤلاء الناس الذين يسمون « الحنفاء » ، والفرق بينهم وبين الأنبياء كالفرق بين الأنبياء والأولياء ، كلٌّ يريد دينا حقاً يتدين به ، ولا يهمه شىء من ضلال الناس . أما النبى الرسول فيود دينا صحيحا لنفسه ولغيره ؛ يمثل هذا ما قاله الصوفىّ الهندى الأستاذ عبد القدوس ، إذ قال لما سمع قصة المعراج : إنه لو عرج إلى السماء ووصل إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى وبلغ سدرة المنتهى ما عاد إلى الدنيا ، ولكن النبى رأى كل هذا وعاد لأنه يهمه الناس كما تهمه نفسه ، وكان غيوراً أشد الغيرة على هداية الناس ، حتى قال له الله تعالى : — « لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

وكلمة الحنفاء من الكلمات الغامضة جداً ، فهى تدل على الميل عن دين التقاليد أخذاً من « الحنف » بمعنى الميل ، ومنه سمى الأحنف بن قيس لميل كان فى رجله ، فلخروج هؤلاء الحنفاء عن تقاليد قومهم سموا حنفاء ، وهى لفظة فى الأصل آرامية تدل على المروق من الدين المعتاد بين الناس . ولكنها كانت فى الآرامية لفظة ممقوتة تدل على المروق من الدين ، أما فى الإسلام فكلمة محبوبة . كان إبراهيم حنيفا ، أى خارجاً عن دين قومه الذى يقول بعبادة النجوم ، وكان ورقة بن نوفل حنيفا لأنه لم يشارك قومه فى عبادة الأصنام ، وسمى المسلمون جميعا حنفاء لأنهم اتبعوا ملة إبراهيم ، وقال الله تعالى : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » . وفى القرآن آيات كثيرة فى وصف الحنفاء بهذه المعانى .

على كل حال كان ورقة بن نوفل عالما متبحرا فى الأديان السابقة واللاحقة ، وكان أيضاً متفرسا صادق الفراسة ، يقيس الحاضر على الماضى ، وكان قد قارب الوفاة وودَّ لو رأى النبى محمداً بعد أن تتقدم به النبوة فيتبعه ويؤازره ، رحمه الله .

ونختم قولنا بحديث البخارى فى هـذا الموضوع . عن عائشة رضى الله عنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله و يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل إلى خديجة بنت خويلد ، فقال : زملونى ، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وقد أخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت له خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزّى ابن عم خديجة ، وكان امرءا تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن العم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجىّ هم ، قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلى عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفىّ وفتر الوحى .

أسس الأخلاق فى الإسلام

فى القرآن الكريم آية تعد من أهم الآيات التى تبين أسس الأخلاق الإسلامية ولذلك يرددها أئمة المساجد كل يوم جمعة على آذان المصلين وكان عبد الله بن مسعود يقول فيها : « إنها أجمع آية فى القرآن للخير والشر » . وكانت سبباً فى إسلام عثمان بن مظعون لما سمعها فرأى أنها جامعة لخصال الخير والشر ، ورأى أن ديناً يأتى بهذا جدير أن يتبع . تلك هى قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان و إيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » .

لقد أمر الله فيها بخصال ثلاث من أهم خصال الخير ، ونهى عن خصال ثلاث من أهم خصال الشر ، فأما خصال الخير فأولها العدل ، وهو أن يعطى الإنسان كل ذى حق حقه ، فالمدين يجب أن يؤدى دينه وهذا هو العدل ، والغاصب والسارق ظالم لأن كلا منهما أخذ ما ليس من حقه ، والبائع الذى يكيل للمشترى أو يزنه أقل مما اتفقا عليه ظالم لأنه لم يعطه حقه ، والقاضى المتحيز ظالم لأنه أخذ من أحد الخصمين بعض حقه وأعطى للآخر أكثر من حقه ، فإن ارتشى بأى نوع من الرشوة فقد أخذ ما ليس من حقه أن يأخذ ، وهكذا لو دققنا فى معنى العدل وجدناه أساساً لكثير من الفضائل .

وهناك نوع آخر من العدل ، وهو عدل الحكومة مع شعبها ، فعليها أن تؤدى للشعب حقه عليها ، فتجلب له السعادة وتبعد عنه أسباب الشقاء ، وتوفر لكل طائفة من الشعب وسائل رقيها ، من صناع وتجار وزراع وطلبة وموظفين ، وتشرف على موظفيها حتى يرعوا مصالح الناس ويؤدوها على خير وجه من غير تأخير أو إهمال وهكذا .

والقرآن يطالب بهذا العـدل فى مواضع منه كثيرة ، وله فى ذلك نظرة هى غاية السمو والنبل ، فيأمرك بالعدل مع من تحب ومن تكره ، ومن هو على دينك أو غير دينك ، يقول فى آية أخرى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنَّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » . أى لا يحملنَّكم بغضكم لقوم على أن تظلموهم ، ولا تلتزموا العدل معهم ، بل العدل واجب إنسانى مع من أحببت أو كرهت ومع من وافقك فى الدين أو خالفك . ومن أجل تقديره لهذا العدل أمر بالوفاء بالعهود مع كل من تعاقد معهم المسلمون من أى ملة أو دين ، وهذا أسمى ما تصل إليه البشرية .

أما الخصلة الثانية بعد العدل فهى الإحسان ، فإن كان العدل إعطاء كل ذى حق حقه ، فالإحسان إعطاؤه ما فوق حقه ، فمن الحق أن تأخذ دينك من المدين فإن رأيته معسراً فعفوت له عن دينك فهذا إحسان — وعلى الجملة فالإحسان يتطلب الشعور بالعطف على الناس وتقديم الخير ممن يقدر لمن لا يقدر ، فالغنى مأمور بإعطاء جزء من ماله للفقير ، والعـالم مأمور بتقديم زكاة علمه للجاهل ، والقوى مأمور باستخدام قوته لمعونة الضعيف ، وهذا هو ما عبر عنه القرآن بالإحسان ، وليس مقصوراً على ما يتصوره العامة من وضع يدك فى جيبك واستخراج قليل من المال تضعه فى يد الفقير ، بل الإحسان أعم من ذلك وأشمل ، هو عطف شامل من أفراد الأمة بعضهم على بعض ، بل هو كذلك عطف الحكومات على أرباب الحاجات .

وخصص الله فى الخصلة الثالثة الأقرباء بالإحسان ، فالإحسان للناس عامة واجب ، وهو لذوى القربى أوجب ، فواجب أن يترابط أفراد الأسر ، ومن ارتباط الأسر ترتبط الأمة .

هـذه هى الخصال الثلاث التى شددت الآية فى التزامها والعمل بها ، أما المنهيات الثلاثة التى وردت فى الآية فبالتأمل فيها نراها شاملة أيضاً شمولا

عجيباً ، ذلك أن علماء الاجتماع والقانون يقسمون الرذائل أو الجرائم إلى أنواع ثلاثة ، جرائم يأتيها الأفراد نحو أنفسهم وهى الجرائم الخلقية التى لا تدخل فى نطاق القانون ، كالكذب والحسد والنفاق والرياء ونحو ذلك ، وجرائم تقع على أفراد الأمة ويعاقب عليها القانون ، كالسرقة والقتل وكل ما فيه تعد على أنفس الناس وأموالهم ، وجرائم تقع على السلطات الحاكمة ، كالسعى فى هدم الحكومات ، وهذه الأنواع الثلاثة تقابل الرذائل الثلاث فى الآية ، فالفحشاء الأعمال القبيحة تصدر من الشخص وتؤذيه ، ولذلك سمى البخيل فاحشاً ، وقيل للشخص إذ أجاب إجابة سيئة أفحش فى الجواب وهكذا ، والمنكر ما يصدر عن الناس من جرائم تضر بهم ويستنكرونها إذا حدثت ، وقد اعتاد القرآن أن يسمى الفضائل الاجتماعية معروفاً ، والرذائل الاجتماعية منكراً ، وجعل من أصول الإسلام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . ويرمى بذلك إلى أن تكون الأمة يقظة واعية لكيانها ، فإذا رأت نقصا فيها ارتفعت أصوات عقلائها باستكماله ، وإذا رأت خللا فى بنائها من أى ناحية كانت طالبت بإصلاحه وهذا ما تقوم به الآن البرلمانات الراقية والجرائد المنصفة .

وأما البغى فمعناه الخروج على السلطة الحاكمة بوسائل العنف ، ومن ذلك قولهم : « الفئة الباغية » أى التى تخرج على الإمام العادل . ذلك لأن الإسلام يريد استقرار الأمور واستقرار السلطة الحاكمة مع صلاحيتها لأنها المشرفة على النظام العام ، فإن حادت عن العدل أو الحق وجهها أولو الأمر — أو كما نقول نحن الرأى العام — إلى الجهة الصالحة ، فالوسيلة للإصلاح هى النقد الصريح الجرئ وهذا يدخل — أيضا — ضمن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وبعد فإن الأمة التى تتبع هذه الأصول الثلاثة ، وتتجنب هذه الأشياء الثلاثة أمة مثالية . فلنتصور جماعة من الناس ، أو أمة من الأمم ، عدل أفرادها

فأدوا لكل ذى حق حقه ، وعدلت حكومتها فأدت واجبها ، ثم تعاطفوا فيما بينهم ، فساد بينهم الإحسان وخاصة على ذوى قرباهم ، ثم تجنبت هذه الجماعة الجرائم الفردية الشخصية ، والجرائم الاجتماعية ، والثورات الانقلابية ، فأى جماعة أسعد من هذه الجماعة ، وأى أمة أرقى من هذه الأمة .

لقد وضع الإسلام خير نظام للأمة بهذه الآية « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » . وفهم خاصة المسلمين أنها من أجمع الآيات فى بيان الخير والشر ، فكرروها على أسماع الناس فى كل مناسبة .

إن أسلوب القرآن فى الدعوة إلى الأخلاق أسلوب عملى يلمس الواقع ويدعو إلى تنظيمه ، ليس أسلوب الفلاسفة فى بحث النظريات ، وإقامة البراهين المنطقية الجدلية ونحو ذلك ، إنما هو أسلوب يعمد إلى أصول الفضائل فيبينها ، ويدعو إليها ، ويوقظ المشاعر للعمل بها ، هو أسلوب يوافق العامة والخاصة ، والفلاسفة والجماهير ، كل يستقى بمقدار استعداده .

ليس ينقص المسلمين دستورهم الذى ارتضاه الله لهم ، وإنما ينقصهم فهمه حق الفهم ، والعمل به فى دقة وإحكام والتزام ، فما قيمة القوانين الراقية وضعت على الرف ، وما قيمة النصائح الغالية صمت عنها الآذان — إن القرآن — دائما — يقرن الإيمان بالعمل ، ويطالب بهما جميعاً ويجعلهما ركنى السعادة ، فهو يعبر بالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يعتد بإيمان من غير عمل ، كما لا يعتد بعمل من غير إيمان — وفقكم الله للإيمان الصحيح والعمل الصحيح .